عمر بن الخطاب

رواية اجتماعية تاريخية

في اربعة اجزاء تصف حياة العرب الاجتماعية
والسياسية وكفاحهم في سبيل حرية الشام والعراق من زمن
محمد سيد قريش الى زمن امير المؤمنين عمر بن الخطاب

تأليف

معروف الارناؤوط

عضو المجمع العلمي العربي

الجزء الاول

ليالي شاعر

الطبعة الثانية

دمشق : ـ مطبعة فتى العرب عام ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م

عمر بن الخطاب

رواية اجتماعية تاريخية

في اربعة اجزاء تصف حيـــاة العرب الاجتماعية
والسياسية وكفاحهم في سبيل حرية الشام والعراق من زمن
محمد سيد قريش الى زمن امير المؤمنين عمر بن الخطاب

تاليف

معروف الارناؤوط

عضو المجمع العلمي العربي

الجزء الاول

ليـــالي شاعر

الطبعة الثانية

دمشق : ـ مطبعة فتى العرب عام ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٧ م

الى اولادي

مروان وغسان ومارية

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

اتراني استطيع التصوير ، او اجيد النقل ، فاصور لقارئي صورة من ماضي وانقل اليه حوار نفسي، وابثه شجن حياتي ، واقص عليه احاديث عشياتي ولياليَ وادله على الاماكن وعلى الاشياء التي مررت بها في ذات نهار ، فاوحت الي هذا الذي كتبته عن محمد سيد قريش ، وعن صاحبه عمر بن الخطاب ، يخيل الي انني لا استطيع التصوير ، ولا اجيد النقل ، ولا احسن البث ، وما ذلك لخور في النفس ، ولا لنضوب في الحس ، ولكنني رجل ضيع كثيرا من آثار ماضيه وعازف ماعاديغري الناس بلحونه واغانيه ، وسائح لا يذكر الا يسيرا من نهاراته ولياليه ، وقلب برحت به شجونه والاعتهشؤونه ، فليعذرني الناس اذا لوحت لهم بالقليل الذي ادخرته ووعيته ، فانه على قلته وضؤولته قد انفرط من حياتي ، وسرب من اغاني ، وزرف من نهاراتي وعشياتي ، واني لقانع ان كثيرين من الناس سيقولون لي متى قرءوا كتابي الجديدقصرك أن تفعل ما فعلت ، فانه لكثير عليك ان تقول اكثر مما قلت

بلى سيقول كثير من الناس هذا القول ، وسأشكرهم وسأقول لهم لئن بقي في الامل طول ، وفي الاجل فسحة ، فسأكتب كثيرا واصور كثيرا واغني كثيرا ولا ينكر علي هذا القول احد لاني لا اجهل موضعي في الادب ؛ وان كان في ميادينه الواسعة من يزاحمني بمنكب اضخم من منكبي

يعيش المرء على كره منه ، او طوع اختياره ، في الماضي ، ويترك افكاره وخواطره ترتاد حدائقه وجناته ، ويرى ان من البر بنفسه ان يستعيد ذكرها الضائعة ، فيعيش فيها ويفني ما تبقى من عمره في غمارها ، فاذا رأى خليلا قديما انس اليه ، واقبل عليه ، وراح يقلب عينيه في صفحات وجهه كمن يقلب في كتاب ويناشده

المودة الا يذهب . ثم يفتشه لعله يجد لديه زهرة صغيرة من هاته الازهار العزيزة التي ضحكت له في مقاصر العشي عند رابية في الجبل او في سفح الوادي او على ضفـــة النهر !

ولقد فتشت عن هؤلاء الاصدقاء ، وبحثت عن احبهم الي فما رفت في عيني خيالة من خيالاتهم ، ذلك لانني صحبت فريقا من هؤلاء الى المقبرة ، وجزعت على مصايرهم وروعني ان تصعد ارواحهم الى السماء ، وان يتوزع اجسامهم النبات الذي يغشى قبورهم. والدود الذي يسكن الاعشاب، والفراشة التي تعيش من الزهر والبلبل الذي يأكل الفراشة

حينما تفكر في هؤلاء الاصدقاء الذين جفوك وقلوك ستقول في غير شك لقد يغتبط هؤلاء بالموت ، لو علموا انهم صاروا امواتا ، وسيتولاك جزع هادم ، لا لأن الرمس الذي تخافه قد واراهم عنك ، ولا لأن دنياهم لا تشبه دنياك ، بل سيتولاك هذا الحزن من حياتك ومن عزلتك

اما وقد نأيت عن احبتي في هذا اليوم ، واعتزلت الناس لأعيش عن كثب من مواضع وذكريات واشياء تبعث في نفسي شعورها بالرحمة والحب، اما وقد توليت عن تلك الاماكن التي احتضنت فيها طفولتي وذكرياتي فاني لأحب ان تفلت خواطري فتجفو اودية دمشق وتطير الى ذلك البحر الازرق الجاثم على قدمي بيروت وتفتش في نواحي المدينة التي خلفت فيها طفولتي ، ومراكض شبابي ، عن قبور الذين احببتهم وفي هؤلاء امي وابي ، واولئك الذين احببت من رفاق طفولتي ، فلعل خواطري اذا ردت الي بعد طوافها بالرفات الطاهرين تحمل الي عشبة من تلك الاعشاب النامية على قبورهم فاستمع فيها الى همس لذيذ كثيرا ما سمعته يوم كانت امي تجلس الي في ليالي الشتاء لتقص علي اروع ما عرفته عن حياة سيد قريش وصحبه ولعلني استطيع بعد هذا ان اكتب الى الناس ما لا ينفرون من قراءته والاستماع له ،

في صيف سنة ست عشرة وتسعمائة وألف ، القت بي حظوظي الى مغاني استامبول ، وارادني قدري جنديا من جنود الحرب الكبرى التي روعت العالم قاصيه ودانيه فارتضيت مالا يرتضيه العمر الطري الجني ؛ وفزعت الى منزل صغير في ضاحية فنار يولي ، على الشاطئ الوارف في بحر مرمرة الهادىء ، وصحبت معي الى المثوى الذي اشتمل علي كتاب الله وسيرة نبيه ، وقد حملتهما امي الى ساعة سفري واوصتني بالرجوع اليهما في محني وكوارثي واملت ان افيء اليها بعد اغتراب، ودعت لي وللذين يحاربون وينافحون ، فوعيت حديثها وحفظت دعاءها واسمعت روابي فنار يولي ، وشواطئ مرمرة ما كانت تقصه علي . واني لاذكر ليلة من ليالي الصيف في فنار يولي وقد خرجت من منزلي الى البحر فاحتواني الشاطئ وجلست على الصخر واسلفت اذني للسمع ، فاذا مؤذن القرية يدعو النـاس الى الصلاة واذا الناس يتنافسون في اللحاق بالمسجد الجامع واذا الفضاء الافيح تسيل على حواشيه اسماء رقيقة واذا اسم محمد بن عبد الله واسم ابي بكر الصديق ، واسم عمر بن الخطاب ، واسم علي بن ابي طالب ، اذا هذه الاسماء تنسجم جميعا في صوت المؤذن فيسمعها البحر ويعيها الشاطئ ، ويهتز لها الافق . فرقت نفسي لهذا الاسلام الذي ولد في الصحاري ثم لم يلبث ان سكن الى الينابيع والجبال والسهول والمدن واحسست كأني مرتبط بدنيا هؤلاء الذين خلعوا رواء حياتهم على العالم فمشيت متزملا الى المسجد الجامع كأنما اخطو على رأسي من فرط الورع حتى اذا احتوتني جدره واظلتني اقواسه وحناياه سكنت نفسي الى كتاب الله هدية امي الي فرحت الى الله فابثثته بثي وقرأت القرآن واوغلت في القراءة غزير الدمعة وقيذ الجوانح شجي النشيد واقسم ان موسيقى السماء كانت في تلك الفينة توقظ في نفسي عالما ما كنت انظر اليه من قبل فسموت اليه وتقسمت اصوات ناسه وتقفرت آثارهم ثم رجعت فاذا انا حيال هذه الشواطئ الساحرة اعرف محمدا واعرف صحبه ، واذا القرآن الذي استمعت لسوره ناقع القلب مبرود الغليل فسيح اللسان

يدلي على المعنى الرائع لهذا الفتح الجليل الذي افتتحه الاسلام في عاصمة قيصر وما اغلو اذا قلت ان انشودة جديدة انبثقت من القرآن وطفرت الى نفسي فامالتها وسحرتها واستجاشتها الى تذكر معاني الاسلام، وما اروعها واجلها واقدسها!

من ذلك اليوم الذي لاينسى ذكراه ابناء هذا الجيل المروع ما جفوت محراب القرية خلال صباح وخلال مساء

لشد ما اخافتني هـذه الحرب الضروس، وارعشني ان تسيل الدماء في بطاح هذه الدنيا، وان يقتتل الناس، وتعلق صورهم الشاحبة بخواطري وتلبس شواعري، فلا اطوي ليلة من ليالي الا رأيتني اتحسس هذا الروع الذي يحسه العالم والا سكنت نفسي الى التهاويل، فاذرع غرفتي جيئة وذهوبا، واروح ناظرا الى صورة لابي معلقة على الجدار، فيؤنسني ان بهذه الصورة عينين شاخصتين الي وان فيهما رقة وعذوبة، ورحمة ورضا كأنهما كانتا ترسلان الي في طريق حياتي ذلك النور الاقدس الذي يضيء قلب المغترب النازح، فيرى العالم السابح في ليل مآسيه كأنما هو قد اكتظ بالضحك ونفض عنه اشباح قتلاه ثم اطيل النظر الى صورة ابي الجاثمة على الحائط فارعش واميد وتنبهني الصورة الى منزل اسرتي في الوطن الغالي فاتمثله واري الى غرفه وسقوفه ومساطبه واستمع لابي فمايفوتني جرسه ولاينأى عني خياله واري الى البحر الازرق الذي خلفته يموربالزوارق والقوارب وقدحسر لي عن صخوره، واسمعني صوت هديره، فيخيل الي انني انظر الى طفولتي اللاهية، لا تمل ان ترتاد هذه الصخور المخضوضرة من عليا شوران الى جدة البحر عند ميناء الحصن!

وتهزني صورة الوطن، فاهتف لسمائه المصحية، ولسهوله الفنواء ولجباله الخضراء ثم اعود الى نفسي فاذا هي ريا من الكبر وما استكبر ولكن للادب شرفه وجلاله وروعته. انه ارستوقراطي المولد. شريف النبعة وانه على شرفه

ووقاره وجلاله ينبثق من ... انية سامية ، لاتشبه افكارها هذا الذي يفكر فيه الناس في حياتهم السا ئمة الى نغم واحد، وفيم لا يدل الاديب ولماذا لا يزهو الموسيقي ويختال المصور ، الا يفتن احد هؤلاء عالما برمته فيمسح آلامه الوضيعة ويستبدل بها آلاما رفيعة ، ويحول من صورته الكامدة ، وجثته الهامدة ، صورة تمور بالسنى والسناء ، وحياة يلبسها المجد والكبرياء ! اسمع ! ان صوت الشاعر ليترجع ويتردد في العالم كله ، قريبه وبعيده ، في كل زمن ، وفي كل عصر على بعد مائة خطوة او على بعد الف ميل ، او على بعد الوف الاميال ، بل ان شهرتـــه الطائرة لا تعرف حدودا ولا تخوما في حياة او في موت ، لقد كان في حياتـه يعيش في افق ضيق لا يعدو القرية المتواضعة التي ولد فيها ، ولكنه وقد مات ، وركد حسه وشعوره وسكن خياله لا يلبث ان يخترق الحجر الصلد ، وينفض عنه التراب ، ويطل من خلال العشبة النامية على حياة الناس

كنت اذا مللت كتبي واوراقي في منزلي الصغير عند جدة البحر في فنار يولي انزع الى زيارة صديقين من اصدقائي الذين قاسموني حظوظي العواثر في المعسكر فانزل عليهما في منزلهما السامق على رابية من روابي ارن كوى المخضلة ويتلقاني الصاحبان النجيان في فرحة وانسة ، فاتلقاهما في فرحة وانسة ، وكانا على ولعهما بحياة الجند موسيقيين بارعين ، ومصورين فاتنين ، بل كانا شاعرين مجيدين مكن الله لهما في التوفيق بين فتنة الموسيقى وفتنة التصوير فما اظلتهما العشية الرخية الا رأيتهما على الصخر عند سيف البحر في ارن كوى ، يغنيان الطفل المشتعل ويصوران الوانه المستفيضة على حواشي الدأماء ويفيئان الى المنزل ليحلما بسحر المساء في الطنف المطل على مرمرة

وكانا ساعة دخلت ، يغنيـــان فشاع غناؤهما في نفسي فطربت ، وكأن النغم اضمرني فغبت في قرارته فما احس لنفسي بعين او اثر ، ويطير النغم من النافـدة

المطلة على الرياض الغناء ويحلق في سماء القرية فيعلق اثر منه بالغابة ، والطريق وبالشاطي !

كنت في الثامنة عشرة ، وانهما اني عمري ، وكنت من طرازهما في ولعي بالموسيقى والتصوير والشعر وان كنت لا اجاريهما في الضرب على المعزف والتصوير على الورق ، وكان حائط الغرفة نديا بصور ملونة بعضها مقتبس من قصص شعرية لعبد الحق حامد قالها في عبد الرحمن صاحب الاندلس ؛ وفي طارق بن زياد مقتحم المحيط ، وصاحب الفتح الاغر ، وبعضها يمثل صقر قريش في جماعة من صحبه وقد فروا به في الليل المغدر من الشام الى الاندلس ، وفي الحائط المقابل سور من القرآن واسماء محمد وابي بكر وعمر وعثمان والعشرة المبشرين بالجنة ، وكنا ونحن على طنف الدار ننظر الى بستان تفتح فيه ورد وياسمين وشقائق والسماء متغيمة غيما مطبقا وقد بدأت ترش رشا ساكبا وكنت انظر الى صورة ذلك القرشي الذي انسل من دمشق فرارا من القتل ليذهب في غده الى طليطلة وينشيء ملكا وحضارة واحد صديقي يحقق العود في اكمل نشاط واحسن مرح ، ثم اذا هو يغني اهزاجا قديمة ، وحديثة بصوت عذب النبرات كأنشودة الطائر ، وكنت انظر الى عينيه فتبدوان هادئتين ساجيتين وارى الى وجهه فيبين لي كالزهر ولكنه اندى صورة واطيب نشرا ، ثم رأيته يندفع في الضرب ويتدفق في الغناء حتى لاقسم ان هذا العالم الذي صوره عبد الحق حامد في اغانيه وشعره قد خرج الينا بملوكه وغزاته وفتوحه وشعرائه وندمائه بل اني لاقسم اني احسست وقد ضمني المثوى الصغير عند جدة البحر في ارن كوى ان الاندلس قد جثمت ليلتنا على حائط الحجرة فشهدنا طارقا ورأينا طريفا وذلك الفتح الذي فتحته دمشق في زمن الوليد بن عبد الملك فيالها من امسية قادرة على الخلق فلقد ردت الينا في النغم الماتع والجمال البارع صور الاوائل فرأينا السفن تمخر في البحر بين ساحل وساحل ورأينا الفرسان يطوفون الصحارى ويطلون على المدن ثم

رأينا امير المؤمنين في دمشق يستمع لحديث موسى وطارق عن هذا الفتح الجليل الرائع وهكذا اسمعتني الليلة الساجية مالم املك معه نفسي ولا لبي ، وعدت الى قريتي اتثاقل في مشيتي ، وبصري اهلها ، فنكروا فرقي ومضوا يتساءلون عن جزعي ويقولون له الله ما اشد ما يعانيه

ومرت بي ربة المنزل الذي اسكنه ، فقالت لي لعلك قد اصبت نبأ لا تأنس اليه ولا تحبه ، فقلت لا ولكني تعب فضحكت وقالت اخاف ان يتولاك حب فتمضي لياليك في مصاحبة الكواكب ، والطواف حيال الشاطيء ، الا قل لي بحق امك التي تحب ، اي امرأة في هذه القرية ، افرغ الله صورتها في قلبك ، حتى شحب لونك ، ولو اني اعرتها اذني لحدثتني كثيرا ، فحدت عن طريقها ، وضحكها العابث يستفيض ويتسع ، حتى اذا اويت الى معتكفي ، واحتواني طنف الدار ، رحت افكر في حياة ذينك الصديقين النجيبين . واعجب من تغاير الوانها وخطوطها فلقد كانا جنديين باسلين ، وكانا يخرجان من الصباح الى الجبال مع الكتيبة ويطوفان بالحزون والنجود ويتسلقان القمم والقلل ويتبادلان النار ، في صميم الاودية كما يفعل الجند اذا تسايلوا الى قتال عدو وهمي ، ثم يعودان الى القرية تحت ذوائب المساء ، فاذا طرحا لباس المعركة ووضعا السلاح على الحائط عادا انسانين رحيمين وصبت نفساهما الى الطرب والى المتع الشهية ، فشربا الرحيق وتباريا في الغناء واسمعا روابي ارن كوي ، وشواطيء ذلك البحر اصوات العالم الذي يعيش ويضطرب في شعر عبد الحق حامد وهكذا كان هذان الجنديان الصغيران يحبان وطنهما بروح عبد الحق حامد لا بل بروح اولئك الذين تغنى بهم عبد الحق حامد في شعره فما عشت فلن انزع هذه الخطوط وهذه الالوان الجليلة من نفسي وما ينبغي لي ان اعرض عن هذه الصفحة الرائعة من كتاب حياتي ومن ذكرياتها الماجدة بل اني لاحب ان تغمر حياتي كبرياء هذا الجندي الذي دافع عن وطنه بروح طارق بن زياد وبروح هذا الاسلام الذي عبر الصحراء الى

بحار هذه الدنيا الواسعة ليلقي على شطآنها اجمل عطوره واعذب اغانيه

في عشية من عشيات الصيف زرت صديقي في قصر ابيه الجاثم على رابية تزلق الى شاطىء البوسفور ، فتلقاني بحمية الصديق النجي واراني السفوح الخضر وقد امتدت عليها ظلال التوت والرمان والتفاح ودلني على بيوت القرويين البيضاء وكذلك اراني الشاطىء وقد ماج بالقوارب والزوارق ، وسألني سياحة قصيرة بين الازرقين، السماء والدأماء فـما ابيت عليه ما سأل ، واقلنا زورق صغير الى البحر الوادع الساكن وسمعنا معا اناشيد هؤلاء الذين حسرت عنهم بيوتهم في هذه العشية فراحوا يهزون سكينة هذه الشواطىء باغانيهم في الحب والشهرة والمجد ، حتى اذا امتلأ الافق بلذيذ النغم ، ورعش اريج الصنوبر في نسمات الليلة المضيئة ، رحت اصوغ في نفسي ذلك العالم الذي احسسته قبل ليال فاقمت خلفه في لحظات بطاء وخلعت على ناسه الحركة والحياة وصديق امامي ورفيق اعوامي ، يغني اغانيه في ريث ودعة فيساعدني غناؤه على الابداع في الخلق ذلك بان هذه الليلة الساجية قد ابتعثتني على كتابة اول اشعاري في الاسلام ففي استامبول ، على الشواطىء الهادرة ، التي لم تشقها سفن امير المؤمنين معاوية ، ولم تبلغها سفن مسلمة ابن عبدالملك في خلافة امير المؤمنين الوليد ، فجازتها جيوش محمد الفاتح ارتج الاسلام في قلبي وولد انشودة اسمها سيد قريش ، وانها لحادثة رائعة ، اتمها الله على يدي ، في زمن مسح فيه انتصار القوي الحدود الجغرافية ، واستعبد الامم الصغيرة ، وطوى حرياتها وفصل بين غابرها وحاضرها

وقد حدثت صديقي ، عن هذا الوليد الجديد ، فلذ ميلاده وامل ان تفيح حياته وتبسق ، وفي اليوم التالي ، رحت الى تلال فناريولي ، رباه كلما مرت بخاطري صورة من هذه الجنة الحادره ، ورن في اذني هدير موجها الذي ينطح الصخر وفاحت في عيني شطآن استانبول تحت سماء شديدة السناء ذكرت مسجدها الجامع ومحرابها الاقدس ، وطواف المصلين بساحته الصغيرة ، وذلك الدعاء الذي انملس

من قلوبهم لجري على السنتهم حتى سمعه الشاطيء ووعاه الجبل ، بلى رحت الى تلال فناريولي ، وشرعت في جمع هذا القطيع الشارد ، من ذكريات هاجها في روحي جلال الفتح و ذكاها في شعوري ، مجد الفاتحين ؛ ويدي تطرس على الورق اشياء كثيرة عن ميـــلاد هذه الملحمة العربية التي ولدت في ذات يوم في صحـــارى العرب ، ثم ابى الله الا ان يصب لحونها في اواذي هذا الخضم الثائر من صخور بحر الظلمات ، الى صخور البحر الاحمر ، فاذا احسست بعض الفتور ، انطلقت الى جنة في الجوار ، ففيأني ظلها الوارف ، وتهاوت على رأسي بواسق التفاح والنارنج والرمان ، وضحكت في عيني حمرة الكرز ، وترامت لي بجانب السرحة الغبياء بئر نزوع فشربت من مائها وعدت الى عملي ريان الحس شجي النشيد ،

لقد كانت احلامي تتسع وتفيض ، فما اجدني كفؤا لجمعها وتنسيقها ، انها كهذا البحر الذي ارى الى شواطئه المزهرة وكهذه السماء التي تظلني ، وانني لشبيه بزورق صغير طاح به الموج ، في ليلة قارسة ندفت السماء فيها على الملاح بمطر اوثلج ، وانني لكذلك اصور العالم الذي احب ، وانفخ في ناسه ، وافرغ عليهم ما احب من لون وحركة وعطر ، اذا صوت ضعيف ولكنه شجي ورقيق ينحدر الى سمعي من حائط الخميلة فاصغيت فاذا امرأة تغني واذا هذا الذي تغنيه لاشبه ما اعتاد الناس ترديده ، وتسجيعه في القري المجاورة ؛ انه لنغم ماتع ، حلو النبرات شجي اللحن ، في معانيه هذه الصور الكامدة التي تغشى حياة الشعوب الاسيوية المغلوبة ولكنه يستثير الكبر ، ويهز النفس ، وقد لبثت المرأة تغني في رفق وريث ، والنغم مرتفعا وهابطا ، مساوقة للحن الموضوع حتى سرب الى قلبي فوعيته وعرفت الفاظه وكلماته ، فاذا هو بالله بعض ذلك السحر الذي اراقه عبد الحق حامد لي قصائده ومآسيه فكأن الشاعر النبيغ ابى الا ان ترافقني اغانيه وتصاحبني لحونه من عليا التلال البارعة الى الشاطيء المورق ، وفي تلك الفينة تنغم السحاب وروح الراعي من الجبال المجاورة وتندحت الغنم واطلت المرأة من الحائط على الموضع

الذي نزلت فيه ، فكأنها غمامة من الزهر الابيض انفلتت من هذه النباتات العارشه التى تغشى الحائط ، فاقرأني الله في السحابة ، وفي الراعي ، وفي القطيع ، وفي هذه المرأة البارعة اجمل اشعاره ، وانثنيت في ومضة البرق الى قلبي فاحسست عنفا في خفقانه وشعرت بانه عاد عامرا باشجانه ؛ ثم أويت الى منزلي لاقرأ واكتب فقرأت اشعار لامارتين ، وقرأت قصة حبه لالفير ، ومرت بخاطري ذكرى تلك الليلة التي خرج فيها الشاعر النابه مع الفير على زورق ، يزجيه الموج الى الصخر ، ثم يرفعه الى حالق ، ويهوى به الى اسفل ، وقد قرقر السحاب بالرعد ، وغشيت جبين الفير كدرة مخوفة ، فطأطأت رأسها وغيبته في صدر الشاعر ، وسألته ان يرجع بها الى الشاطيء ، لعلها تموت في غير هذا المكان النائي الذي افردت فيه ، ولعلها تسمع من فم حبيبها آخر اشعاره في الحب ، بل لقد قرأت قصة لامارتين والفير ، وكنت قد شرعت في تصوير حياة تلك التعسة مارية ابنه امريء القيس بن حجر ، احدى سواحر قصة سيد قريش ، فاذهلني ان ينشأ شبه بين نهاية الفير ، ونهايـــة مارية ، فلقـــد طافت الاولى بضفاف البحيرة ، ورأت السماء السدفاء ، واستمعت لطنين الرياح السافيات ، ورأت الى تصدع البروق ، فتقاصرت وتشاجت ، وقفلت الى المنزل لتموت بين ذراعي حبيبها العميد ، وطافت الثانية بشواطيء استامبول ، ورأت الى البروق والسحب ، واخافها ان يشتد الصرير والهزيم في السماء والدأماء فارتدت الى وكر الحب ، لتموت بين ذراعي ذلك الغساني الجميل عمرو بن الحارث ، لقد مضيت في تصوير تلك النهاية البارعة ، وذكرت الشعاب والصخور والخلجان الصغيرة التي لاتزال ندية بذكريات الماضي ، وما انكر ان روح لامارتين قـد صحبتني الى تلك الاماكن واني صليت بقبس من شعوره ، ساعة كتبت قصة مارية التعسة وكنت من نوعه وطرازه ، في طوافي بالصخر والشاطيء ، وفي حرصي على تلك الاشياء الصغيرة التي لاتنقطع صلاتها بتاريخ هوى قديم ، فما عشت فلن اجحد الصور البارعة التي رأيتها في كل ناحية من نواحي الافق ، فلقـد رأيتني ليلة اقبلت

على كتابة سيد قريش ،اعيش في السحب ،وفي الرعد ، وفي الشمس ، وفي الحب وفي هذه الشواطيء الكاسية التي مابرحت تنقل الى سمعي حديثا طيبا عن مارية وعن هجرة ابيها النبيغ الى بزنطيه

. . .

لااحب ان اتحدث الى القراء عن حياتي في استامبول ، لاني اشعر بان حياتي الساذجة الوادعة لاتحرك فضول الناس ، ولا تستثير اعجابهم ، ولا تبعثهم على الافتتان ، وهم الذين يحبون في الحياة الانسانية وقائعها وملاحمها ومغامراتها ، ولكني احب الا يفوتهم قليل من هذا الشعور الذي نشأ في نفسي في غضون تلك الحرب التي عصفت بالحدود والشعوب ، وقضت على حريات امم كثيرة ، فلقد خرجت منها وانا احمل في قلبي كثيرا من الهم وكثيرا من الشعر ، فاما الهم الذي حملته ، فلقد سرب الى نفسي من انكسار هذه الامة التي احبها ، ومن اخفاقها في جني ثمار كدحها وجدها ، فما اذكر اني عرفت في حياتي امـــة بذلت اكثر مما بذلت ارضاء لمنازعها ، ومسايرة لمطامعها ، وزلفى لماضيها البارع واكباراً لاثر هذا الماضي في تهذيب هذا الشرق وتنضيره ، ثم سلبها الغزاة محصولها من الانتصار ، واما الشعر الذي حملته واحسسته فما اغلو اذا قلت انه منبثق من جمال هذه الارض التي عاشت عليها ، فاذا رأيتني ايها القاريء شديد الاسراف في التصوير ، والنقل ، ورأيتني لاامل ارتياد الحزون والنجود ، والصحارى والمدن الوارفة الظل ، والانهار والشواطيء والخلجان والشعاب للبحث عن الاعشاب والنباتات وعن الذكريات الدارسة فذلك لاني احسست في هذه الاماكن وفي الاعشاب وفي هذه النباتات النامية على القبور المبثرة بين شواطيء طبريا وهضاب اليرموك وسهول القادسية ، عطر ذلك الجيل المقدس الذي كان من احب امانيه ان يرضي الوطن في توسيع مطامعه ، وتضخيم منازعه ، وتمجيد فضائله فرب عشبة من هذه الاعشاب التي يصاحبها كر الغداة ومر العشي ؛ ولا يسلبها الزمن نضرتها ورواءها تحمل في ارتعاشاتها الندية مالا تقرؤه في سفر ضخم

ان الاداب والفنون اشبه ما تكون بنهر عظيم يزلق ماؤه الى غور بعيد ، ولهذا النهر شاطئان ، تضحك على شاطئه الاول ازهار بيضاء وزرقاء بعضها شائع وبعضها مغمور وبينها رياحين خلاء من الشوك، لايحس اول قادم اي عنت في قطفها ولا تسيل جراحه اذا نازعته منى النفس الى جمعها في عقود واكاليل ، ولكن هذه العقود ، وهذه الاكاليل ، واحدة في اللون وفي الصورة وفي العطر وان كانت تختلف طولا وقصرا .

لقد اردت ان اتحدث عن الانتصارات السهلة التي جنى جنيها كتاب وشعراء ما كانت لهم في حياتهم جرأة على معاناة الصراع والنزاع ، ومكابدة تباريح المجد وكل ما فعله هؤلاء انهم جاءوا الى هذه الدنيا على غرار الذين تقدموهم وانهم جازوا جنة ذات افياء فالفوا ازهارها تضحك للشمس التي تهيج الحياة واللون في البراعم، وللندى الذي يهيج العطر في الازهار ، فجمعوها في عقود واكاليل ونشروها في الناس وعادوا الى اما كنهم من غير ان تضرج ايديهم زهرة شاكة او يضنيهم امعان في الزرع ومران على الحصاد مثلهم في ذلك مثل ذلك السري المترف الذي تدلف ذات ليلة من حجرته الى جنة قصره ابتغاء الراحة والسكينة فمشى على الرمل بين صفين متقابلين من الازاهر ثم انقلب الى قصره لا يشكو تعبا ولا يحس وصبا !

ان هؤلاء الذين طافوا باحد شاطيء النهر معتزلين هواته ولججه والذين جمعوا الازهار في عقود واكاليل ، هم اولئك الكتاب الذين ينقلون الصورة البارعة نقلا ناقصا جاهلين ان الصورة البارعة تربح بشهرتها اكثر مما تربح من النقل الناقص ؛

على الشاطيء الاخر من النهر ، في ذلك الجانب المطل على اللجة ازهار جميلة صورها الوهم وخلقها الحلم ، وابتعثها الخيال، انك اذا نظرت اليها انقلبت مفتونا بزرقة وحمرة وخضرة ولكن هذه الاوراد على سحرها وفتونها مشيكة ومخيفة فاذا شممتها، اخذتك عطورها وغيبت احلامك في خمر مشمولة، ورأيت بينها تلك الاقحوانة التي فتن

بياضها روسو ، والى جانبها زهرة السدر التي اضحكت هوميروس وذلك الغصن الذهبي الذي زين جبين فرجيل وتلك الزهرة البريئة التي اضاءت على نافذة ذلك التعس الذي كتب فيكتور هيغو قصة اعدامه !

هذه الازهار التي اتحدث عنها واسمها هي تلك الطرف الرفيعه التي كتبها اصحابها بدماء القلوب ودموع العيون لا بالمداد، فلقد حلم بها كاتبوها في آلامهم واشجانهم فعاشت في حدة تصوراتهم وفي ثورة عواطفهم قبل ان يكتبوها فلما عادت كتبا واشعارا اذا هي ترتفع وتسمو فوق حياة الناس جميعا .

تمكث الشعراء والكتاب واصحاب الفنون الرفيعة ورجال الاداب على الشاطىء الاول من النهر وادعين هادئين، حتى اذا كان في هؤلاء من اعاره الله جناحين قويين احس القدرة على الطيران فحلق فوق النهر واللجة ، وانحدر في ريث ورفق الى الشاطىء الاخر ، اما اولئك الذين ليست لهم اجنحة فعوضهم الله عنها بالجنان الثابت ، والساق القوية ، فهؤلاء لم يجدوا بعض العنت في ارتياد الصخر الواعر ، فلبثوا في عراك مع اللجة الثائرة ، ولبث التيار يتخطفهم ويتقاذفهم ، حتى لان لهم الماء ، وجازوا النهر ، ثم استأنفوا طريقهم على الاصلاد والاشواك ، وخلصوا الى تلك الجنة الحادرة ، فجاسوا خلالها وتفيأوا ظلالها وضحكت لهم اورادها وازهارها .

يوجد بين هذين الجيلين اللذين طافا بالحديقة الغناء جيل آخر يرجح عليهما في سمو تفكيره ، ورقة شعوره ، واحتدام خواطره ، ولكن هذا الجيل الذي اخضب ذكاؤه ، وزهت فتنته وفطنته ظل طوال عمره محتجزا عن مثل هذا النعيم الذي افاضه الله على اولئك الذين وقفت بهم حظوظهم عند الشاطىء المقابل ، من هذا الجيل من يلقي بنفسه الى اللجة فيهوي محطما على الصخر ، او يتلقاه النهر في لججه الراغية ، ومن هذا الجيل اناس لايبالون وهم ينزلون الى النهر ان تشقق اقدامهم ، وان تضرج بالدم ، وان يصرعهم التيار . ومن هذا الجيل اناس يعبرون

النهر ولكنهم لايقدرون على مغالبة اللجج ، ومكافحة التيار

يسمي العالم رجال هـــذا الجيل الذين خلقهم الله من طينة اسمى وامثل من طينة اولئك الذين اترفتهم النعمة ، واسكرهم المجد والثراء وهم مايزالون على الشاطيء الاول بلهاء ومجانين ثم هو يزدريهم ويبالـــغ في العبث بهم وينظر الى مآسي حياتهم في غير الم وبلا رحمة ،

اعرف شاعرا من شعراء هذا الجيل العبقري، اسمه لاسيلي، لقد قرأته واحتسبت ما عنده فاذا هو يحتقر ان يمر بالطرق الكاسية العاشبة ، ويمل ان ينظر في غدوه ورواحه الى النباتات والاقاحي ، ويؤثر ان يطفر من اعلى الطنف على ساقيه الى الشاطيء وقد امضى حياته في الانحدار ، الى الجلامد الثاقبة ، في طريقه الى النهر ، فلم تغرقه لججه ؛ ولم تبتلعه هوابه وظل طول حياته دائبا في الصعود والانحدار ، لا يثبطه عن هذا الامر الضخم ، ان تسيل جراحه ؛ وان يمزق ثوبه وما زال كذلك شأنه حتى زلت به قدمه في ذات يوم فسقط مخضل الجراح في نخروب ، تكاثف عـــلى جنباته اللبلاب والرند والصعتر والنعناع

ما قرأت لاسيلي مرة الا عرفت فيه ذلك الشاعر السري ، والاستاذ النابه والمغنى البارع ، والعاشق الواله، انه لا يمل ان يرتاد هذه الآفاق الواسعة ، لينتزع منها ذلك اللون الذي يأنس اليه ويستروح الى جدته وبهرته ولا يضنيه ان يتعاوره ثبج من ليله المديد وهو مكب على افراغ ذلك اللون الذي تصبـــــاه في البارع من شعره .

لقد تفاجأه وقد افردته شجونه في حجرته ، وذهبت تلية الشبــاب ، وعفت رسومه واطلاله فترى اليه وقد سدر في جمال فنه ، وغيب نفسه وحسه في سحره فما يستفيق من سدره وما بالغريب ان ترى الى لاسيلي سادرا هائما . فانه الاديب الذي يعرف ذكاء اللغة ، وعبقريتها ، تفتق له الفكرة ثم تضيء في خاطره المتوثب فيقلبها ويداورها ويصانعها فلا تلبث ان تنقلب تحت نظره الثاقب ، وذكائه المخصب

وشعوره الجائش الثائر ، وتصوراته التي لا تسكن الى مثل لمعان البرق بل انها تستحيل الى مايشبه السناء ، ثم هي تزهر ، وتورق فكأنها الحب غيبته الارض فلما دغدغته الشمس والقت اليه بشعاعها الساطع حال الحب الى شجرة ذات زهر وثمر !

تقرأ لاسبلي ، ولا تمل ان تعود الى قراءته ، فاذا اوغلت في تفهم معانيه وتذوق جنيه رأيته اقدر مايكون على ارواء عينيك بالدمع ، فترق وتتشاجى وتأخذك رقة ورحمة وقد تسيل مذارف دمعك من الاعجاب ، انه لقادر على ان يهديء روعك ، قدرته على اثارتك، وانه ليستطيع ان يوقظ في قلبك احاسيس الحب واحاسيس البغض ولا يعجزه امر عن الانة شجونك وانامة آلامك او هويتعشها فتزكو وتضطرم ، وذلك لان لاسبلي اقدر شعراء جيله على التعبير عن فكرك الشتيت بلغة نبيلة سامية لا تأنس الى التواضع الزري

من الشعراء من يتحدث اليك عن ليلة صاردة قضاها تحت طنف الدار ، وبيده على قيثارته تستجيش اوتارها وتبتعث لحونها ، فيشجيك ويحزنك ، وقد يبهرك امعانه في الوصف وايغاله في التصوير ، فتود لو انك حاكيته في وقفته تحت طنف الدار او جاريته في الضرب على الوتر ، ولكنك لا تلبث ان تتعرف الى الحقيقة ، ويبدو لك ان هذا الشاعر لم يعتزل فراشه ليمضي ليله تحت طنف الدار في الليلة الصاردة ، ولم يرتفع صوته بالغناء على غرار اللحن الشجي المنبعث من قيثارته وذلك لان هذا الشاعر لم يجف حجرته الدافئة ، فهو يخاف الليل ويتحامى الرطوبة ، ومن الشعراء والكتاب من يتحدث اليك عن حقارة الحياة وعن العذاب والالام والاضطهاد في سبيل الوطن فتزجيك لحونه واشعاره المحزنة الى اجلال وطنيته وتقديس شعوره على حين لم يحس هذا الشاعر آلام الوطنية ، ولم يشعر بذلها في ميادين الانتصار والانكسار !

كان لاسبلي شاعرا لانه احب وتعذب ووقف تحت طنف الدار لا يبالي

بالليلة الصاردة وكان شاعرا لانه احب آلام الارض التي ولد فيها ، ورای بعينه الى جهاد الوطنية فتسرق جرسها وراح يصبه في اشعاره! هذا هو الشاعر الذي قرأته في فناربولي ، وفتنت بالمه وشجوه

أتريد ان تعرف شاعرا ، طال به مكثه تحت طنف الدار ، وراح يغني الافق المصحي، والليلة الساجية ، غير حافل ببرد اوقر ، انه بيرون ، ابأسه ان يحب ونما يأسه لان نجما جديدا اسمه المجد ضوأ جانحتيه ، وانار سبيله ، فطفرمن عزلته الى مضايق اليونان ليموت موتة الشاعر البطل بين الذين اكتظت بهم الفجاج ، من اولئك الشجعان الذين نذروا لوطنهم ان يردوا اليه ارثه من الماضي او تغيبهم الارض

والشاعر الذي ارتفع نجمه بجوار نجم بيرون هو لامارتين حبيب الفير ، لقد كتب تاريخ الجيرونديين ، وهزأ في الساحات العامة بصياح الجماهير ، ووجد في الموت الذي يتهدده اجمل لحونه واعذب اغانيه .

والشاعر ، هو امرؤ القيس بن حجر ، لانه احب النساء وغناهن في المدن ، وفي الصحارى في حر الصيف ، وقر الشتاء ، ولانه احب المعارك زلفى للمجد ومسايرة لاغراضه ومقاصده، ثم لانه اولع بوطن ضحكت لهاطلاله في اليفوع والحدور!

والشاعر عبد الله بن رواحه وهو فتى جيله ولكنه لم يقل الشعر كثيرا ، فلما شارف نور هذه النبوة التي رق لها الحجر الصلد في غار حراء ، نذر ليموتن موتة الشاعر بجوار البحر الميت فقاتل وقتل وعلى فمه اضخم هذه الاشعار التي ولدتها الحرية العربية .

والشاعر عبد الحق حامد هذا الذي دلهني شعره ونثره ، فلقد اطل من حاضره على دنيا الاوائل ، فبهره اللؤلؤ في صروح غرناطة ، وفتنه الذهب الصراح في قصور طليطلة ، فطاف بهذه الروائع الفواتن ، على غير موعد ، واسهل واحزن ثم انقلب من طوفته وهذه الدنيا التي نضرها العرب بالفتح والعلم والتسامح محشورة منشورة في ذكائه والمعيته!

لاعودن الى لاسبلي ، فاني ليلذني ان اذكر للناس كيف يفتش الشاعر النبيغ عن الموتة التي تليق بمجده وكبره ، امضى لاسبلي اخر ليالي حياته في بيت المجانين فذهب به اليه صديقاه النجيان دوفيني ، ودوشامب ، يالبؤس الشاعر ! انه لم يكن يعرف احدا من جميع هؤلاء الذين خالطوه في شبابه العاقل ، ولكن ذكاءه لم يلبث ان رد اليه قبل موته بنصف ساعة ، فصحا ، وتفتح ذهنه وبدت له هذه الدنيا حسنة المحاسر ، فضحك لها وهش ، وقص على صديق له قصة موته وهو بعد لا يزال يحتضر ، قال لاسبلي .

كنت ساعة خيل الى الناس انني مجنون وانني سادر النظر في ذلك الى الاشياء البارعة فاعيها وافهمها فكأني وقد ترحني المرض وثقل علي اعيش في ابرك ايامي واحسن اويقاتي ، وكنت كلما قلاني اطبائي اتحايل على النوم حتى اذا اجرس الطائر على شرفة الدار ، احسست بلين من غنائه فأثملني النعاس . ورحت احلم بالحبيبة الغالية ، فلا اكاد امضي في سبحي ، حتى تغشى الحبيبة العامدة تلك الدار التي اشتملت علي فيقول لها الناس ، الا تغاضيت عن زورته فانه لايحس عطرك ، وانه لهالك ثم يقولون لها هذا القول نزلة اخرى ، فلا تصدق ، وتزور عنهم جميعا ، وتوافيني وارى اليها وانظر مستأنيا الى جمالها ، واود لو كنت استطيع ان احاسن بها صحبي ثم لا امل ان احدق الى صورتها ، واضع يدي فوق يدها واقول لها في خفوت وهمس لقد كان هذا الموت في سبيلك ومن اجلك ، فتسكن في رزانة وصبر وتأخذ يدي

عرفت اليونور ما ينبغي لها ان تعمل حيال تاسو ، فجاءت اليه بالقرنفل وجاءت حبيبتي الي بالقرنفل فاروحت منه طيبا ، وجلست حيالي تسمعني اشعاري تلك التي حذقتها عن ظهر قلب ، وطفقت تحدثني عن المستقبل ، ثم اجتوتني بعد ان قبلتني في جبيني ، وسمعت جلاجل مركبتها وهي تسافه الطريق وتشقه فخيل الي انها تمر على رأسي حتى لتوشك ان تحطمه

لقد غشيتني زائرة في متوع هذا النهار وحملت الي حزمة من ورد وقرنفل

واسمعتني شعرا ، رباه اي شعر هذا ، وكيف سرب الى سمعي وشعوري في مثل بياض اللؤلؤ ونقائه ، اتيح لي في امسيتي هذه ان اصوغ اجمل اشعاري وذلك حادث لم يقع لي مثله في حياتي جميعا ، فلقد رأيت الى هذه الاشعار في شبه غمامة ولكني عجزت عن نظمها ، لان مركبة الحبيبة الغالية ، قد وطئت رأسي ، حتى اوشكت ان تذرو حطامه وتسفيه ، ومع هذا كله كانت حبيبتي تعرف اشعاري كما يعرفها الناس ، وقد قصتها علي وصبت لحونها في نفسي وحسي ، لانها اشعار جميلة ومائعة ، وهذا وصفي لها ، لا الحق به شيئا جديدا .

ولما ازمعت مضيا انحنت علي مترفقة حادبة كعادتها في كل زورة ، فقلت لها زاحرا زافرا : لقد وهبت لي بهذا اليوم تسعا وثلاثين قبلة فما عدت اطيق مزيدا وستضعين على جبيني في هذه الساعة قبلتك الاربعين واني لاحس الموت ، وما استطيع له دفعا ، ولكنها ابت ان تصدق ما زعمته عن موتي ، وانحنت علي ، وراحت تضع على جبيني قبلتها الاخيرة ؛ وساموت ليلتي هذه ، فما ارق هذا الموت وانداه على كبد الشاعر ! . .

على هذه الصورة ضجع لاسيلي ضجعة لاستفاقة بعدها ، ولا يدري احد اذا كان هذا الذي قصه الشاعر قبل موته على خليله جنى هذا الزيغ الذي غشي تصوراته وخواطره وهو يحتضر ، بل لا يدري احد ـ اذا كانت تلك المرأة التي احبها ـ وبادلته الحب قد علمت نهايته فجاءت الى فراشه لتنيمه في حلمه العذب ومهما يكن من امر فان كثيرين من صحاب لاسيلي ما برحوا يؤمنون بهذه القصة وما زالوا يقولون ان امرأة غشاها السواد قد حملت الى الشاعر الهالك بعض هذه الاوراد الشاكة التي اثخنت يديه ، وفجرت دمه ،

لعلك ايها القاري ، قد ادركت الآن ما اوردته في جملتي المجازية التي جنحت الى شرحها ، وهي ان لاسيلي قد امضى حياته باحثا عن الازهار ، ثم لم يلبث ان سقط على صخرة وارسة بالطحاب في مخروب تكاثف على جنباته الرند والليلاب والصعتر والنعناع

هذه الازهار وتلك الرياحين التي تفتحت على ضفتي نهر الآداب والفنون واتخذت كثيرين من الكتاب والشعراء قد رفت في عيني في ذات مساء وظل شذاها يهدهد جبيني ويغريني بالمضي الى الاماكن السحيقة ، الى تلك الاماكن التي جثم عليها تاريخ هذا الوطن الذي احببته وعلقته ، واني لست بالناكر فعلةهذه الاوراد في نفسي فلقد طويت من اجلها البر الفسيح ، والبادية الغلفاء حتى وافيت سيناء وغم علي الليل الصارد في هضابها الشم ، ووقفت حيث وقف موسى ، تظلني كما اظلته سحابة فضفاضة ، ثم لم اطل تمكثي في سيناء لجفوتها ، ونزلت بوادي سلع وشممت عبير اولئك القتلى الذين ماتوا في شباب الاسلام وهم يهتفون لسيدقريش وصحبه ولم اجد معدى عن تساق الصخور ، وركوب الجلامـــد ، لجني الزهر واستصفائه من اشواكه ، حتى سالت جراحي ، وتشقق ثوبي ، ثم امعنت في السياحة فرأيت العراق ورأيت دجلة والفرات وطفت بتلك الاطلال التي وثق بنيانها بكر ابن وائل ، ثم جئت الى بيت المقدس . واظلني المسجد الجامع ذاك الذي اظـــل عمر امير المؤمنين ، وقضيت صلاتي ونذوري تحت سقوفه المذهبة . وجمعت احب الازهار الى نفسي ولم يمنعني قطف هذه الازاهر ان تسيل جراحي وان اقع على النخاريب الواعرة ويعلق بثوبي شوكها الثاقب وما زلت كذلك حتى فيأني جبل النور في مكة وبانت لي هذه الطرق التي جازها محمد واصحابه الى العالم ، ثم اذا هذه الازهار ، وهذه الاعشاب التي جمعتها من هنا وهناك تستحيل الى كتاب جديد اسمه عمر بن الخطاب .

سيجد القراء في سفري هذا ، صورة ماثلة لهذا الروع الذي تملكني خـلال اسفاري الجاهدة ، وسيمرون بتلك الجنات الحالية بالنباتات والاعشاب والاشواك ويرون عليها اثرا من دمي وانه لدم منبثق من احساس غامر ، وايمان قوي ، وحب عنيف ، واخلاص لهذه الرسالة المقدسة التي ضوأت العالم بعيده وقريبه ! وسيغفر لي هؤلاء خطأي ، لاني لم اقل شيئا كثيرا ، وان كان على فمي شيء كثير من

طمحات نفسي ، واني لارجو الله ان يمد في ايامي ، فلعلني اقول هذا الشيء الكثير الذي على فمي ، ولعلني بعد هذا كله افيء الى ظل هذه الارض الحادبة فاستريح اليها بجوار امي في حفرة تندبها السحب ، وترققها هذه الازهار التي جمعتها في اسفاري من سيناء ومكة ومن بوادي الشام والعراق ! ورحم الله امي ، فلقد حسرت عن بصري وارتني دنيا محمد رسول الله ودنيا صحبه ، ووهبت لي مجد هذا اليوم الذي انا فيه ،

معروف الارناؤوط

دمشق دارة سيد قريش

في اليوم الثاني عشر من ربيع الانور سنة ست وخمسين وثلثماية والف

الفصل الاول

الشاعر

في صباح يوم رائق من ايام شهر ايار سنة ستمائة وست عشرة احدق بشاطئ بحيرة طبريا سرب من الفتيات خرجن من الضواحي المجاورة فبلغن طبريا واشعة الشمس تغسل البحيرة والجبال والاودية ، وكن يغنين اغنية صافية الف سكان الجليل ان يترعوا فضاء وطنهم الجميل بالحانها العذاب ، فاثارت اجراسهن الفاتنة بعض صيادي البحيرة ، فانحوا بزوارقهم الى الشاطئ وقد زهدوا في الصيد وصبوا الى أحاديث الحب واللهو والمرح ؛ ثم عاف هؤلاء الفتيان الزوارق ، وزرفوا الى اللاهيات العابثات فاختلطوا بهن ، وطفقوا ينظرون الى العذارى الناعمات كالظل الضاحكات كالسوسن ؛ ثم جلس الجميع على الرمل واخذوا يتلهون بالنظر الى ذكاء وقد استفاضت ذوائبها المحمرة على صفحة الماء .

وكان غناء الفتيات في هذا الصباح حصاد نفوسهن المرحة ، وجنى صدورهن المستبشرة ، فما ان جلسن على رمال الشاطئ حتى رحن ساكنات صامتات وحتى راحت عيونهن محدقات إلى الذين رمت بهم بحيرة طبريا في هذا الصباح الماتع كأنهن يبحثن عن ضالة في صفوفهم ، او كأنهن يفتشن في وجوههم عن خيال يأنسن اليه ، فلما تباطأ عليهن ذلك الخيال الذي أحببنه صحن :

— أين هو ذلك الفتى كريستيا ؟ وما لنا لا نراه في صفوفكم يا فتيان الجليل ؟ فقال واحد من الفتية :

— كان خليقا بكريستيا ان يتطامن الى سبح الشمس في البحيرة فلم يفعل بل لبث في حجرته بين تصاويره وتماثيله ، وقال فتى آخر :

لقد طرقنا بابه قبل ليال لعلنا نستفزه الى الخروج من هذه العزلة الجافة التي يمضيها في عالم بارد ذاهل من الحجارة والرخام فأبى وفضل ان يبقى الى جانب هذه الوجوه الكامدة الشاحبة ، تنظر اليه خلال صباح وخلال مساء فلا يهزها اليه شعور بالحياة !.. فقالت فتاة من فتيات الجليل :

— ما عرفنا في كريستيا رجلا عزوفا عن الفرح ، فلعله قد أيس من الحياة فقبع في منزله بين تصاويره وتماثيله ! وا شوقي الى أحاديثك الطروب عن الليالي الساجية المعطرة عند سفائح الناصرة او حيال شواطيء الاردن ايها الفتى كريستيا بل يا أسفا على ليلة امضيتها وأنا أفتش عن طيفك الحبيب في أحلامي الساذجة فلا أهتدي اليه !..

فقال فتى متلفع برداء أزرق :

— ان كريستيا احب الناس الى نفسي ، وهو كذلك أقرب صورة الى شعوري وحسي ، فلما جئته ذات عشية وسألته مضيا الى البحيرة حدجني بعينيه السوداوين حدجات قرأت فيها قلق نفسه فقلت له : « ما يشجيك أيها الفتى وقد كنت طروباً. أموت أمك ، وقد مضى على موت هذه الأم الشفيقة الحادبة اكثر من عام ؟ ام مرض أختك ، وشباب هذه الاخت الوفية كفيل بانتصارها على القبر !.. ناشدتك الله أيها الفتى أن تنزع من نفسك شجونها وأن ترجع الى قيثارتك فتترعها بتلك الأناشيد السارة التي تفاوح عطرها واستفاض جرسها في جبال الجليل ..

ثم رجوت أن تهزه أحاديثي عن ليالي البحيرة الوادعة الساكنة الى الصحو ، فقصصت عليه أجمل أقاصيص الحب ، وأعدت على خواطره الراكدة النائمة ذكريات ليلة قريرة خرجنا فيها الى البحيرة على زورق غصت جوانبه بكل ندي ضحوك من الأزاهر والرياحين، وكان من أمتع أمانينا في ذلك الليل البهي المشرق النواحي أن يحتوينا سكون البحيرة وأن نطوف حيال السفوح تحت سماء كأنها لفرط الضياء جنة من اللؤلؤ ، نعم لقد أعدت على خواطره الراكدة النائمة هذه

الذكريات رجاة أن تستفيق أحلامه وهواجسه ، فما أمالته هذه الذكريات الوقور الى البحيرة . وظل خيال تلك الليلة الساحرة ماثلاً في نفسه ، ولما أيأسني شجوه جفوته بعد ان رجوت له في لياليه القابلة حلما سائغاً لذيذاً ، ثم مضيت الى معتكفي وهو قريب من معتكفه ، فاحتواني فراشي وفي نفسي من الالم والحزن ما يماثل أَلمه وحزنه ؛ وفي ذات عشية مررت بالحقل الذي اعتاد كريستيا ان يفيء اليه ليسقي أوراده ورياحينه ، فتوغلت فيه ورحت الى المنابت المتضوعة لعلني أرى كريستيا تحت بواسق الشجر ، فما أبصرت خيالا لذلك الفتى الرائع النضارة . فانطلقت الى جبال طبريا ، وغلائل المساء الرقيقة المعطرة تخلع على الذرى والسفائح كل هذه الأحلام الوادعة التي يحتاج اليهاصدر كريستيا ، واني لطائف بتلك الاماكن الحبيبة الى نفس الشاعر المثال اذا خيال كريستيا يرتفع عن بعد ، فحدقت إليه فاذا هو قد حسر عن صدره الناصع البياض وقد تسدر بغلالة رقيقة راحت تتهدل على ساقيه ، ومضى حانياً على قيثارته من غير ان يستجيش أوتارها فقلت له :

— ألا عم مساء يا كريستيا ! قل لي ما أنت صانع في هذه الجبال ؟؟

وكان كريستيا ذاهلا عن الأشياء والصور والمشاهد ، فلما رن صوتي في أذنيه تلفت الى ما حوله وأخذ ذهنه المكدود يعي الصور والمشاهد والاشياء فلم يفته أني قريب منه ، وأني صديق يفتش عنه ليواسيه في حزنه المرمض ، فنظر الي نظرة حائرة ثم ابتعث من صدره صرخة أليمة . وأردف هذه الصرخة بضحكة عابثة استفاضت رناتها مجلجلة على شواطئ البحيرة ، ثم احتوانا صمت شديد عنيف غشي الفضاء والماء ، وأخذت عينا كريستيا تسبحان في اللجج البعيدة كأنهما تنظران الى شيء بعيد ! فسايرته في هذا الذهول الذي احتواه ورحت مثله افتش في أمواج البحيرة عن ذلك الشيء البعيد الذي استرعى تأملاته واستجاش هواجسه ! ثم عدت أنظر الى وجه كريستيا فاذا جبين الشاعر قد غشيته كدرة مخوفة ، واذا نفسه قد ارتدت مظلمة كهذه الأسداف التي تغطي ذري الجبل والسفح فقلت له كرة أخرى :

قل لي ما يرعشك أيها الفتى ؟ وماذا رأيت على صفحة الماء ؟ فلم ينبس ، فجعلت أفكر في هذا الألم الذي يقرض نفسه وفي أسبابه وبواعثه ، فحملني تفكيري الشديد الى ذلك الماضي الذي قال عنه كريستيا في سالفات أيامه إنه أحفل بالكدرة من صحراء سيناء ، ثم امتد بي غرقي في زواخر ذلك الماضي فنسيت وقفة الشاعر النابه على الذرى وطوافه بالسفائح ، ولم تعد تأملاته في مياه البحيرة شاغلتي بل لقد نسيت كريستيا نفسه ، ونسيت انه جد قريب مني ، ولم أر وأنا سابح في ماضيات أيامه ، انسلاله السريع وركضه الخفيف ، وتركه الذرى الى السفائح التي تمور بالأزاهر : ولما عدت الى حاضري ومضيت الى كريستيا لأحدثه عن ماضيه كان ظله الأبيض قد توارى عن الذروة فانحيت ناحية البحيرة فاذا على الماء ضياء احمر ، واذا هذا الضياء الاحمر يغسل الشاطئ ، واذا الشاطئ يحمل الى هذه الاماكن عرفاً طيباً وغناء عذباً ، فلم يفتني وأنا أتنشق العرف الطيب وأستمع الى ذلك الغناء العذب سحر هذه الليلة في نفس الشاعر وأدركت من حمرة الضياء ، ان على الشاطئ حياة ليست غريبة عن حياة كريستيا ! وفي تلك الفينة تمثلت ماضي كريستيا وتمثلت طوافه بشاطئ البحيرة عند كل ليلة ، فتفتحت أمامي المشاهد والصور وقرأت في هذه المشاهد والصور قصة شغف الشاعر النابه بالسامرية الحسناء بنيامينا وهي فتاة اعتادت ان تطوف على زورق لها حيال هذه الشواطئ مع عبيدها ووصفائها، وكان الضياء الاحمر شعارها الذي لا يغيب !.

نعم لقد تمثلت ماضي كريستيا ، وتمثلت ولعه بالمرأة التي يخافها الناس جميعاً في بلاد الجليل وفي بلاد السامرة ، فأدركت معنى هذا الذهول الذي رأيته يخطف على عينيه ، وأشفقت أن تعصف ريح هذه المرأة الفاتنة بذكائه فتصوحه وتذويه ، فرحت الى ناحية البحيرة أنادي الشاعر النابه : أي كريستيا أين أنت ؟ فما سمعت جواباً لندائي : فركضت الى السفائح فاذا خيال كريستيا الأبيض يموج بين بواسق الشجر كأنه خيال السيد المسيح . ألم يشهد آباؤنا من قبل ذلك الناصري الرحيم

وهو يطوف بالجنات تحت ظلال رخية من شجر التين والزيتون والنارنج ، بين منابت الآس والورد ؟ ألم يصعد المسيح في هذه الفجاج والذرى ليعتزل العالم وينصت الى تلك المجدلية العاثرة الجد ويصفح عن زلتها ؟

ولما وقف الفتى في حديثه عند هذا المدى قالت النساء :

— ولكن بنيامينا السامرية لا تشبه مريم المجدلية أيها الفتى الشريف !

قال : نعم ، ولقد رجوت عند لحاقي بكريستيا ان يصدف عن ولعه بالمرأة العاثرة فما بلغت سؤلي وظل كريستيا يركض في الجنات تحت بواسق الشجر حتى فتح طريقه الى الشاطىء ، فوقفت أنظر اليه من ربوة مجاورة ، فاذا هو قد اقتحم الماء ومشى الى الزورق ذي الضياء الأحمر فاتحاً ذراعيه لطيف بنيامينا ! ومنذ تلك الليلة لم تبصر عيني طلعة الشاعر النابه والمثال العبقري ! ويخيل الي ان ذعاف ابنة نفتالي قد سرى الى حسه فأذبله وصوحه ..

. . .

هاجت هذه القصص نفوس الفتيات اللواتي اجتمعن على الشاطىء في هذا الصباح الرائق فتشاجين ورحن يستعرضن حياة السامرية بنيامينا وحياة أبيها فبدت لهن الصور الكامدة البشعة وتوقعن ان ينزل بكريستيا البريء غضب السماء الذي لا يرد ولا يدفع ، وذلك لان بنيامينا سليلة رجل لعين منعته السماء الصحة والعافية والشباب والجمال فبدت على وجهه وعينيه وجسمه قروح ينحدر عنها الصديد ؛ وقد قيل ان نفتالي السامري دخل ذات مساء الى بيعة في الناصره فرأى على جدرها صور بعض الأولياء والصالحين فعبث بها ، والناس يومئذ يصلون صلاة الفصح ، ثم جفا البيعة ولحق بمنزله خشية ان يمتد اليه أذى الناس وبغضهم . فلما تنفس الصبح أفاق نفتالي وهو يرعش من الحمى ، فنظر الى وجهه في المرآة فاذا عليه قروح ، ثم غشيت هذه القروح جسمه فأكلته في مثل خفة الوميض ؛ ثم لم يلبث الناس أن أرجفوا بهذه الجائحة التي مسخت نفتالي مسخاً ومسحت جمال وجهه

مسحاً، ورجعوا الى ذلك اليوم الذي اقتحم فيه السامري البيعة وعبث بصور الأولياء والأتقياء فيها . فأدركوا أن ما نزل به كان حصاد غضب السماء فازوروا عنه وجفوه ، ومنعوه أن يقيم عن كثب منهم مخافة العدوى ، وآلى الناس من ذلك اليوم أن لا يخالطوا أهله وذويه ؛ فتفرق هؤلاء في جميع النواحي واشتملت عليهم مدن السامرة والجليل والقدس والبلقاء، وكان نفتالي رجلا سرياً في أرض السامرة فذهبت زوجته بحظها العاثر الى وطنها الجديد ولحقت بها ابنتها، فعاشت البنت والأم عيشة مترفة راغدة بينما كان ذلك التعس نفتالي يعيش على شواطيء البحر الميت عيشة مترعة بكل شديد عنيف من ذكريات الماضي!

تتالت أيام وأعوام على هذه الجائحة التي قوضت صروح الشباب والعافية في حياة نفتالي فنسي الناس حديث الرجل اللعين الطريد ، ولكنهم لم ينسوا أن يتحدثوا عن جمال بنيامينا . هذا الجمال الرائع الذي ذاع أمره ذيوعاً مخيفاً في قصور عمال قيصر في فلسطين والشام والبلقاء . ولم يفت السامرية سحر هذا الحسن في قصور النبلاء فاصطنعته للتغرير بالعقول والألباب . وكان هذا الجمال الفاتن وسيلتها الى الاحتماء بعامل قيصر على طبريا فحماها وجعلها بفضل هذه الحماية الوارفة الظل سيدة الأردن وأميرة طبريا.

هذه هي المرأة الفاتنة التي أولع بها كريستيا ولعاً حرمه مناعم الحياة الهادئة بين تصاويره وتماثيله ، عن كثب من شعراء الاغريق الذين أوغل في مجاراتهم ونحاكاتهم وزين جدر البيت الذي يعيش فيه بصورهم وأنصابهم !

كان جمال كريستيا الرائع ، وشبابه الفاتن ، وشعره وفنه مضرب المثل في بلاد الجليل ، وكانت صورته تملأ صدور عذارى الأردن وحسان طبريا والناصرة فأجمعن على حبه ، ورحن بالنظر الى وجهه كلفات هائمات ؛ وكن اذا خرج من منزله الى الضاحية يركضن اليه ليصغين الى صوته الساكن المطمئن ، وينظرن الى سحر في جفونه : وكان كريستيا يعرف في نفوسهن هذه الخوالج فما ينكرها ولا

يجحدها ، بل كان كريستيا يشاطرهن المرح واللهو والحب كأنما هو قد لذ هذا الحب وكأنما كان قصارى همه أن يحبه الناس جميعاً ؛ فلما عرفن قصة غرامه بتلك السامرية بنيامينا أيسن إياساً شديداً وجفون شاطيء البحيرة الى ناحية الذرى وهن صامتات مروعات ، فلما ابتعدن عن الشاطيء اذا خيال ابيض يرتفع لهن من بعيد فصحن جافلات : هذا خيال كريستيا ، بل هذا هو والله خيال الشاعر المصور. أي كريستيا النبيل هلم الينا فان على شواطيء البحيرة من الشعر والعطر والحياة ما ليس في حجرتك الملأى بتصاوير موتى القرون العافية ...

وقالت فتاة شهدت الهواء وهو يلاعب قميص كريستيا الأبيض :

« لم يكن مغرقاً ذاك الذي أسماك مسيحاً يا كريستيا فان على وجهك كل ذلك الفتون الذي على وجه السيد المسيح »

...

حمل النسيم الخفيف أصوات الفتيات الى سمع الشاعر وهو على الذروة المطلة على البحيرة فتمايد ورعش ومضى صائحاً :

— من ذا الذي يناديني في هذا الصباح ؟

وكان صياحه قد استفاض في الأفق فهزت نغماته قلوب الرفاق والرفيقات فصاحوا :

— تعال الينا يا كريستيا ! تعال الينا أيها الفتى الدائم البركة ! فصاح كريستيا :

— ما أشد ظمئي الى مائك الرقراق يا بحيرة طبريا في هذا الصباح الماتع ، وما أشد شعوري بالحاجة الى أعراف هذه الأودية الظليلة ...

ثم انحدر عن الذروة الى شاطيء البحيرة ومشى في طريق تحف به بواسق النارنج والزيتون والرمان ، وأخذ الهواء يعبث بقميصه الأبيض فماثلت صورته صورة المسيح الذي أصغت جبال طبريا الى صوته ، إصغاءها الى خفق نعليه على الحصى ، ولما رأى صحبه خياله الأبيض بين بواسق الشجر عادوا الى الشاطيء رجاة ان يلحق بهم فما فعل ، بل مضى الى ناحية أخرى من شاطيء البحيرة من غير ان

يخالطهم ، ثم تمهل في سيره ووقف ينظر الى قصر منعزل على شاطىء البحيرة فاستهوى مشهده الفتيات فصحن به :

— اقترب منا أيها الفتى كريستيا ؛ فلم يجب ، فهتفن باسمه نزلة أخرى وقلن :

— فيم احتجابك عنا هذا الزمن المديد ؟ أفاتك أن الناس هنا في فرح ؟

وصاح فتى في الجموع :

— لعلك قدنسيت مارسيليوس رفيق الطفولة ، وصاحبك في قراءة هوميروس! ألا اسمعني صوتك ؛ ذلك الصوت الذي كثيراً ما لمست في جرسه حماسة الغطاريف الـكماة من أبطال الماضي ...

وكان كريستيا في ذهلة عن هذا الجمع ' فلما رن صوت مارسيليوس في أذنيه عاف مكانه وأقبل الى ناحية الرفاق ولكن نظراته ظلت عالقة بالبحيرة فتجي الصحب لمشهده وزرفوا اليه حتى أحاطوا به ...

لقد قال مارسيليوس الشاعر : أين كنت ؟ ألا تعلم يا كريستيا أن قيصر قد استطال على كسرى ؟

أتريد جمالا جديداً تخلعه على فنك ؟ أتحب أن تنصت لنشيد حلو سائغ ؟ إذا كنت تحب فنك فامض معنا الى أورشليم فان قيصر قد انتزع الصليب الكبير من كسرى ؛ ونذر أن يرد هذه الوديعة المقدسة الى الـكنيسة في مهرجان حشد له قيصر جميع العبقريين والنابهين من اغريق ورومان وأغلب ظني ان المجد الذي فاتك هنا على شواطىء طبريا لا يفوتك في أورشليم أو في القسطنطينية ...

ولـكن نظرات كريستيا ظلت سابحة في البحيرة فلم يسمع شيئاً من حديث الرفاق عن المجد الذي ينتظره في أورشليم أو في القسطنطينية وذلك لأن عالم الشاعر الذي أفنى فيه تصوراته وميوله وهواجسه كان غير هذا العالم الذي حدثه مارسيليوس عنه ، وقد ود رفاقه كثيراً لو أنهم يفهمون عالمه فما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، ولما بدت لهم طلعته الماحلة عاذوا بهمس شديد ومرت بنفوسهم خيالة بنيامينا السامرية

فوثقوا بانتصارها على عقله وحسه ، وجعلوا يرددون اسمها على الشاطيء . بجاء ان يهزه هذا الأسم المهم ؛ فيستفيق من غشيته ويتحدث اليهم عن الألم الذي يحسه

لقد تكلف مارسيليوس الكذب فقال :

ـــ كانت بنيامينا على الشاطيء ، وقد بعثت الملاحين والصيادين للبحث عنك عند ضفاف الأردن ، فأين كنت يا حبيب بنيامينا ؟ فرفع كريستيا عينيه الى خليله فهزته صورة الصديق اكثر مما هزه اسم بنيامينا ، ثم ألوى برأسه إلواء شديداً وهمس قائلا :

ـــ أتسألني أين كنت في هذا الصباح ؟ كنت أبحث في عشب الجبال عن خيال امي ؛ فلما فاتني خيالها في النوار والبنفسج والورد عدت الى بهاء الشمس باحثاً عن امي في ألوانه الذائبة على ماء البحيرة ، وقبل ليال أمضيت صلاتي في الكنيسة ففتشت عن خيال أمي في صلاة المصلين ، وكذلك رحت أفتش عنه في عزف العازفين ، ولا يزال خيال أمي يتمثل لي في جميع هذه المشاهد التي تحبها يامارسيليوس في ماء البحيرة الرائق ، في أشعة الشمس ، في ومضات الطفل ، وفي هذا الصفاء المطلق الذي يغشى جنات الأردن ! أقسم لك يا مارسيليوس الشريف أن خيال المرأة الطاهرة قد عاد مالئاً صدري وحسي ، حتى لقد أنساني هذا الخيال الحبيب ، خيال بنيامينا ، قال هذا وهو يمسح دمعة تسايلت على خده ، فزهد رفاقه في الحديث عن بنيامينا وأكبروا هذا الألم البادي على جبينه وأنسيهم ذكريات المرأة الطاهرة ، ذكرى المرأة العاهرة ، وجعل مارسيليوس يهدهد ألمه ، ويكفكف دمعه ، ثم طفق يسكن روعه وهو في حيرة من خروجه في هذا الصباح بلا رفيق أو خليل ، بل لقد ارتد مارسيليوس الى نفسه كأنما هو يريد أن يسألها عن معنى هذا الشحوب الذي لبس وجه الشاعر ساعة أعاد على سمعه اسم بنيامينا ! وقد ازدحمت في صدر الصديق الوفي الشكوك والريب ، ورأى في صدوف كريستيا عن هذا الأسم الذي أحبه في ماضيات أيامه شيئاً جديداً لم يألفه ، وكان يعلم ولع

كريستيا الشديد بأمه ، ولا يفوته رجوع الشاعر النابه الى ذكرى هذه الأم الحادبة كلما نزلت به نازلة أو كلما عرض له أمر لا يحبه ولا يأنس الى صروفه ! وكان كريستيا يفيء الى رمس أمه عندشاطيء الأردن في الأيام الجاهمة الكدرة فيستجدي روحها العزاء لنفسه الضارعة ثم يعود الى وكره وادعاً ساكناً ، اذن فليس من شك ان هنالك صلة بين طواف كريستيا في هذا الصباح برمس أمه وبين هيامه بالسامرية ووقر في ذهن مارسيليوس ان هذا الألم الذي يشعر به كريستيا كان الباعث الحقيقي على ركود ذهنه وخمود عبقريته وإتراع حياته بصور لا يحبها ولا يأنس اليها وانه عاذ بذكرى أمه رجاء أن تنسيه هذه الذكرى صورة الألم الشديد! ولكن مارسيليوس لم يجرؤ على مبادرته بالسؤال عن آلامه ، فأنحى في أحاديثه منحى جديداً وجعل يسأله عن أخته سافو ، وهي فتاة في الخامسة عشرة سنة ، كانت لا تفارق الشاعر في طوافه بشاطيء البحيرة ، وسألت فتاة كريستيا : لعل سافو مريضة ؟ وقالت أخرى : أجل ان سافو مدنفة عليلة ثم التفتت الى الشاعر وقالت له : اذا كانت اختك مريضة ، وكان مرضها شديداً ؛ فأولى لك ثم أولى أن تمضي بها الى الناصرة فان الصلاة في ذلك البيت المتواضع الذي ولد فيه الناصري الرحيم لزعيمة برد العافية الى الفتاة العانية ! ففتح كريستيا فمه ليتكلم ثم امتد ببصره الى ناحية معتكفه في ذروة تطل على الأردن وانثنى قائلا :

— لقد تركت اختي عند الفجر ضاحكة باسمة كهذا السوسن الضاحك على ضفاف الأردن ، وكانت نغمة صوته رقيقة عذبة فأثر جرسها في نفوس الفتيات والفتيان فصاح الجميع :

— تكلم . تكلم بحق امك التي واريتها عند السفح !

فقال وعيناه تنظران الى معتكفه :

— ان الخمرة التي تملأ نفسي بفرح حقيق لم تصنع من عنب الناصرة ولا من عنب اورشليم ، وانما هي خمرة لم استطع الى الآن ان احسر عن اسمها ! لقد ظلت

كأسي ناضبة الى هذا اليوم وستظل ناضبة حتى اعثر على الخمرة في غير هذا العالم الذي اعيش فيه ، فصاح مارسيليوس :

— انك لتتحدث الينا بلغة الشيوخ وأنت بعد في موعة الشباب ، فهل صيرك الألم شيخاً ؟ وبعد فان للشعراء شباباً دائم النضارة . والشعراء يا كريستيا كالنساء فكما ان المرأة لا تعرف الشيخوخة فكذلك هو الشاعر ، ينزع الى تجديد شبابه ويأبى ان يتعرف الشيخوخة ...

فتهافت كريستيا على كاسيوس وشد يده شدة مؤلمة وقال له :

— من لقنك هذا الكلام البارع ؟ وارحمتاه ! نغمض عيوننا نحن الشعراء على حلم ممض موجع ، ثم نفتحها وننظر الى وجوهنا فتلوح لنا متغضنة ذابلة ، ثم نفتش عن الندى في قلوبنا وعلى أفواهنا فلا نلمس غير اليبوسة ! فأي جائحة من الجوائح صيرت هذه الوجوه ماحلة ناضبة ؟ وأي شجن بلغ أيبس هذا الفم الذي كان يمور بالضحك ؟ أتدري يا مارسيليوس ان الألم وحده هو الذي يرتد بالنفوس الحساسة والشباب المضيء الى عالم شديد البرد ، الى عالم ينتزع من القلب خفقة الحب ، ومن الفم ضحكة الرجاء . ذلك لأن الشعراء أيها الفتى النابه كهذه الأزهار الرقيقة الناعمة ، تفقد رواءها وعطرها وتذبل كلما تعاورتها يد الحاصد ! نعم ان الشعراء لا يعرفون الهرم كما قلت ، فهم يعيشون في هذا العالم من غير عمر ؛ مثلهم في ذلك مثل النساء ! والألم هو المرشد الذي يرتد بالشعراء الى ماضيات أيامهم ، وهو الذي يجدد في نفوسهم ذكريات مرح غابر ، ويعيد الي أسماعهم وسوسة قبلة هانئة ، ويملأ قلوبهم ببقية من عطر ليلة زخرت بالعناق وأحاديث الرفاق ! فاذا رق قلبي لذكريات ماضي ، وابتسم فمي لقبلة ناعمة ، واستروحت نفسي الى أريج فواح ، فذلك لانني اعيش في هذا العالم عيشة الأزاهر . يستأصل الألم شبابي ، ثم يعيده كرة اخرى ، كما يستأصل منجل الحاصد ازهار الخميلة في هذا العام ليعيدها جديدة غضة في العام القابل ، اذن فلست ذلك الشيخ الذي تحدثت عنه ..

قال مارسيليوس وهو يصارع هذه النشوة التي تملكته من هذا الكلام اللذ :

— قل لي يا كريستيا أمنطلق أنت الى اورشليم ؟ فقال كريستيا :

— ماذا تريدني ان افعل في اورشليم يا اخا شبابي ؟

— لقد نذر هراقليوس ان يصنع للسيد المسيح تمثالا ضخماً ان هو انتصر على كسرى ! فحدج كريستيا صديقه بعينين ملتهبتين وقال :

— من أدراك ان قيصر استطال على كسرى ؟

— أكنت في شك من هذا النصر يا كريستيا ؟ اذا كانت لا تزال في نفسك بقية من شك فانظر الى هذا الأفق الذي يمور بصليل الأبواق ! وانصت لخفق الرايات في القصور الشواهق ...

فهمس كريستيا في قرارة نفسه همساً اليما لم يسمعه احد من صحبه :

« أيدري هؤلاء ان صليل البوق وحده هو الذي صيرني شيخاً فانياً ، أواه ! انني لااحب هذا النصر ولااطيق النظر الى الرايات الخافقة ولا الذ طيف هراقليوس وهو يختال بأرجوان قياصرة الرومان ... » ثم رفع صوته قائلا :

— متى تذهبون الى اورشليم يا ايها الرفاق ؟

فالتمعت عينا مارسيليوس بقبس شديد وغشيه فرح لايدرك وخيل اليه ان كريستيا نزاع الى مسايرته في المضي الى اورشليم فقال :

— في هذه اللحظة اذا أردت ..

— كلا كلا . ناشدتك الله يا صاحبي ان تجنبني هذا السفر الذي لا احبه ..

— ولكن سافو مدنفة فما يمنعك ان تمضي بها الى البلد الأقدس فتظفر ببركة الأولياء والصالحين ويرد اليها شبابها صحيحاً سليما .. فصاح كريستيا بشدة :

— قلت لك جنبني هذا السفر يا صاحبي فاني لا احب اعتزال عالمي الذي اعيش فيه بين تصاويري وتماثيلي ...

— كريستيا !

— مارسيليوس !

ورفع كريستيا عصاه وخفق بها الأرض كأنه يتهيأ للفرار من احاديث صديقه وقد ظهرت على جبينه كدرة مخوفة فلم يفت كاسيوس شيء من تبرم الشاعر بأحاديثه وأدرك ان هذه الفرصة التي تخيرها لمفاتحة كريستيا بالمضي الى اورشليم لم تكن فرصة مواتية ، لأن هذا النصر العظيم الذي ادركه قيصر على كسرى ما كان بالأمر الذي ينسي الشاعر آلامه وأحزانه فوقر في ذهنه ان يترك كريستيا سابحاً في لجج الماضي ، فلقد يكون احب الأشياء الى الشاعر ألا يتنكب هذه النزهة التي بدأها في حديقة ذكرياته وقد يكون من امتع الأماني على قلب عاشق بنيامينا ان يستأنف طوافه بهذه المراتع التي تنقل عطر تلك المرأة الى نفس تحب الشباب وتأنس بالعطر ثم تلفت مارسيليوس الى كريستيا وقال له بلغة عذبة :

— اسبغ الله عليك من نعمه السوابغ ما انت به خليق ايها الرفيق . وملأ احلامك بالصفو والدعة ، وفتح امامك عالماً خلياً من هذه الزعازع . ثم شد يده مصافحاً واردف :

— سنراك هنا كرة اخرى على شاطيء البحيرة ..

فغامت عينا كريستيا من فرط الألم وراح مطوقاً صديقه بذراعيه وهو يهمس :

— ستراني هنا عند شاطيء البحيرة او هنالك على السفوح العاشبة من الأردن

فصاح مارسيليوس وهو لا يمنع نفسه البكاء :

— الى لقاء قريب يا كريستيا !

فحنى الشاعر رأسه وأردف :

— الى لقاء قريب يا صديقي . ثم رمى عذارى طبريا بنظرة حادبة وقال لهن :

— سنلتاقى على الشاطيء الذي اصغى الى ضحك الناصري وهو طفل يرقص على الرمل ويلعب بالحصى ، ولم يزد على ذلك حرفاً بل شق طريقه الى الذرى ويده على عصاه ؛ ولما وارته بواسق الزيتون والنارنج صاح مارسيليوس :

— يا لحزنه الشديد ! يا لحزنه الشديد ! . وقالت امرأة من مجدله :

— ألا لعنة الله عليك يا بنيامينا ..

فرددت النساء هذه اللعنة الحمراء ، وخيال كريستيا يطفو على الذرى ، والرفاق ينظرون الى ثوبه الأبيض يميله الهواء الرقيق . وعينا الشاعر تنظران الى قصور الشاطيء كأنهما تبحثان عن كوكب يضيء سدفة هذا القلب المترع بشتى صور الآلام ..

الفصل الثاني

أهواء العبقرية

من اين تتوافى هذه السحب الجاهمة التي اخذت تطفو على جبين الشاعر المثال؟ لقد صبت نفسه في هذا الصباح الماتع الى الهدوء والدعة فطفق يفتش عن الأفياء والظلال في ريف طبريا وفي جبالها وكان اذا عاف النظر الى زرقة السماء بحث عن صبابته في زرقة الماء ، ثم يرتد الى نفسه فيسألها عن ذلك العالم الذي تحبه وتشتاقه فاذا آنس في نفسه الضارعة ركوداً استأنف طوافه بالذرى غير ناصب ولا مكدود

لقد طاف بريف طبريا في هذا الصباح اكثر من مرة ، ومر بالجبال والذرى ثم انحدر الى السهول وتراءى له ماء البحيرة ، فلم تبدل هذه المشاهد اللذة الرائعة أناشيده الشجية ، وظلت سحب الأحزان تتوافى الى صدره من كل ناحيـة حتى حجبت عنه صورة ذلك العالم الوادع الذي بحث عنه في الجبال وفي السفوح وعند شاطيء البحيرة ...

وكانت فكرة الموت قد غشيته فاستأنس اليها واستروح الى خيالها وكاد اكثر من مرة يلقي بنفسه الى ماء البحيرة فاتحاً ذراعيه لهذا الليل المديد الذي ينشره يأسه على الضفاف وفي الأفق؛ ثم لا يلبث ان ينزع هذه الفكرة من قلبه وخاطره لأن ضوءاً جديداً اخذ يغمر نفسه ولأن شبابه الذي عجز عن الظفر بأمانيه في ذرى الجبل وجد هذه الأماني المعسولة على الشاطيء المورق ...

اين هي أمانيك ايها الشاعر ؟ أكنت تفتش عن المجد والمجد خليلك الحادب ايها العبقري النابه ؟ ام كنت تفتش عن الشرف وهذا الشرف لم يفتك في الميادين الواسعة عن كثب من الشواطيء الزاخرة بفنونك وتماثيلك في القسطنطينية وفي

الصدقية ! أم كان الحب اجمل أمانيك لجئت تفتش عنه على ضفاف البحيرة في هذه القصور الحاليات بالشعر والعطر والحب والخليلات السواحر !..

لم يكن المجد صبابة كريستيا في هذا الصباح ولا كان الفن الذي احبه ونثر حصائده في بيزنطيه وايطاليا واليونان موضع امله بل كان الحب وحده صورة احلامه وهواجسه فجاء يصوغ من هذه الصورة نشيداً ساحراً لذاً واعتزم ان يلقي هذا النشيد اللذ في الفضاء ليسمعه سكان هذه القصور الغارقة في النعيم

ولما مر به صحبه في هذا الصباح كانت انشودته لا تزال حبيسة في صدره فحسر عنها فاذا هي تخرج صافية حلوة وانصت لها صحبه وصاحباته ولمسوا فيها ذلك العالم الذي اودعه تأملاته وشعوره ..

ألم يتحدث اليه ذلك الفتى مارسيليوس عن عالمه الذي احبه ؟ ألم يعرض عليه صورة ذلك الماضي الذي تعرف فيه الى بنيامينا السامرية فرعش وشعر بسحر هذا الماضي ، ولمس ذكراه البعيدة وصور من هذه الذكرى ليالي طبريا الفواتن ، واستعرض هذه الليالي الساجية المطمئنة وهي ترمي الى البحيرة بالزوارق والسفن والأنوار والمحبين يتلهون بالنشيد على صدور الخليلات تحت سماء تريق على السكون السحر والعطر والشعر ...

بلى لقد صور كريستيا من هذه الذكرى ليالي طبريا الماضيات فامحت سحب نفسه ولألأ الأمل والفرح على جبينه وشعر برجعته الى العهد الضاحك . عهد الشباب الصليب الشديد ، فود ويده تمر بصدره الجائش لو ان مارسيليوس الذي جعل منه شيخاً عانياً ينظر اليه في هذه الساعة ، اذن لرأى ذلك الخليل الحميم روعة الشباب الآمل تخطف على جبين خليله . واذن لما كان لمارسيليوس معدى عن هز يد الشاعر مستغفراً تائباً ...

ومرت بخاطره خيالة بنيامينا فتمثلها دالفة اليه من وكرها على الشاطيء وقد احتواها زورق طافت بجوانبه عصائب من الجواري والوصائف وبنيامينا عارية

لا يحجب جسمها الرقيق الناعم غير الورد والزنبق ، ومجـــامر البخور تحترق وتضطرم ؛ وفي سمـــاء طبريا المصحية أثر جم من العطر والشعر ؛ ثم تمثل هذه الغادة اللعوب تغني على القيثارة لحناً حلواً سائغاً ' وضع كريستيا صوره ومعانيه ونظم قوافيه ' لحناً كان احب اللحون الى الشاعر النابه ' ثم تمثل الزورق وقد قارب الشاطيء ، ورأى في وهمه وصائف بنيامينا ينحدرن الى الرمل ' وهن ممسكات بيدي الساحرة ؛ فضحك ضحكة مجلجلة ورفع ذراعيه الى الفضاء كأنما هو ينزع الى ضمها الى صدره الراعش فمشت اليه ومشى اليها ' حتى تقاربا وتلاصقا وحتى راحت ترتمي على صدره ، فطفق يعيد على سمعها ذلك اللحن الذي كانت تغنيه وهي سابحة في نشوة الحب ، غارقة في لذة اللقاء ...

وفي تلك الاثنـاء نسي الشاعر كل شيء ؛ نسي كاسيوس وكلماته ، ونسي تلك اللعنة التي انبعثت من أفواه العذارى الى سمعه سـاعة تحدثن اليه عن بنيامينا ثم نسي ذهوله الماضي ، والمه البادي ، وطوافه الناصب بالجبال والسفوح ' بل لقد نسي الصداقة وجحد الصديق وعاف نصحه وهزأ بلعنة صواحبه ' وعاد خيال بنيامينا مالئاً خواطره ونفسه وشعوره ؛ فترك مكانه على القنة واخذ يركض الى الشاطيء في اثر ذلك الطيف الغالي وهو يصيح :

— بنيامينا ! بنيامينا ! لقد جئت اليك بأحب اشعاري وأرق قصائدي وامتع أغاني ؛ وكانت قيثارته لا تفارقه فطفق يهزها وهو يركض وراء خيال بنيامينا وثوبه الابيض يتهدل على الحصى ؛ ولما استجاشت أنامله الرقيقة قيثارته استفاض منها نغم ماتع ' نغم لم تعرف أساطير الاغريق على كثرة شعرائها المنشدين ، لحناً اعذب منه

وظلت عيناه سادرتين في افق البحيرة المضيء كأنما هو يريد ان يعير نشيده بعض هـذا الفتون الذي يبين على الماء ' وكان يتدفق في سيره فيطوي البيوت والكرمـات والهياكل والجواسق وفمـه يتعالى بالنشيد ويده تخرج اللحن صافياً

هادئا حتى استثارت أناشيده ولحونه جميع هؤلاء الذين اشتملت عليهم المنازل والقصور والدارات فزهدوا في مضاجعهم وجاءوا الى الشرفات والنوافذ والسطوح والاروقة يستمعون الى كريستيا ويلذون شعره ونشيده من غير ان يروا طلعة الشاعر المحزان ؛ ولو أن واحداً من هؤلاء رأى خيال كريستيا الماحل لانكفأ خائفاً مرتمضا ..

اين انت يا بنيامينا ! اين انت يا حبيبتي

لقد جمدت يده على القيثارة ، واحتبس النشيد في صدره ، وتبلد ذهنه فما عاد يصوغ من المعاني الرائعة عالماً من الحب والشعر ، وذلك لان طيف بنيامينا لم يبن له في الافق ، ولا في الشاطيء ولا في الجنات الحاليات بشجر النارنج والرمان ؛ ولما اضواه الركض جلس الى عتبة باب هيكل قديم خرب وطفق يستعيد خواطره ويستجمع اهواءه ومشاعره فتمثل الحقيقة المحزنة وادرك ان هذا التيه الجاهم الذي مضى فيه كان حصاد هذا القلق العاصف بنفسه فود لو انه يستطيع القضاء على هذا القلق او يلقي بنفسه الى ماء البحيرة فينسى شجونه الى الابد وينسى اصحابه حيـــاة ما كان اهنأها لولا جنون الهوى ، وجنون الشباب ! وجنون العبقرية !

ومع انه اراد نفسه على الخلاص من شجونها ومتاعبها فقد ظل طيف بنيامينا مالئا حسه وشعوره ؛ فشرع يتلفت الى الطلل البالي الذي استراح اليه ، واخذ يجس الرخام وبقايا الدمى المبعثرة المحطمة ، وراحت عيناه تنظران الى الاقواس والحنايا ، ثم الى العشب الكثيف الذي يغطي الجدر الغليظة . والسقوف الحمراء المذهبة ، وقد ارخى القمر في تلك الاثناء شعاعه من شاطيء البحيرة الى الطلل فغسل أطرافه وحواشيه ، فرأى الشاعر على هذا الضوء الغامر صورة مرتع قديم كان يفيء اليه مع بنيامينا في الليالي المصحية ، فحدق الى الحجارة الملونة والى التماثيل المحطمة فاذا كل هذه الاشياء لايزال ندياً بذكريات السامرية فاستأنس من جديد الى ما غبر من ايامه وجعل يقلب النظر في الاقواس والحنايا والقناطر والاروقة

فاذا طيف بنياميناً يلوح له سادراً في هذه المشاهد وقد بدا عارياً فلم يشأ عزوفاً عن تأملاته مخافة ان يضمحل خيال بنيامينا العاري بين يديه الراعشتين المحمومتين !

وبغتة برقت اسارير الشاعر فعاف مكانه على وصيد الباب وجاء الى ناحية تمثال من المرمر يمثل ابولون إله الشعر فطوقه بذراعيه وهو يخاله جسد بنيامينا الناصع البياض . ثم اخذ الشاعر التعس يقبل ذلك المرمر البارد وهو يهمس :

لقد طوقتك بذراعي فلن تبرحي مكانك بعد هذا اليوم ! قفي ! ولا تتحركي فان حركة تصدر عنك توقظ قلبي النائمة على فمك فتفلت كما يفلت الحلم العذب عند بريق الصباح !

اواه ! ما اشد خيالك ايها الشاعر ! وما اظلم هذا التيه الذي اوغلت فيه !

شعر كريسنيا وفمه هائم على التمثال ببرودة المرمر فاستفاق وادرك ان قبلاته الحارة لا تستطيع ان تبعث الحرارة في الاصلاد فضحك ضحكة متشنجة ثم اطبق عينيه حتى لا يرى صورة لجنونه الرائعة وعاف التمثال في مثل خفة الوميض !

وظل على الرغم من هذه الحقيقة المفزعة التي عرضت له ينظر الى مـــا حوله كأن هذا الفراغ الذي يحيط به مازال مملوءاً بهمس بنيامينا وكأن وسوسة القبل الماضية مازالت تغشى المعبد الدارس ! ولم يكن في ميسوره ان يجحد الماضي وينكر ملاذه واهواءه وهو قد ترك في كل ناحية من هـــذه النواحي فراشاً نديا بالقبل والعناق والعطر والشعر ! وما زال جسد بنيامينا العاري يتحرك ويتململ في خياله، كما تحرك وتململ في الحقيقة !

على انه لم يجرؤ ان يمس وهو سادر في وهمه جسد بنيامينا المترنح مخافة ان تفوته لذة هذا الوهم

وكان الليل قد اغسى فاشتدت اوهامه وخيل اليه ان هذا العالم القديم الطافح بتماثيل الآلهة والارباب والحسان قد اخذ يميد فما عاد يستسيغ البقـــاء في المعبد الدارس فازورعنه متنحياً ناحية اخرى وجعل يمشي مشية الرجل المريض في طريق

يدفع الى الشاطيء فلما ابصره الملاحون وهو يرعش من فرط التعب خيل اليهم انه سكران فهزءوا به وراحوا يعنفونه على سكره في هذه الليل القائظ ثم اعرضوا عنه وهم لا يعرفون اي فتى هذا الذي افرطوا في تعنيفه

ولم تحدث كلماتهم في نفسه اثراً فظل يمشي مشيته الحائرة حتى بهرته اضواء القصور والجواسق فشجيت نفسه من هذه الاغاني المنبعثة من الخلوات والمقاصير ! فجعل يسير متستراً بجدران القصور مخافة ان يعرض له عابرو السبيل بكلام لا يحبه وهو لم ينس بعد كيف تصاعدت الى سمعه شتائم الملاحين والبحارة على الشاطيء

ولما توارت الكواكب خلف الغمائم السود خيل اليه ان الظلمة عادت تحمل اليه طيوفا واشباحا فما جرؤ على النظر الى ما حوله خشية ان تتراءى له تلك الطيوف والاشباح وكاد اكثر من مرة يرجع الى معتكفه في الذرى الكاسية عند سفائح الأردن ليواري صفرة في جبينه ودمعة في جفونه وينسى هذا الحب الذي ران على حسه وعقله ويقطع صلاته بالساحرة بنيامينا ثم يستأنف حياته بين تصاويره وتماثيله وربما كان التعس قد فكر في هذه الفينة في الفتاة الصغيرة التي تركها بين الحجارة والدمى فحدب عليها واشفق ان تمضي شبابها في عالم لا تعرف ان تتحدث اليه ، لانها تجهل لغته وبيانه ولا تدري شيئاً من احساسه وشعوره ولكن اين هي طريقه الى ذلك المثوى ؟ وكيف يستطيع كريستيا ان يلحق بالصور والدمى ، وهو قد اضاع الطريق واضاع معالم الطريق ! واضاع صلته بامسه ويومه ، ولم يبق لديه ما يربطه بالذين احبوه واحبهم في سالفات الايام حتى اوشك ان ينسى تلك الفتاة التعسة التي كانت تنتظر معاده على وصيد الباب لتسمعه شعراً مقتبسا من الياذة هوميروس

لقد ظل خيال السامرية يطفو على هذه الاماكن التي تخيرها لطوافه ! وتراءى له طافراً وثاباً على اديم الارض وفي الافق الجاهم ! بل لقد تمثل كريستيا هذا الطيف عاريا وقد تفاوح منه عطر شديد : فاستهواه عريه وعطره ففتح ذراعيه لذلك

الجسد العاري ، وفتح فمه كأنما هو ينزع الى تقبيل أحقر الاشياء في ذلك الجسد الذي احرقته الشهوة !

وكان عري بنيامينا مثار جنونه فرعش ، وتشاجي واخذ يضحك ضحكا شديداً مخرفا ثم امتد به هذا الضحك حتى كانت له رنة مستفيضة في الافق. وجعل يطوي الارض وهو دائب في الضحك ، ثم وقف حيال قصر بنيامينا ، وقرأ على بابه الرخامي اسم السامرية الحسناء فهزه هذا الاسم الى ماضيات ايامه ، واذكره ليالي خرج فيها الى لقاء حبيبته في غلالة رقيقة ، فاخذته بين ذراعيها وطلبت اليه ان ينشدها احب اشعاره فيهـــا ففعل بل لقد تمثل اشعاره تتحرك على شفتي بنيامينا المعطرتين فهمس فمه بذلك الاشعار ، وراحت يده تشد على اوتار قيثارته شداً حرك فيها تلك النغمات التي احبتها السامرية وهو لا يدري ما يفعل

وجعل القمر في خلال ذلك يريق انواره على جبينه الشاحب بينما بحيرة طبريا تموج بالزرازق ! . . .

الفصل الثالث

الانشودة

اهتز الافق الساكن الوادع تحت عزيف العيدان ، وصليل الاباريق ، واصوات المغنين وظهرت مجدلة عن بعد غارقة في الرياحين ، وترقرق خيال القصور البيضاء طربا على ماء البحيرة ، وامتلأت الجنات والطلال بهمس الاردن وهو يشق المخاضر في القرى الحالية باشجار الرمان والنارنج والزيتون ، وراحت الزوارق تطوف الشواطيء فلا يفوت اصحابها قليل او كثير من مفاتن هذه الجبال الوردية الذاهبة صعداً في سماء الجولان ولاحت الجواسق البيضاء في كفر ناحوم شمالي البحيرة كأنها اللؤلؤ او كأنها الضياء ، وحام الصيادون حول كروزين وهم سكارى من الطرب وقد نشروا اشرعتهم البيضاء فتطاولت، وامتدت حتى اشبهت الخيام في الصحراء وانتشر الصفاء على ماء البحيرة كأنه طفل جاء الى صدر امه باحثاً عن الفرح والحب والحنو !

في هذه الساعة الروعاء اقبل من ناحية كفر ناحوم زورق ابيض من طراز هذه الزوارق الماخرة في بحر صور وقد احاط به سرب من القوارب الصغيرة ، فجعل يشق غلائل الماء منتحياً ناحية الشاطيء الذي قام عليه قصر السامرية بنيامينا وطفق الملاحون يوغلون في التجديف كأنهم يستعجلون الوصول الى الضفاف بعد طواف ليلي امضوه حول قرى البحيرة ؛ وكانت الاناشيد تنبعث من الزورق الابيض صافية حلوة ، فتستفيض اجراسها على صفحات الماء ويحملها صفاء الليلة الساجية الى اذني ذلك الشاعر التعس الذي ثابر على غنائه وانشاده من غير ان يمل الوقوف على وصيد الباب او يقطع تأملاته في شراع الزورق او يصدف عن النظر الى القوارب التي كانت تلتف بالزورق او يفوته شيء من سحر هذه الليلة

ولم يلبث ان عرف النغم المنبعث من الزورق وتنشق البخور واستأنس بصليل المزاهر في القوارب الصغيرة ! وادرك ان تلك الحبيبة التي تمثلها وهمه في المعبد الدارس وفي ذرى الجبل والتي بحث عنها في كل مكان من غير ان يجد لها ظلا قد عادت من لقا آتها وزياراتها الى ذلك القصر الذي اعتادت ان تفيء اليه عند منتصف كل ليلة وكان اشد ما يؤلمه ان تخرج بنيامينا من قصرها عند غروب الشمس فلا تعود اليه الا بعد منتصف الليل ، ولم يكن يجهل جنونها وعبثها فقد كان يعلم انهـــا لا تجفو قصرها البديع الا لتبحث عن اللذة في قصور مجدلة او في افياء كفر ناحوم ثم تعود الى وكرها على صدور الوصائف اللواتي جارينها في سكر الهوى وعربدة الشهوة ! لقد كانت تفعل ذلك في الماضي وكان كريستيا يرقب عودتها فاذا رجعت خف اليها فيرى عينيها ذابلتين ويحاول ان يتحدث اليها فلا تفتح فمها لأن السكر منع هذا الفم الجميل ان ينبس ، ثم يحاول ان يقلب جسدها بين يديه فلا يستطيع ذلك ، لأن هذا الجسم قد مليء سكراً ، كما مليء عقلها سكراً ، وكما ملئت شفتاها سكراً ، وكان يمر يده على هاتين الشفتين ثم يردها وهو شاعر بسعير القبل وضرم الشهوة

لقد كان يعلم هذا كله ، فلم ينفر منها ، ولم يفكر في الازورار عنها ، لان حبه الشديد العنيف كان غذاء عبقريته المجنونة ، ومصدر هذا القبس الذي يتألق في صدره فهو شاعر وهو كذلك مثال ومصور ، وليس للشـــاعر او المصور غنى عن التلذذ بالجمال ولو نبت هذا الجمال في منبت سوء !

ولما اقترب الزورق الابيض من الشاطيء تراءت لكريستيا الالوان الحمراء والزرقاء والصفراء ثم لاحت له تحت هذه الالوان الفتانة عشرون وصيفة من وصائف السامرية وقد وقفن على جوانب الزورق ينقلن بين ايديهن طباقا موقرة بالعنب والنارنج والرمان والازهار والاوراد ثم بدت له اشرعة الزورق الحمراء وهي تسدل في رفق وتؤدة ايذانا بالوصول الى الشـــاطيء ورأى النقوش التي رصع بها الزورق من جميع نواحيه فراحت عيناه الى وجوه الوصائف والحظيات

كأنهما تبحثان عن خيال بنيامينا . فلما نأى طيفها عنه رعش وتمـــايد من الذعر وخيل اليه ان تلك الحسناء التي انتظرها طويلا على وصيد الباب لا تزال في مجدله او في كفر ناحوم عند عشاقها

ثم لذعته الغيرة لذعة مخوفة ، فغضب ورمى بقيثـــاره على الارض ؛ وراح باسطاً يده الى ناحية الزورق مهدداً ، وفي تلك الفينة وقعت عيناه على مقصورة من الارجوان ، نصبت في مؤخرة الزورق فحدق اليهـا تحديقاً شديداً ، فاذا هو يرى جسد بنيامينا العاري يتقلب في حجور ثلاث من الوصائف وقد غيب الورد الجسد فلم تبن غير شعور بنيامينا ، ثم اصغى قليلا فاذا بنيامينا تغني في خفوت وهمس واذا الوصائف اللاي جلسن حولها يغنين مثل غنائها فلذ هذه الاصوات واسكره عزيف العود فاسترد قيثارته واحكم اوتارها وطفق يغني تلك الانشودة التي اصغى اليهـا قبل لحظات .

انشودة كريستيا

لقد لطف النسيم البليل من لذع الشمس فيممنـا ضفاف البحيرة نتنـــازع القطوف الدانية في الجنات الحاليات بزهر النارنج والاترنج ، والفنا من هذا الزهر عقداً متناسقاً حلواً وسعنا ووسع العذارى والخليلات والصاحبات فمضت عشيقتي الى العقد فمسكت بطرف منه ثم مضت فيتا الحسناء الى طرفه الآخر فمسكت به وعلى هذه الصورة الفنا نطاقا من الزهر العابق فاحتوانا هذا الطاق المختلف الالوان والاصبغة

اي فيتا ! ناشدتك الله ان تجنيني شرب العسل في حق من العاج فاني لا احب ان يلمس العاج شفتي وما الذ إلا هذا العسل الذي تريقه شفتا بنيامينا !

انشري ظلك الرقيق الرحيم علينا ايتها الآلهة فان التعب قد هد منا القوى ! فما عدنا في حاجة الى خمرة الكروم وانما نحن في حاجة الى خمرة الهوى !

ولم يشأ ان يظل في مكانه فتدفق في سيره حتى اقبل على الشاطىء وكانت بنيامينا قد سمعت صوته ، وعرفت انشاده فرفعت عينيها الى صواحبها وقالت :

ـ اتعرفن هذا الفتى ؟ فصحن :

ـ اليس هو كريستيا ؟

ولم يفت الشاعر النابه همس صاحبات بنيامينا فقال :

ـ نعم انا هو كريستيا ، نعم انا هو كريستيا !

فضحكت بنيامينا ضحكة عنيفة وانثنت قائلة :

ـ اكنت تنتظر ايابي على الشاطىء ايها التعس ، الا قل لي من هو الذي اوحى اليك بالغيرة ؟ أهو حبك ! أم هو جنونك ؟

قال ، حبي وجنوني معا ، قالت وما هو عملك في هذا الليل ومن اين اتيت ؟ قال لقد بحثت عنك في كل مكان فلم اجدك ، اما من اين اتيت فلا اخالك تجهلين انني منبعث من مغناي على شاطىء الاردن ! وانني ضيعت قوافي فجئت افتش عنها على صدرك المعطر ! ولست احمل زهراً اصوغ منه ما تحبين من العقود والاكاليل ولكن شعري وحده هو كل ما حملته اليك في هذه الليلة وان على شعري من الرونق والرواء وما في معانيه من العطر ماهو اثمن من هذه العقود التي تحبينها ، فيابنيامينا الحبيبة تقبلي قوافي الجديدة مصبوغة بدم صدري ! . . .

فضحكت السامرية والتفتت الى صاحباتها قائلة : الا ترين اليه وهو يهذي ! لقد سمعنا في هذا الليل شعراً ارق من شعرك ايها الفتى كريستيا !

قال انك تثيرين غيرتي فليس في الرومان من ينافس هذا الفتى في الشعر قالت : انسيت ! اركاديوس ؟ لقد كان في كل ايامه اشعر منك ! وكان يصوغ من عطوري عالما من المعاني . . .

فصرخ كريستيا صرخة النمة وانثنى قائلا :

ـ اركاديوس ! أصرت تفضلين علي شعراء السوق يابنيامينا ؟ لقد علمت انني

كاره هذا الفتى منذ اخذ ينازعني الشهرة ، فذكرت اسمه كأنك تريدين من ترديد ذكراه امامي ان تدفعيني الى الشعور بالغيرة . فاذهب اليـــه واقتله ، او يقتلني هو فيخلو لك الجو وتتسع امامك آفاق اللذة !

وكانت تصغي اليه وهو يتكلم بحدة وحماسة وقد تورد جبينه فبدا فتـانا رائعاً فاعجبها منظره واستهواها جماله وجعلت تنظر اليه وهي تتقلب على صدور الوصائف تحت الزهر اليانع وتمنت لو انها تستطيع ان تجذبه اليها او تضمه الى صدرها ولكنها احبت ان توقظ غيرته الى آخر المدى فقالت له :

— ليتك تحبني كما يحبني ذلك الفتى اركاديوس !

ثم ازاحت الازهار عن صدرها ونهضت على قدميها فبدت لكريستيا الرابض على الشاطيء عارية كأنها المرمر ؛ ورأى كريستيا جسدها الناصع البياض في تورده ولمعانه فاستهواه البريق واللمعان في ذلك الجسد الذى ينضح لذة وشهوة فقال :

— لقد حبست نفسي عليك . فانا لك واحب اماني ان اعيش في جنتك بين ازهارك واشواكك ! بل انني ما رغبت في غير الحب ! فانا احبك ، احبك كثيراً ولا احب سواك ، وقد زهدت في العالم من اجلك انت !

فتلهت بنياميتا بالنظر الى البحيرة كأنهـا لم تسمع حديث هذا الفتى ثم اومأت الى رفيقاتها فزرفن اليها والقين غلالة رقيقة من الحرير الازرق على جسدها العاري وكان الزورق قد استقر على الشاطيء فوثبت بنياميتـا الى الارض ، تحيط بهـــا الوصائف ثم مشت الى ناحية كريستيا فاذا هو في ذهلة عميقة ، وقد جمد في مكانه كأنه التمثال واخذت عيناه تنظران الى شعورها الضافية كخيوط الفجر الذائب ، وقد بدا انفها الاقنى راعشاً فوق فم احمر كالعقيق واخذ جسمها الرخص يتمايل ويهتز على صدر الوصائف والصواحب اما عيناها فقد لاحتا زرقاوين كماء البحيرة !

فجعل ينظر الى صورتها كأنما هو ينظر الى حوارية من حواريات الاساطير الاغريقية ! وكان صدرها عامراً باللاآلي والياقيت فلم تسحره هذه البروق الفاتنة

وانما سحرته اضواء تنبعث من ذلك الصدر الابيض ، ولم يكن يشوقه ان يبحث عن اللآلىء والاصداف بل كان من امتع امانيه أن يلتقط بفمه هذا العقيق الذي صبغ شفتي الساحرة اللعوب وكان من اعذب احلامه ان يضع فمه على صدرها فلا يترك فيه مكانا من غير قبلة او نهلة !

وفكر اكثر من مرة ان يطوقها بذراعيه ويمشي بها الى ناحية القصر او يدفعها الى حجرتها ويرتمي على فراشها بالقرب منها ويغنيها الجديد اللذيذ من اشعاره واغانيه كما كان يفعل في ماضيات ايامه فما جرؤ على ذلك وظل ينظر الى ابتسامة زاهية على شفتيها والى شعورها المرسلة على كتفيها العاريتين

ولم تكن بنيامينا بالمرأة الساذجة الرعناء حتى تجهل سلائق هذا الفتى الذي جمع اليه شذوذ الشعراء وشذوذ المصورين وشذوذ المحبين فادركت دخيلته وفطنت الى ألمه ورأت عبراته ذائبة في عينيه ولم يفتها خفق قلبه ! بل لم يكن يفوتها خفق هذه الاوتار التي احتوتها قيثارته فرقت له وقالت ويدها تدغدغ شعره

— لقد بحثت عنك باشاعري فاين كنت ؟ اني لم ارك منذ امد طويل فلما سألت عنك في مغناك قيل لي انك تحب العزلة وتؤمن بصفائها ، وانك الى هذا كله قد كرهت الحب وجنبت نفسك الغرق في لججه !

لقد تهزأ بكلماتي هذه ولا تصدقني لان غيمة من شك اليم قد غشيت نفسك فما عدت تبصر العالم وصرت تتحامى معرفة مافيه كأن حقائقه لاتسرك ولكنني اقسم لك انني شعرت بالضجر من حياتي في هذا القصر وقد احببت ان الهو واطرب واستمتع بكل مافي طربها وضواحيها من فتيان الرومان رجاة ان احيا حياة جديدة تنسيني هذا الضجر الذي احسه ، او تبعدني عن ذكريات ماضية لا احب ان تعلق بنفسي وتثير خوالجها وتحرك اهواءها ، ومع انني اردت نفسي على نسيان آلامها ومناكدها عن طريق الحب فقد بدا لي ان فتيان الرومان قد انطفأت في صدورهم شعلة الهوى فليس في قدرة واحد منهم ان يهب لي القبلة المعطرة

او يطوقني بذراعين مشبوبتين ، او يحفز في نفسي شهواتها وميولها ! ولقد جاءني اركاديوس في ذات عشية وهو الشاعر الفتى الذي ينازعك الشهرة في البلد فالفاني شجية فغمه شجني فقال لي لقد جئت اليك بقلبي وشبابي وعطوري واوتاري فلعلي استطيع ان ابدد غيمة علقت بروحك ، وازيل سحابة خيمت على نفسك ، وكنت احب في اركاديوس لينه وكياسته وظرفا هو كل ما امتاز به اركاديوس على اقرانه ولكني اقسم لك انني لم احب في اركاديوس جماله · ولم الذ شعره ذلك الشعر الجاف الخلي من كل ما يحف بالحياة من الم ولذة فلم اشأ ان يبرحني فقضى ليله عندي وهو يغنيني من اشعاره الجديد البليغ ، فلما احسست تبرماً بهذا الشعر اردته على ترديد بعض ما يحفظه من اشعارك فلم يغتم وانشد امامي قصيدتك الاخـيرة « الى اين تمضين بقبلك الراعشة في هذا الليل الاخرس ايتها الحبيبة »

اراك ترعش يا كريستيا وقد بلل الدمع خديك فهل اشجاك ان يغني اركاديوس اناشيدك ام لذعتك الغيرة من هذا الفتى الذي اخذ نجمه يرتفع الى جانب نجمك في سماء البيان الرائق !

قال كريستيا : بنيامينا ، ناشدتك الله ان تجنبيني الحديث عن اركاديوس وعن لقاآتك فاني لا احس الغيرة من نبوغ هذا الفتى النابه وانما احس هذه الغيرة لأن اركاديوس قد استطاع ان يسرق ليلة من لياليك بفضل اشعاري فلولا ذلك الشعر الذي انشدتك اياه في الماضي لما خفق قلبك لاركاديوس ، ولولا اهتزاز اوتاري في ذلك الشعر الذي سمعته اذناك لم تهتز اوتار اركاديوس

لقد كان كريستيا يتكلم عن اركاديوس بحزن والم فلم يفت بنيامينـــا جلال الجرح الذي يحسه فرأت ان تدخل به الى حجرتهـا في القصر لتواسيه وتعزيه او تخفف بعض هذا اليأس الذي عاق بروحه فاخذت بذراعيه وشقت به طريقاً تقوم على جانبها انصاب من المرمر الشاحب تمثل آلهة الحب والشعر والجمال عند الاغريق وكان يسير الى جانب بنيامينا بين وصائف يحملن مجامر البخور وكواعب ينقلن في

ايديهن الرقيقة الناعمة حصاد السامرية في جنات الضاحية من نارنج وليمون ورمان وعنب وازهار وقدذهل وقدذهل عن حاضره ذهلة شديدة فلم تحركه هذه الكواعب الفواتن ولم تبهره ملابسهن الزرقاء والبيضاء والحمراء ، بل لم تأخذه عطورهن .

ولما دخلت به بنيامينا الى غرفتها راح مرتمياً على سريرها الذهبي فجلست على مقعد حيال السرير وارادت وصائفها على المضي الى خدورهن فمضين بعد ان نثرن على ارض الحجرة ماجمعنه من الزهر والورد وكانت بنيامينا تنظر الى السرير فيهزها شحوب يخطف على جبين كريستيا ويشجعها ان يجيء المه البادي حصاد يديها فتتمنى لو انها تستطيع تسليته وتعزيته فينسى آلامه وشجونه وكان كريستيا قد اغمض عينيه فانسدرت ضفائره على صدره وبدا جبينه الشاحب جميلا فتانا فجعلت بنيامينا تطيل التحديق الى ذلك الجمال الهاجع كأنها تتملى من مفاتنه وهو ساكن وادع ، وكانت زفراته تتردد في وسط ذلك السكون المطلق الذي يغشى حجرة السامرية ولولا هذه الزفرات لحسبته بنيامينا ميتاً هالكا

وكانت تحب ان يستفيق استفاقة الشاعر المخلد القوافي فجمعت الازاهر ونثرتها على جسده الغارق في سكونه وهدوئه ، حتى اذا استيقظ في الصباح الباكر وانتشى عرف هذه الاوراد والازهار ، نسي آلامه وشجونه واحس رجعة جديدة الى حياة جديدة عارية من المناكد والمآسي

ولم تشأ ان ترقد على الرغم من متاعب ليلة حافلة بالارق واللذة والحب فقامت الى عود معلق على الجدار فاصلحت اوتاره واخذت تستعيد في ذاكرتها شيئاً من اناشيد كريستيا لتعيده على اذنيه في الصباح حتى اذا سمع اشعاره من فمها ردت اليه قواه العاثرة وعاد اليها انسانا جديداً

وانها لترجع اناشيده الماضية اذا كريستيا يهمس : فاصغت لهمسه ؛ فاذا هو يهذي . واذا اسم اركاديوس يتردد على فمه . فروعها ان يحلم هذا الحلم البشع وان يتراءى له في حلمه الموجع خيال اركاديوس وشجاها ان تكون باعثة هذا الخيال

المرهوب في جوار ح كريستيا

وظل كريستيا يهذي وظل اسم اركاديوس مالئاً شفتيه ، وظلت بنيامينا تنظر الى جبينه ملتاعة واجمة حتى أغفى كريستيا فسكن جأشها وزال الكثير من مخاوفها ولما تنفس الصبح لبست بنيامينا ملابس النهار وجلست حذاء السرير تغني انشودة الشاعر

« الى اين تمضين بقبلك الراعشة في هذا الليل الاخرس ايتها الحبيبة الغالية ؟ ولمن ستعطين هذه القبل التي عطرتها باحب اشعاري الى نفسي !

لقد رأيتك في ذات ليلة امام المرآة تريقين على جسدك العاري عطور النارنج ورأيتك تغسلين فخذيك الناعمين بعطر الورد ، ثم رأيتك تصببن على نهديك عطوراً حملها اليك محبوك من مصر وفينيقية والشـام ؛ فوددت لو انك تبدلين طيوبك ، بطيب اخر ، بطيب لم تحفل بمثله ارض فينيقية ذات السماء المصحية ، ولا جنات مصر الضاحكة على ضفاف النيل ، ولا هذه الخمائل الساكرة عند شواطىء الأردن بطيب انبعثت براعمه في نفسي ، ثم طاعت حصائده على اوتاري ؛ بشعري الرائق الذي خلد لياليك الصافية ، والبس جمالك الرائع نضرة ستنسيك نضرة المخاضر في غوطة دمشق !

الى اين تمضين بقبلك الراعشة في هذا الليل الاضحيان ايتها الحبيبة ؟ تمهلي في طوافك فاني سأريق على شفتيك مـا اودعته اوتاري من حرارة نفسي ! حتى اذا اقترب فمك من فم حبيب معبود ، لمست على شفتيه رعشة قلبي !

ان لك لغنى عن طيوب الارض في شعري ايتها الحبيبة الغالية !

وكانت تغني ويدها تستجيش الاوتار فتتحرك ويطفر النغم منها حلواً لذيذاً بل لقد كانت المعاني التي اودعها كريستيا انشودته البارعة تطفر من القيثارة الى قلب بنيامينا فتهزه وتوقظ فيه شعوراً بالالم وشعوراً باللذة وليس بدعاً إن يخفق قلب بنيامينا فان هذا الشعر قد صور جمالها التصوير الذي تحبـه وتسكن اليه بل لم

يكن في الفتيان الشعراء الذين يتزاحمون على باب قصرها من يقول مثل هذا الكلام البارع وكانت تعلم علم اليقين ان شعراء جيلها قد منعوا من الموهبة التي اعطيـــا كريستيا ! ومن اجل هذا المجد الذي يتمتع الشاعر به كان كريستيا احب الفتيان الشعراء اليها :

لقد ظلت يدها على القيثارة . تستجيش اوتارها حتى فتح كريستيا عينيه فسمع الانشودة وتعرف الى كلماتها ولم يفه بشيء من روحها وخيل اليه انه يحلم وان جسد بنيامينا العاري يطالعه في الحلم فيريق عليه عطور الليمون والنارنج والياسمين ! ولكن الحقيقة لم تلبث ان تكشفت له فعرف الحجرة من تصاويرها وعرف السرير من زخرفه الرائع وعرف الازاهر التي تغطي فراشه ثم عرف وجه بنيامينا وعرف القيثارة التي كثيراً ما غنى عليها لحونه واشعاره فاستروح الى هذه المشـــاهد ولذ التحديق اليها وبدا كأنه لم يعرف الالم في حياته واصبح من امتع امانيه ان يبتسم لهذه الساحرة التي حملت اليه العافية والشباب والمرح ولما اخذ يزيح الازهار عن فراشه لينهض ويجلس الى جانب بنيامينا اللاهية الساهية سألته الســامرية في شيء كثير من الرقة !

— كانت احلامك حلوة اليس كذلك ؟ فقال لها :

— نعم كانت احلامي حلوة يابنيامينا !

وكان فمه يهمس بهذا الاسم فلا يلبث قلبه ان يهمس به خافقاً راعشاً بل لقد كان من احب امانيه وهو في سريرها ان يجتذبها الى صدره . او يحتويهـــا بين ذراعيه او يفر بها من مدينة طبريا الى سورية او الى ايطاليا حيث يعتزل العالم معها في صومعة . او في قرية صغيرة والمرة الثانية نسي هذا الشاعر المختطف اللب مثواه على شاطيء الاردن ونسي تلك الاخت الصغيرة التي تنتظره على وصيد البـــاب ، ونسي عالمه الذي يعيش فيه عن كثب من الدمى والتماثيل . ونسي الاصدقاء والاحبة من اركاديوس الى ديمتريوس الى كاسيوس . ونسي كذلك المجد الذي ينتظره في

القسطنطينية وفي رافين ، واصبحت السامرية شغله الشاغل

لقد سألها ان تغني كرة اخرى ، فغنته نشيده ، ثم سألها ان تقرب منه فما عصت له امرأ والقت بنفسها على السرير فضمهما فراش واحد واخذ فمه يبحث عن العطر في فمها وراح فمها يبحث عن الشهوة في فمه ، ولما تلاصق جسماهما ، غاب العاشقان في عالم يطفح لذاذة وسكرا .

الفصل الرابع

نفتـــالي

ابت عليه بنيامينا ان يبرح القصر فلم يعص لها امراً وكانت تخرج به عند غروب الشمس في كل مســاء الى شرفة تطل على البحيرة فتجلس اليه ويجلس اليها وهما ينظران الى مطالع المساء الذائبة على غوارب الماء ويلذان الالوان الوردية التي يريقها الطفل على الجبال والاودية ، ثم يعودان معاً الى الحجرة بين الوصائف ثم يخلوان الى الحب والى متعه الشهية ورأسها على صدره بينما الشاعر النابه يفتش عن القبل في شفتيها الحمراوين وبينما يده تدغدغ جسدها العاري اما عيناها فقد كانتا هائمتين سادرتين في عينيه الهائمتين الســادرتين !

وفي ذات عشية استأنف الحبيبان هذه العشية الراضية الرخية على الطنف المطل على البحيرة وكانت الليلة ماتعة فجلسا الى مقعد من المرمر في الغلائل الرقيقة الشفافة وسرحا طرفيهما في الكواكب وفي ماء البحيرة وفي المسافات البعيدة . وفي الزوارق الرائحة الغادية بين شاطيء وشاطيء وكان مثلهما في هذه الليلة مثـــل المحبين الذين تحملهم متناقضات الحب على العزلة عند شاطيء منعزل ، او ريف بعيد ، ليتعرفوا الى همس الكواكب او يبوحوا بمـــا طوته القلوب المعذبة للقمر امير الليل ، ويتنشقوا عرفا طيباً في خميلة من الخمائل . او يسمعوا انشودة هوى شجية من فم محب مهجور !

لقد كان هذا حلم المحبين في الماضي وسيظل حلمهم الى الابد . فلما ترامى القمر مجمراً كجحاجة الدم المهراق وسرى النسيم رطباً على ماء البحيرة راح الحبيبان يهمسان في اذن الليل همساً لذيذاً ثم طوقت بنيامينا كريستيا بذراعيها قائلة :

— ناشدتك هذه الليلة الساجية ألا تفارقني ! . . . قل لي انك لن تبرحني . واخذ

النسيم في تلك الفينة يلاعب غدائرها ففاح من شعورها عطر شديد اهتز له كريستيا فجعل يقبل رأسها وقدميها . ومواضع جسدها حتى لقد اذهله الحب عن الاشياء والصور فلم يعد يعرف اين يضع قبلاته وكان القمر يطفر اليهما من نواحي البحيرة فغسلت انواره الرائعة مكانهما على المقعد وترقرقت على جبين بنيامينا ، ثم امتدت الى الغلالة الرقيقة التي حركها الهواء فبدا جسمها عاريا لكريستيا فلم يستطع ان يملك نفسه فاخذ رأس بنيامينا في يديه ثم اداره الى صدره وقربه من فمه ففتحت عينيها في عينيه ؛ ومضت تفتش عن الحب في حجره فجعل يقول لها :

— لقد سألتني البقـــاء عن كثب منك ! اذن فاعلمي انني لن ابرح هذا القصر بعد هذه الليلة !

— من اين اتيت ؟ قل لي اي قدر سعيد القاك في طريقي يامن يهيمن على حياتي وجسدي ؟

فحاول ان يتكلم عن هذه الليلة الهانئة فاحتبس الكلام في فمه وعاد ينظر الى الاشياء والصور الحائمة حوله نظرة الرجل الذاهل فانتبهت بنيامينا الى حيرته فقالت له:

— ما الذي اسكتك ياحبيبي وسحر هذه الليلة ينطق الطبيعة ويحرك اهواءها فلم يتكلم واشاح بنظراته عنها ثم اخذ ينظر الى اشياء تراءت له وهو غارق في بحر من اللذة والجنون ثم امتقع جبينه ، وشحب وجهه شحوبة الميت ، ولاحت في عينيه رعشة مخوفة ، واخذ فمه يهمس همساً يشبه الهذيان فريعت بنيامينـــا لهذا المشهد وخيل اليها ان هذا الفتى الذي استبقته لديها لتنعم بشبابه وتستمتع بازهاره واوراده قد اضواه السهد الطويل على الطنف ففقد قواه وفقد حجاه ومـا عاد يستطيع ان يصمد لهذا الهواء الرطب الذي تبعثه البحيرة ؛ نعم لقد خيل اليها ان حبيبهـا قد ادنف من السهد والتعب فقالت له مترفقة حادبة : لقد اضواك فرط الارق فما اشد ما تعانيه في هذه الليلة ! تعال تعـــال معي الى حجرتي فان على فراشي من الدفء ما يسكن نفسك الثائرة ! . . .

ووضعت يدهـــا على كتفه في كثير من الرفق والتؤدة ثم جعلت تدغدغ شعوره وتقول له لماذا لا تتكلم ؟ وفيم تحديقك الى البحيرة ؟! احسر لي عما يشجيك فلقد روعني أني رأيت على جبينك كدرة مرهوبة ، واذهلني ان تصمت وكنت الى حين تغني بل لقد اذهلني هذا الجنون البادي في نظراتك ! حتى كدت افقد الهدى!..

فاذا كنت تشكو متاعب الليلة الفائتة فدونك فراشي فان في نعومته مـا يهدهد هذه المتاعب ؛ قل لي ما بك ! لقد روعني انك تسبح في ليل طويل · ليل لابداية له ولا نهاية · ليل مخوف ! اسميه انا جنونا وقد يسميه غيري ذعراً !

لقد كانت تتكلم من غير ان تهز كلماتها كريستيا فظل معرضاً عنها وظلت نظراته عالقة بالبحيرة وبالجبال كأن هنالك على الشواطيء وفي الجبال ما يسترعي تأملاته ويثير ذهوله ويترع نفسه التي كانت تضحك للاهواء بشتى المخاوف ومع ان شجونه البادية كانت مثار خوف والم فقد حاولت بنيامينا ان تثنيه عن تأملاته ، وترجع به الى حاضره الذي يعيش فيه فلم تنجح في سعيها وظلت عيناه هائمتين في البحيرة وفي الجبال وراح فكره يطفو في عالم بعيد لا يشبه هذا العالم الذي احبته بنيامينـا له ثم تعالى همسه حتى ماثل الانين واخذ يد السامرية فازاحها عن كتفه ، وجفـا مكانه على المقعد المرمري ليطل من الطنف على البحيرة وكانت الشواطيء المتقابلة تزخر بالفلك والزوارق وانوار المصابيح تتدفق من شرفات البيوت والمنـــازل لتصوغ لؤلؤاً شديد الفتون على صفحات الماء والقمر الذي ضحك للناصري الرحيم الشفيق يشق السحب ليريق على الجبال والاودية الحالية بالزمرد لعابه الفضي

لقد بدا كريستيا على ذهوله رائع الرجولة فما عاد جنونه يخيف الســـامرية ، فاقتربت منه وقالت له :

— غني ايها الشاعر ! وصف لي سحر هذه الليلة فاني لفتني انشادك !

ولكن كريستيا لم يفتح فمه للغناء ولم يمد يداً لقيثاره فاستأنفت بنيامينا حديثها قائلة: غني ايها الشاعر . فكل شيء في الطبيعة يغني ؛ البحيرة تغني . والجبـال تغني !

والاودية تغني ! والبلبل يغني ! الا قل لي لماذا حبست اناشيدك وهذه الطبيعة تغني لك لتستميلك الى الغناء .

ولكن كريستيا ظل ذاهلا وظلت عيناه غائبتين في ذلك العـــالم الذي تخيره لاسفاره البعيدة ؛ فاملت بنيامنيا ان تقصيه عن هذه الاسفار التي لاتنتهي فقالت له

تعال معي الى حجرتي فانها على صغرها تقدم الينا عالماً نحبه ويحبنا ؛ عالماً يسع كل ما في قلبينا من اوهام الهوى واضاليل الحب ، عالماً يزجي الينـا الاحلام سارة قريرة عالماً يحبه الشاعر ولا يمله العبقري !

انظر الى القصر الا ترى الى جناته الوارفة الظل ، ان هذه الاشجـار البواـق قد بقيت خضرة نضرة فاذا ما احتوتنا فانها ستكون لنا منبع انسة ومصدر فرحة ثم نصغي الى هذا الهمس الذي يتعالى من البحيرة فنلذه ونستعيض به عن الغنـــاء وتروح نواظرنا غامرة هذه الغصون فنرى اليهـا منحنية الى الارض تحت اهتزاز الهواء ... نعم سنعيش في هذا العالم الصغير مع الاشجار والبحيرة والحب وستنظر الينا ازهار الرمـان والليمون نظرات تفيض بشعور الصداقة بينما تنشر السماء على رأسينا سلامها وبينما ثلوج جبل حرمون تمثل لنا صفاء هذا الحب !

غني ايها الشاعر ؛ فكل شي في هذا المساء يغني ! البحيره تغني والجبـال تغني ، والاودية تغني ! وهذا الحب الذي اشعر بحماسته يغني ! ...

وجعل القمر في تلك الفينة يريق انواره على جبين كريستيا فبدا جماله للسامرية رائقاً فتانا فزرفت اليه ؛ ونظراته لا تزال ســـابحة في الغياهب البعيدة فلمـــا اجتذبته الى صدرهـــا شعر وهو يلمس لين لباسها بلدونة جسمها نخيل اليه انه لا يزال على تلك الملابس الرقيقة الناعمة قبس من حرارة ذينك المنكبين العـاريين بل لقد خيل اليه ان حلمه غيب في جسد السامرية وضاعف في اوهامه فوحان الطيب من هذا الجسد الابيض ، واثرت في نفسه حلاوة ذلك الصوت ؛ فاطرح تلك الذكريات الاليمة التي انتهبت في نفسه على حين غرة ، وما عاد ينظر الى الاشياء

الغامضة التي استرعت تأملاته في الافاق البعيدة ، ونسي ذلك العالم الذاهل الذي اغرق نفسه في اسدافه ، فجعل ينظر الى شفتي السامرية الحمراوين والى عينيها السحورين ثم الى ذلك المرمر الجاثم على صدرها وكانت بنيامينا تنظر الى هذا التبدل الذي تسرب الى ميول الشاعر فلم يفتها ذلك الاثر الذي تركته كلماتها في نفسه الراجفة فاحبت ان توقظ اهواءه من جديد فاقتربت منه ، واقترب منها حتى تقارنا وتصاحبا فادنت فمها من فمه وعيناها مغمضتان من سكر ولذاذة ، فما ان لمست شفتاها شفتيه ، حتى الون وجهه ، ورعش واستفاض جنونه وجعل يمتص تينك الشفتين الحمراوين والسامرية لا تبدي ولا تعيد ،

ولم يكن في ميسوره ان يدفع هذا الجنون الذي طغى على نفسه ، وكيف يستطيع له دفعاً وبنيامينا تريق من فمها على فمه ذعاف هذا الجنون الذي لا ينتهي بل كيف تأنس روحه بالسكون والدعة ، وجسد بنيامينا اللاصق به يرعشه ويميده ويثير في جوارحه جنون الهوى وجنون التصابي !

ولما استوثقت من استخذائه وضراعته استفاض الفرح على جبينها فقالت له :

— انك لن تفارقني بعد هذه الليلة !

فقال لها وهو لا يزال يتهافت على شفتيها :

— سكني روعك فاني لن ابرح مغناك بعد هذه الليلة

— والآن غني ياشاعري · فان حبنا لايبرح طفلا في المهد وهو يحب الغناء ككل طفل في هذا العالم ! . . . لقد غرد الطائر ففيم لا يغرد الشاعر ؟

وجعل التعس يغني ولكن اغانيه في هذه المرة جاءت ناضبة ماحلة ، فلم تبد عليها نضرة الخمائل التي ظللته وظللت بنيامينا في الماضي بل جاءت حالية بحنينه الى وكره الهادي على شاطئ الاردن وشوقه الى تلك الصغيرة التي تنتظر رجعاه على وصيد الباب فترك السامرية وعاف قلاها . وعاد ينظر الى الجبال والشواطىء ليبحث عن ذلك الطيف الغالي ويتقصص اثره في الخاضر والكروم والجنات !

وبنصت الى همسه في وسوسة الينابيع والجداول فقالت له السامرية : لقد اقتطف الكرم فهلم ياشاعري نجتني ما نحب من ثمـــاره فلم ينبس فقالت له نزلة اخرى تعال نذهب الى البستان فان شجرة الليمون قد اغصنت والورد قد انبثق فتـــانا من براعمه . والسماء مصحية . والطواف حول المنابت الزكية يلذ العاشقين

وفي هذه المرة تساجمت دموعه فشعرت بنيامينا بحرارتهـــا وادركت من هذا البكاء الصامت ان ذلك العالم الذي بدا لها رائعاً فتانا في المنى الخالية قد تداعى لأن الشاعر لم يشترك في بنائه ولأن قلب الشاعر لا يتسع لغير احزانه واشجانه ، ولأن هذه الاحزان ستظل غامضة مبهمة فلا يفهمها غير ذلك القلب الذي غذاها بخفقه ووجيبه ، وكانت مخلصة لكريستيا ، وان كانت لم تخلص لغيره ، فودت لو انها تستطيع ان ترافق شروده وسبحه فلا تفوتها تلك الناحية التي يستقر عندها ذهوله وجنونه ، ويبدو لها ذلك الخيال الحبيب الذي اخذ كريستيا يبحث عنه في البحيرة وفي الجبال ولم تكن تشعر بالغيرة من ذلك الطيف لانها كانت تعرف الصورة التي يعبدها كريستيا ؛ ولأنها كانت تعرف مكان هذه الصورة في نواحي نفسه ومع ذلك فقد نزعت الى مساوقة الشـــاعر في تفكيره فتتبعت نظراته ، وتقصصت اثر تلك الخطوط التي رسمها وهمه وخياله ، وكانت البحيرة اول الاشيـــاء التي استرعت تأملاتها فاستعرضت الفلك والزوارق والملاحـــين . وانصتت لهدير الموج على الشاطيء ورأت ملاحا يشق بقاربه الماء وهو يزمزم فما فاتها وهي تصغي الى زمزمة الملاح مرحه وفرحه ولكن نظرات كريستيا لم تعلق لا بالفلك ولا بالملاحـــين الذين كانوا يطوفون البحيرة ولم يكن نشيد الملاح موضع تأملاته ، فاين هو اذن عالم هذا الشاعر ؟

لقد زفت الريح السحاب عن الجبال فبدت الربا والسفـــائح والاودية تحت ضياء القمر فخيل الى بنيامينا ان عالم الشاعر ليس بعيداً عن هذه المشاهد فسرحت طرفها في الروابي ورأت ضياء القمر كأنه يوشك ان ينحدر فيبلغ سراة الجبل او

يستقر عند سرة الوادي ثم بدت لها الازهار في شتى الاصبغة ؛ فتعرفت الى الشقائق ولمحت النعناع والسوسن ولما رعش النسيم في الافق المصحي شعرت بنيامينا بانفاس هذه الازهار

وكانت تعرف اشياء كثيرة عن تاريخ هذه الجبال وتعرف الى جانب هـــذه الاشياء الكثيرة صورة ما جدة للمـــاضي البعيد ، في عصر من العصور زخرت الذرى والاودية والسفائح بعصائب من الفقراء والبائسين والمكدودين توافوا كلهم من انحاء بلاد الجليل ليلحقوا بالسيد المسيح وينصتوا الى بيانه ، ولكن اين هو ذلك العصر الذي كان الناس يخرجون فيه من اماكنهم لينصتوا لنبي ؟ هل بدل الله النبي بالشاعر ؟ وهل كان كريستيا ذلك الشاعر الذي اصطفاه الله ليطوف بهذه الجبال فيلحق به الناس من كل اوب !

لقد تتبعت نظرات كريستيا فاذا هي ســادرة في افق لا يشبه هذا الافق فاين تجد بنيامينا هذا الشاعر ؟

ولاحت لها المعابد والكنائس التي بناها القياصرة تخليداً لذلك الطفل الذي ولدته امه في مزود البقر فخيل اليها ان صليل نفس كريستيا الذي لم يخفت مقتبس من صليل الاجراس في هذه المعابد وان الورع هو الذي يهز الشاعر في مثل هذا الليل الى الذهول والتيه في عالم لا حدود له ، ولكن كريستيا لم يكن ينظر الى البيع والكنائس ولم يفكر في النصرانية التي اراقت جمالها على هذه الصروح الباقية المائلة، ففيم اذن يفكر الشاعر النابه ؟

لقد صبت اكثر من مرة الى محادثته فثناها عن ذلك خوف شديد ، وكان مصدر هذا الخوف الشديد تصورها جنونه ، وتوهمها ان التحدث اليه قد يبعث هذا الجنون ويثيره فتحصد منه حصاداً لا تحبه ولا تستسيغه ؛ ولما قويت شكوكها في صفاء عقله فكرت في الرجوع الى حجرتها فراراً من مشهد الجنون في ثورانه ثم لم تلبث ان تنكبت هذه الخطة وحفزها الشعور بالرحمة الى الوقوف حيـــال

كريستيا وبينما يدها تمسح دموعه الدافقة اذا يده تشد يدها الاخرى شدة مؤلمة ، فرعشت وتصورت جنونه الوشيك فحاولت ان تسحب يدها من يده فمنعها ذلك فاستخذت له ونظرت الى جبينه المكفهر والى عينيه النديتين بالدمع ورأت فمه ينفتح كأنما كريستيا قد وطن النفس في هذه المرة على الكلام وكأنما هو سيحسر لها عن عالمه الذي تعبت في البحث عنه في كل ناحية من نواحي الأفق ! وكانت نظراته الخضلة حلوة عذبة فانسرى الهم عنها وسجم دمعها من فرح وانسة وشعرت بان الحياة لابد راجعة الى هذا الفتى الذى احبته واخلصت له ، فكادت تلقي بنفسها بين ذراعيه ناسية جميع هذه الآلام التي لا تزال طيوفها تتمثل له .

وتكلم كريستيا بصوت خفيض ! ولكنه صوت ناعم كاغرودة الطائر فقال لها :

— الان عرفت اين هي طريقي الى معتكفي ! نعم لقد اقطف الكرم بابنيامينا ولكن ليس هنا في قصر الفيلارك اركاديوس عشيقك الاول ، ولا في جنات الفيلارك ملاتيوس عشيقك الثاني ، ولا في حقول الفيلارك انطونيوس عشيقك الثالث ، ولا في بساتين عشاقك الكثيرين وانما قد اقطف الكرم وزها عند آخر عشاقك ، عندي انا كريستيا الذي لا يتمتع بلقب فيلارك ! فاسمحي لي بالمضي الى كرمي في هذه الساعة ، فاني تركت قيثارتي وقوافي ومعاني الحسان على وصيد الباب في معتكفي ؟

فتقاصرت نفسها من حزن والم ولكنها لم تتكلم فانثنى كريستيا يحدثها بنغمته العذبة الرقيقة .

دعيني ناشدتك الله انطلق الى وكري فاني اخاف المكوث عندك في ليلتي هذه ، وقد قلت لك منذ لحظة ان هنالك فتاة تنتظر معادي على وصيد الباب فمن المروءة ألا اطيل انتظارها في غير جدواء ، انك لا تعرفين اي الم تشعر به تلك الصغيرة من ابطائي في الرجوع اليها !

— سافو !

ــ نعم سافو ، اختي يابنيامينا ، اني اخاف عليها الوحدة في معتكفي على شاطيء الاردن واخاف ان يعلم الارديا، باعتزال النسر وكره فتمتد ايديهم الى فرخه !

ــ ولكنني اخاف السأم اذا انت مضيت الى مثواك في هذه الليلة ؛ فضحك وغمرت وجهه موجة من الم وجنون فقال :

ــ ان اصدقاءك كثيرون يابنيامينا وفي وسعك ان تجـــدي الفرح والالم في قصور هؤلاء الاصدقاء الكثيرين ؛ وفي وسع هؤلاء الاصـــدقاء ان يحيطوك بالكلمات المعسولة ، والضحك والعبث فلا تلبث قبلي ان تجف على شفتيك ، وتختفي صورتي من نفسك ، ولا يبقى اثر لاسمي في فمك وتموت انغامي على اوتارك فلا ترددها الوصائف

فصاحت بنيامينا :

ــ ولكنك تهذي يا كريستيا ! نعم انك تهـــذي ولا اقول لك انك جننت مخافة ان اهزك الى خوف شديد !

ــ قلت لك ان قبلاتي التي ندت شفتيك ستجف ؛ واقول لك الان انزورقك الرابض على الشاطيء حيال القصر يستطيع في اهون سبيل ان يمضي بك في الصباح الماتع الى الشـاطيء الايسر ، الى مجدله الزاهية القريرة الى مجدلة التي حشد فيهـا الرومان انضر الشباب الى جانب انضر الامجاد ، في مجدلة ستعود شفتـاك الى الايراق : فتزهر القبلة بعد القبلة وتعقب الضحكة الضحكة ولا يبقى في نفسك اثر لذلك السأم الذي تخافينه ! ولست ادري كيف تخافين سأماً وفي مجدلة اعيان الرومان ؛ من طراز كاسياس ، وتيودوريت ، وانطونيوس ، وملاتيوس ! دعيني امضي في كلامي الى النهاية ، ولا تنزعي الى اسكاتي !

لقد كنت قبل ان تريني على الشاطيء حيال باب القصر في مجدلة : ولست ازعم امراً لم يحدث : فقد كنت ارى الخطوط التي يرسمها الموج على حفاف الزورق تشق طريقاً مستقيما بدايته عند مجدلة ونهايته في شاطيء طبريا . . .

ولما رأيتني بين ذراعيك شممت في شعرك المنسجر عطر اركاديوس ورأيت على جدار حجرتك صورة ذلك الفتى كاسياس ، ثم رأيت الى جانب صورة هذا الفتى صوراً كثيرة لعشاقك الكثيرين ، وكنت المس في خفقة قلبك خفق قلوب هؤلاء المحبين ، ولم يفتني ان انصت لضحكهم وهم يتفيئون عن كثب منك خمـــائل مجدلة تحت ظلال رخية من شجر الرمان والتفاح حتى كأنني كنت حاضراً معهم ؛ واقسم لك انني كنت اتمثلهم وهم يحفونك بالثناء البارع الخادع والموسيقى الساحرة والكلمات الخفاف اللطاف والاغاني التي وضع الحانها عشاق جسدك العاري !

انك لتستطيعين ان تجدي كل هذه الملاذ عند اصحابك فماذا تبتغين مني ، واي امنية لم تعثري عليها في مجدلة فجئت تسألين عنهـــا في معتكفي انا الذي يعيش بين الجلامد والاصلاد والحجارة عيشة الذين اظلتهم الصوامع والمناسك !

ناشدتك الله ان تفتحي لي الطريق فلعلني اصل الى منزلي قبل فوات الوقت ! وكان يتكلم بنغمة حزينة يائسة ، وعيناه لا تنظران الى وجه بنيامينا الشاحب ولا الى دمعها الذريف ، ولا الى المها البادي .

...

لما حاول كريستيا ان يفتح طريقه اجهشت بنيامينا اليه كالطفل وقالت له :

ــ لقد اسأت كثيراً الي في هذه الليلة ولكنني سأنسى كلمــاتك لانني أحبك ! انك ستذهب الى سافو فلست امنعك ان تمضي اليها ، فهي اختك ومن حقها عليك ان تريدك على البقاء بجانبهـــا ولكنني اريد ألا تنسى حبي الشديد فليس صحيحاً انني احب هؤلاء الذين ذكرت من نبلاء الرومـان بل الصحيح هو انني امرأة في حياتها جهمة شديدة فلا تعنفني اذا انا بحثت عن النور والفرح ! . . .

ان اسم نفتالي مخوف فلا يسمعه احد حتى تميد نفسه وحتى يهم على وجهه قبل ان ينظر الى طلعته ! لقد ارعشك اسم نفتالي من غير ان ترى الى صـــاحبه انت الرجل الشديد الصليب فكيف لا يرعشني هذا الاسم وهو غير مفارقي وصاحبه

لا يزال يطالع علي على غير موعد ! . . . انسيت يا كريستيا كيف سوغ البطريرك سرجيوس احراق نفتالي حياً لأنه على زعمه قد ازرى بصور الاولياء . انسيت صباح ذلك اليوم الرهيب الذي استفاق ابي على ضوئه وهو يرعش من الحمى فمضى الى المرآة ينظر الى وجهه ثم لم يلبث ان ارتد خائفاً من ذلك الخيال الذي طلع عليه في المرآة ، وماذا رأى ابي يا كريستيا ؛ انت تعلم والناس يعلمون ايضاً ان ابي كان انضر رجال قريته شبابا واعذبهم حديثاً وارقهم خلقاً فلما نظر الى المرآة تراءى له وجه لا يعرفه ، وجه اكلته القروح ، وجه لم يكن لابي قبل ازماع البطريرك سرجيوس احراقه حياً ، وجه عرفه الناس جميعاً في الشياطين ولم يعرفوه في ابي الجميل الوديع

وجعل ابي ينزع ثيابه وهو لا يدري ما يفعل ، وعلى صفحة المرآة رأى ابي الى جسده فاذا هو قد تقرح فرمى بنفسه الى الارض باكياً ضارعا ، وجاءت امي وجئت انا معها على صوته الشديد ؛ فاذا انا وامي حيال مشهد فظيع ؛ مشهد استعرت من مقاذره مقاذر حياتي . . .

انني لا احب ان اقص عليك حياة ابي الشجية . كما اثارها ذلك الغول المخيف سرجيوس بطريرك بزنطية المسيطر على قيصر في القسطنطينية وعلى البابا في روما ! فقد تكون اعلم الناس بتفاصيل هذه المأساة التي قوضت صروح ابي وجعلت من هذا الرجل الطيب القلب وحشاً يخاف الناس ان يقربوا منه ! ويتحاموا ان ينظروا الى وجهه الدميم : ولكنني احب ان اذيك من الحصاد الذي حصدناه من هذه المأساة : فلقد علم البطريرك بمصاب ابي فارجف وتقول الاباطيل وزعم ان هذه النازلة التي نزلت بابي كانت حصاد غضب الاولياء الذين ازرى بتصاويرهم وانصابهم فنهى الناس عن مخالطته وجنبهم اسرته وذويه واغتصب جناته وكرومه وقصوره وجعلها وقفاً على رهبانه وقسوسه ، وفي اليوم التالي اطاف جند الفيلارك بقصر ابي ودخل زعيمهم الى حجرة ذلك التعس المتعالي وكان يرزح رزحا شديداً وقد

تقرفت جروحه وسجم دمعه واخذ ينظر الي والى امي نظرة المدنف الوشيك من القبر وكنا نسليه ونعزيه ساعة طغا الجند على القصر فمنعنا هؤلاء القساة الغلاظ من مواساة ابي وكنت في ربيعي العاشر وزهر حيـــاتي لم تنفتح براعمه بعد ، فلم افهم قسوة هذا الخريف الذي دهم حياة اسرتنا فاسقط زهراتها ورياحينها قبل ان تذوي! ولم احفل بالشتاء الذي ملأ مسراتنا برداً وقرأ ..

كانت الهـــاوية بعيدة الغور ، فقد قرأ زعيم الجند على ابي التعس المضرج فراشه بالقيح والصديد والدم رسالة قيصر الروم ـــان بنفيه من منبت احلامه الضاحكة في نابلس الى منبت احلامه الباكية في البحر الميت ! . . .

وعبثاً حاول ابي ان يدفع عن نفسه صورة هذا النفي الذي اراده قيصر عليه ، فرجا زعيم الجند ألا يمنعه من ابنته وزوجه فابى واستكبر وأومأ الى جنده ايماءة حمست نفوسهم فتساقطوا على ابي تساقط الرياح على الورق فاستخذى لهم استخذاء الطائر لطفل عابث ثم خرجوا به في الغسق الى شواطيء البحر الميت ليمضي ما تبقى من ايامه في ارض لا يعلق بسمائها طير ولا يزهر على اديمهـــا عشب ولا يميد في بحرها موج ! . . .

وقد سكن ابي الى منفاه من غير ان تتوارى في صدره القريح صورة وطنـــه الغائب ، وعشت مع امي في مجدلة ، عيشة كنت اشم مقاذرها على شفتي وفي جسدي كلما ذكرت حياة لنـا غبرت في نابلس في قصر ابي الذائع الصيت في البلاد الممتدة من خليج ايلة الى ضفاف الاردن

وكان منزلنا الجديد في شاطيء مجدلة متواضعاً فاسترحنا الى حقله الصغير وجعل بنو ابي في كفر ناحوم يلطفون في نفوسنا اوجاع المنفى ويبعثون الينـــا بما ليس لدينا وكانت امي لا تحب ان تأكل خبزها من الصدقات فعكفت على زراعة الحقل فكانت اذا قرب الحصاد تذهب الى طبريا لتعرض في اسواقها اشهى مـــا يخرجه حقلنا الصغير من الثمرات

ولما كبرت ونموت ، وكبر عقلي ونما فهمي وصرت افهم الاشيــاء والصور والحوادث ؛ علمت ان امي التعسة كانت تذهب الى حضور الاعياد في المدينة وعلى جبينها سحابة من الم وحزن ، ثم تعود الى المنزل فلا تلبث هذه السحابه التي ظالت شفتيها ان تظلل البيت كله

وكنت انظر اليها فاري يديها موقرتين بالهدايا فلا اجرؤ على مفاتحتها بحديث عن هذه الاشياء الثمينة ولكن سكوتي لم يمنعني ان امضي الى نفسي فاسألها « لماذا لا تريدني امي على المضي معها الى الحفلات والاعياد ؟

وكانت امي تقضي اغلب العشيات على المقعد الحجري المنعزل في ناحية من نواحي حقلنا البهيج فاراها سابحة في تأملاتها ، وفي بعض الاحايين كنت اسمعها تصلي وهي جاثمة امام الغسق الذي اراق سحره على وحدتنا فرقتها ولطفها ؛ وما زلت اذكر انني كنت انظر اليها من غير ان اجرؤ على محادثتهــا ، وكنت استمع بكل جوارحي الى صلاتها الهامسة فلا اتبين الفاظهـا واشعر بتعب شديد واغمض عيني فتتلقاني امي البارة الرحيمة بين ذراعيهـا ، وكنت استفيق فاشعر باخضلال خدي ، وانظر اليها فاراها لاتزال تبكي ولا تزال دموعها تبلل جبيني وخدي !

وفي بعض الاحايين كانت امي تنسى شجون العشيات الماضية وتنسى معهــا خوفها الشديد من مستقبل لا تعلم شيئاً من خوافيه وكنت اراهــا تركض ورائي مازجة ضحكها بضحكي ، غامرة لهوها بلهوي ، حتى كأن طفولتي قد عادت بها الى طفولتها الذاهبة فصارت تستسيغ الانشاد والرقص والمجون

وكانت اذا خرجت الى السوق لابتياع السمك او اللحم لا تصحبني معها مخافة ان تسرقني انظار الناس وكنت انصت الى همسها فاسمعها تقول : « ان جمالها لفاتن واني لاخاف عليها الرعونة والحمق وعبث الشباب »

ولكن امي كانت لا تمنعني من المضي في المساء الى عين مجاورة فاملأ جرتي واعود الى المنزل فاراها تنتظر رجعتي على وصيد الباب

لقد ظلت عيشتنا على غرار واحد ؛ يبزغ الفجر فتخرج امي الى الحقل لتسقي زروعه، ثم تمضي بعض نهارها وهي تغزل الصوف، ثم تقوم الى المائدة الصغيرة فاشاركها في طعامها وشرابها وعند المساء اخرج انا الى العين فاملأ جرتي واعود الى امي فاراها على ذلك المقعد الحجري تحت ظل شجرة غبياء سابحة في احزانها وآلامها

ولم تنس امي ذلك الزوج التعس فكانت تكثر من الحديث عنه وعن آلامه وتسأل عنه رجال القوافل من الرائحين الغادين بين الاردن والبحر الميت فلا تفرح بخبر سار لأن اكثر الناس كانوا يخشون ترديد اسمه، وفي ذات عشية نطلقت امي الى العين فما ان وقعت عليها عيون النسوة الحائمات حول العين حتى صحن لقد مات نفتالي من الجهد والعطش عند ضفة البحر الميت فذعرت امي وانفلتت الجرة من يدها وتفرقت بقاياها على الارض وراحت غاشية فاقبلت النسوة عليها بالماء ينضحنه على وجهها وقد ندمن لأنهن فرطن في الاساءة الى امرأة لم تفرط في امر من امورهن ثم حملن امي على المناكب وجئن بها الى البيت فما ان رأيتها حتى استغرب دمعي ورميت بنفسي على جسمها ورحت صائحة ! امي امي !

ومددت يدي الى يدها فاذا البرد قد اقرسها فخفت موتها وصحت كرة اخرى ماذا حدث لامي ! ويلكن لماذا لا تحسرن عن الحقيقة ! وكن يبكين مثل بكائي فلطفت من حدتي وقلت لهن : « ما بأمي ؟ ناشدتكن الله ان تقلن لي مابها ؟ ! ... » فصمتن ورحن منذعرات

وفي تلك الفينة سرت رعشة الحياة في جسم امي ففتحت عينيها وهمست باسم ابي، نفتالي، نفتالي

وجاء همسها باسم ابي حلواً عذباً ولكنه همس مؤلم فوقر في ذهني ان ابي عاد من منفاه فرأى امي على العين فاخافها مشهده او ان التعسة تمثلت ابي جائعاً طاوياً هزيلا مريضاً تسيل جراحه على ثيابه الممزقة فاشجاها مرضه وسقمه كما اشجاها جوعه وعريه فما عادت تطيق النظر الى جراحاته المنبثقة من جسده ولا الى ليل

الاحزان الذي يمتريه فسقطت على الارض كما يسقط الهشيم

وصاحت امي في تلك الفينة صيحة مادت لها جوانب نفسي

لقد مات نفتالي منفياً مطروداً في غير اثم ولا جريرة ! ... مات التعس ولم يمدد يداً الى ابنته وزوجه ! ... ثم نظرت الي نظرة بارة رحيمة وطوقتني بذراعيها هامسة في اذني همسها االذيذ العذب

— سأموت في هذه الليلة فلا يغمك موتي فاني احب الرجوع الى ذلك العالم الذي يعيش فيه زوجي ...

فجثوت عند قدميها باكية ضارعة ورحت افكر في مستقبل ايامي اذا ماطوى الموت في غياهبه صورة امي البديعة ولما اقفر منزلنا من نساء القرية في الصباح نظرت الى امي النائمة فرأيت عينيها اللتين ضحكتا لي في طفولتي وفي شبابي جامدتين يابستين ورأيت يديها منسدرتين على صدرها فاخافني هذا المشهد ودنوت من امي حتى حاذيتها ثم مددت يدي الى ذلك الجسد الذي تركته يمور بالحياة قبل ليلة فحركته فاذا هو قد خمد خموداً مذيباً واذا تانك العينان لا تنظران شيئاً ...

اواه ! لقد ماتت امي وتركتني في فضاء الحياة الواسع يتيمة فقيرة ! ألم اقل لك يا كريستيا انني استعرت مقاذر حياتي من مقاذر ابي ...

وفي المساء دفنت امي في مقبرة مجدلة ولم يشهد مأتمها غير نساء الضاحية ! وبقيت في البيت من غير ام ولا اب ، وتتالت علي الليالي وخيال امي لا يفارقني لافي منامي ولا في يقظتي ، فقد كنت اشعر بالضجر من هذه الوحدة فامضي الى ذلك المقعد الحجري الذي كانت تجلس اليه قبل ليال فتظلني الشجرة الغبياء ، وتغمرني موجة من هواجس عنيفة ، فاغمض عيني فراراً من هذه الهواجس فلا يلبث خيال امي ان يقتحم عزلتي تحت الشجرة الغبياء فانظر اليه فاراه نديا بالازهار من الرأس الى القدم ثم انظر الى صدر امي فيردني عن التحديق اليه قروح رأيتها على صدر ابي ..

وكنت افر من جنة البيت الى حجرتي لألهو بالصلاة فتعروني رعشة شديدة فامتنع عن الصلاة واتجنبها على الرغم من ايماني الشديد العنيف ، وكنت اخاف اليقظة كما اخاف النوم فاجفو فراشي حتى لا يلحق بي خيال امي فاسمع صريره وصليله وفي ذات ليلة وقد انقضى على موت امي ثلاثة اشهر شعرت بالضجر من هـــذه الوحدة المخوفة ففكرت في الانســلال الى بيوت الجيران لعل هذه الوحشة التي لازمت عيشي تفارقني فتغشيت بردائي وبرحت المنزل متوغلة في طرق تلتف بهــا الاشجار والظلال ثم شعرت بالتعب الشديد فجلست على كثب من شجرة تــين باسقة واخذت ابكي حظي العاثر وارثي لجناحي المهيض

وكانت بيوت القصبة جد نائيه فكرهت ان اخفق ابوابها في ظلمة العشي وفضلت الرجوع الى ذلك المنزل الذي خلفت في حجراته همس امي !

واني لفي طريقي الى مثواي اذا موكب الفيلارك يوليوس عامل قيصر في بلاد الجليل يمر بمجدلة في طريقه الى الناصرة . فاستهواني زخرف الموكب فوقفت انظر الى ثياب الفيلارك الغــالية والى تاجه المرصع باليواقيت ، ثم نظرت الى صليب يلمع على صدره ، والى خواتم تضيء في اصابع يديه ، ثم الى سيفه المذهب ، ثم ذكرت ابي وموته عند شواطيء البحر الميت تلك الميتة البشعة التي ارادهــا له البطريرك سرجيوس باسم قيصر الرومان ! . . . ثم ذكرت امي ، واستعرضت تلك الاحزان التي كانت تشعر بها قبل موتها . فاذكرني هذا كبرياء الرومــان فكرهت النظر الى الفيلارك والى موكبه واعتزمت المضي في طريقي ، وماكان في ميسوري ان اهبط بيدي على الفيلارك فاقتله وانا فتــاة ضعيفة ، وهو رجل قوي شديد ! وشهدني الفيلارك وانا اتحفز للذهاب فاستوقفني فوقفت واخذت انظر اليه خائفة وجلة فنهاني عن الخوف وقال لي لا تحزني فلسنا بالذين ترعش النســاء صورهم ، وجعل يحدق في وجهي فرأيت في عينيه صورة لرغائب نفسه فطغا خوفي ولكن الفيلارك لم يشأ ان تنمو هواجسي فقال لي :

— اتسكنين بعيداً عن مجدلة فقلت لا ؛ فقال لي :

— ما اسمك ؟

فقلت :

— بنيامينا ، قال :

— هذا اسم عذب ! . . .

فواريت وجهي بكفي من الخجل فقال لي : « مـــا الذى اخجلك ؟ فلم انبس ورحت التهى بالنظر الى مقاصير الطرق حتى عرفت تلك الطريق الـــتي تدفع الى منزلي فصحت :

— ناشدتك الله ايها المولى ان تتركني وشأني ، فضحك ضحكة مستطيلةوقاللي:

— ألى هذا الحد اخافك مشهدي ايتها الصبية ؟ لقد كنت الى هذا اليوم أومن بسلطاني على النساء فلما رأيتك تنبين عني بدا لي انني كنت مخدوعا !

وترجل عن فرسه وزرف الي صائحاً :

— دليني على منزلك ؛ فاني احب ان اصحبك اليه في غير حاشية ولا جند لعل نفسك تطمئن الي او لعلي انتزع شبح الخوف من صدرك فيشرق وجهك ويضحك فمك

وتوارى الجند وراء الغياض ، فاذا انا وحدي حيال الفيلارك فنظرتكرة اخرى الى ملابسه المذهبة والى تاجه الرفيع الثمين . ثم نظرت الى صليبه فلم يبهرني هذا كله كما بهرني ضوء غريب في عينيه وكان برغم رجولته لا يزال يرعش فترفق على سيفه المذهب وقال لي :

— اذهبي امامي فمشيت امامه كالحمل الوديع ومشى خلفي ومازلت امامه حتى تراءت لي العين وسمعت قسطلة الماء ورأيت رءوس الشجر مرتفعة فوق حيـاط البستان الصغير فقلت للفيلارك :

— لقد وصلت ، ولم ازد على ذلك شيئاً بل اخذت انظر اليه وهو يتأمـــل في

اطناف البيت وفي ابوابه . فبدا لي كأنه يريد ان يتعرف الى صورة البيت فلا تفوته هذه الصورة اذا هو ازمع رجوعا اليه فطفا خوفي وغمرتني الشكوك في المستقبل وفي هذه الفينة تمثلت امي وهي تصلي هامسة وتمثلت حرصها على الخروج وحدها من البيت وادركت لماذا كانت تخاف علي ان اخرج معها الى القصبة او الى سوق السمك في طبريا ، لقد كانت والدتي الرحيمة البارة تخاف ان اصير الى مصير الازاهر ، الا يتفاوح عطر الازاهر فيشمه الناس ، ثم يرمون به او يطئونه ؟ . . .

ولما فتحت الباب واوشك باب الخميلة الصغيرة ان يحتويني ظل الفيلارك في مكانه وظلت عيناه تتأملان اطناف البيت وشرفاته وابوابه ! وكنت اخاف ان يلحق بي فاغلقت باب الخميلة من الداخل ووقفت خلف الباب انظر الى الخارج بعينين ذاهلتين لارى خيال الفيلارك وهو يتوارى ويبتعد فلم ار شيئاً فجفوت الخميلة ورحت الى البيت ولما صعدت السلم بدا لي خيال الفيلارك في مكانه الاول ورأيت عينيه تغمران الطنوف والشرفات وحيطان الخميلة ثم رأيته يلحق برجاله في غياض مجدلة !

لم انم ليلي فقد ظلت الهواجس تتقاذفني حتى مللت فراشي وكرهت ان اغمض عيني فلما تنفس الصبح خرجت الى جنة البيت فطفت بازهارها رجاة ان يزيل مشهد الرياحين سأماً علق بنفسي فبخلت علي الازاهر بالعزاء الذي املته فرجعت الى غرفتي وعذت بالدعاء والصلاة فما خفف من شجوني دعاء ولا صلاة !

ومرت بي ليلتان اخريان وانا في هذه الغمرة فلما كان مساء الليلة الرابعة خرجت الى العين فاذا صواحب امي قد توردن الماء فاقبلن علي مترفقات حادبات كأن ذكرى امي لا تزال جديدة في نفوسهن ثم اسمعنني اعذب الكلام وارقه وابين الا ان ارد الماء قبلهن فوردته وحمدت لهن برهن وعدت الى منزلي فاذا على وصيد الباب ذلك الرجل الذي خفت ان يعود فلما رأيته تقاصرت نفسي وهممت بالرجوع الى العين لا لحق بصواحب امي او استفزهن الى نجدتي في هذه العشية فما

فات الفيلارك أمري فقال لي ارأيت كيف عدت اليك في غير جند ولا سلاح !

وكادت الجرة تفلت من يدي ، لولا انني تجلدت ، ولولا انني ذهبت الى اقصى حدود الجلد فقلت للفيلارك تنكب طريقي ايها المولى ودعني ادخل وكري فلست عدوة لك ! فقال لي مزهواً ، لقد سألتك الليلة البارحة عن اسمك وساسألك في هذه العشية عن اسم ابيك ! فمن هو ابوك واي اسرة اسرتك في مجدلة ايتها الحسناء!

وشعرت بزهوه وخيلائه ؛كما شعرت بذلي من قبل ان يسمع الفيلارك اسم ابي اللعين ولكنني ترددت ؛ ولم اذكر اسم ذلك الوالد التعس مخافةان ازجي اليه لعنات الناس فلجلجني الفيلارك بعينيه كأنه يقول لي اذا كنت لا تذكرين اسم ابيك فاني لا اتورع عن ذكره ؛ ومتى انحسر سرك لا يعود في قدرتك ان تبقي ليلة واحدة في مجدلة ؟ !

واستأنف الفيلارك سؤاله : ما اسم ابيك ؟ فبكيت فلم يغمه بكائي بل قال لي :

ـــ الست ابنة اللعين نفتالي ذلك الرجل الذي ازرى باولياء الله ورسله ؟

لقد كان ينبغي لي ألا اخجل من الانتماء الى ذلك الرجل الشهيد فرفعت رأسي وقلت للفيلارك :

ـــ بلى لقد كان نفتالي ابا لي وكنت ابنة له . . .

فامتعض الفيلارك وغمرت شفتيه بسمة هازئة وانثنى قائلا :

ـــ وكانت امك بغيا يابنيامينا

لقد نطق فمه بهذه الكلمات وهو يضحك فاحزنني عبثـــه بذكرى امي وازهر الالم في نفسي فصحت :

لا ، لا ، ماكانت امي بغيا ياسيد مجدلة وغطاريفهـا . قال : ما كذبت مرة في حياتي فقد كانت امك خليلة قائد الحرس في مجدلة وكانت تزوره ليلة بعد ليلة . ثم تعود الى بيتها ومعها مالايحصى من هداياه وعطـــاياه فاذا كنت تشكين في قولي فانطلقي الى حجرة امك وفتشي في ودائعها . . .

ولم يكن الفيلارك كاذبا ، فقد رجعت بي احاديثه الى ماضي امي فتمثلتها وهي واقفة امام المرآة تنظر الى وجهها وتذر عليه العطور والمساحيق ثم تمثلت انسلالها من البيت تحت ذوائب المساء حتى لا تراها العيون ثم تمثلتها وقد عادت الى البيت بعد منتصف الليل تحمل في يديها وعلى صدرها كل هذه الهدايا والعطايا التي تحدث الفيلارك عنها فلم اشأ ان اكذب الفيلارك ورفضت ان اذهب الى حجرتها الحالية بكثير من الودائع والهدايا ثم غشيني صمت رهيب فاحنيت رأسي وترقرقت في عيني دموع الالم والذل والقهر ففطن الفيلارك الى امري وادرك صلتي بماضي امي فتضعفني وزلف الي قائلاً :

— مالنا وللحديث عن ابيك وامك فلنتحدث عن مصيرك انت ! اتعلمين اي كارثة تنتظرك وانت في عزلتك اذا رفضت حماية رجل مثلي ! . . . الا فاعلمي ان صورتك ظلت شاغلتي ليالي الطوال فلم استطع اقصاءها عن ناظري ثم لطف لغته وقال ان اراضيه في بلاد الجليل واسعة وغنية وقصوره حافلة بكل اسباب النعيم ولكن هذه القصور بقيت مائتة فلم تتحرك فيها الانغام والاناشيد لان خيال المرأة الحسناء لم يتحرك فيها ! . . ثم قال لي : « تخيري مغناك الذي تحبين ، في طبريا عند ضفاف البحيرة او في بيت صيدا او في كفر ناحوم . . »

وجعل يتدفق في احاديثه ، بينما كانت هواجسي تذهب بي الى المسافات البعيدة! لقد كان ماضي امي يرعشني فهل يرعشني مستقبلي المحفوف بالمكاره ؟ ماذا ينبغي لي ان اعمل ؟ انني اذا ازريت بالفيلارك وتجنبته حملني من صنوف الآلام مالا اطيق وليس في وسع فتاة فقيرة ويتيمة ان تصمد لقوي يتصرف في مصائر الناس كما يريد وكما يحب ! بل ليس في وسع اي امرأة تحمل اسم نقالي ان تظل في نجوة من الاضطهاد والظلم ، وتمثلت في تلك الاثناء ليالي العواثر وايامي النواحس وما ينتظرني من فقر واملاق والم واغتراب ؛ وعرض لي خيال امي وهو سابح في الالم والدموع فشجيت نفسي وتلفت صائحة :

— سيدي ، كفى كفى . .

واغمضت عيني مخافة ان يعرض لي وجه الفيلارك وهو مضرج بحمرة الشهوة ولكن الفيلارك ظل في مكانه فلم يثر وبقيت مشاعره مطوية نائمة فاخافني سكونه وصمته ورحت الى نفسي اسألها ما عسى ان يفعل هذا الرجل الذي ملك نفسه فلم يطرحها في مطارح الهوى واللذة ! . . .

ولعل اروع ما رأيته من الفيلارك حدبه علي ساعة ابصرني جازعة باكية فتقدم من باب الخميلة وفتحه امامي ثم تلفت الي وقال لي :

— دعيني احمل هذه الجرة التي ترزحين تحت وقرها ! فلم انبس فاعتزل الباب وقال لي : سأذهب الى القصر في هذه الليلة ؛ وسأتركك في بيتك ناعمـة وادعة ، ولكنني سأعود اليك في ليلة لا اسميهـا لك ! . . . ثم انحنى في كثير من الظرف والكياسة ومضى في طريقه

وفي ذات عشية حملني الفيلارك يوليوس الى قصره في طبريا فعشت معه وقربني من اصدقائه وعرفني الى فيلارك طبريا اركلديوس والى فيلارك الناصرة كاسياس ثم الى اولئك الفتيان الماريح من طراز انطونيوس ولاسياس وتيودوريت !

وليت مقادر حياتي التي استعرتها من مقادر ابي وقفت عند هذا الحد ، اذن لكان الخطب يسيراً ، ولكنها امتدت بي طويلا : حتى اغرقتني في ليل طويل من الدعارة والرذيلة ! فشاع امري في الناس واشتد همسهم باسمي في سمرهم وخلواتهم وزعموا اني خليلة لأكثر من خليل !

وكانت قصور الفيلارك يوليوس مفتوحة امامي في مجدلة ، وفي بيت صيدا ، وطبريا . فجعل الشعراء والمصورون الذين كانت تزدحم بهم افنية هـذه القصور يجتمعون حولي ليسمعني فريق منهم ارق اشعـاره ويريني الفريق الآخر اجمل تهاويره ! وكنت انت احسن هؤلاء النابهين وجهاً وارقهم شعراً والطفهم شعوراً واندامهم خلقا واصفاهم نفسا ففضلتك عليهم جميعا

وفي ذات ليلة من ليالي طبريا غشيني بعض الرفاق ولم تكن انت في مجموعتهم الطيبة ، فقضوا زلفا من الليل عندي ؛ وملأوا منزلي بالضحك والاناشيد والحب والهمس اللذيذ ، ثم انطلقوا الى بيوتهم على قوارب كانت تنتظرهم على الشاطيء وكان السهد قد برح بي فاذنت للوصائف في المضي الى مقاصيرهن ليسترحن هذا الليل ورحت انا الى حجرتي فنزعت لباسي ورميت بنفسي على فراشي مثقلة الجفن من سكر ولذاذة وسهد

وكانت ابواب القصر مقفلة ، ولم تنس وصيفتي ان تقفل باب الحجرة التي آويت اليها ، فاطمأنت نفسي الى سكون على الشاطيء والى سكون في القصر ، وايقنت ان القوارب التي الف اصدقائي ان يعرسوا بها حيـــال القصر ستظل في مرابضها فلا يحركها النسيم الى شاطيء طبريا

ونمت وانا انظر في الحلم الى صورتك ؛ وارى الى عينيك وهما تلمعان في سماء وجهك كنجمتين اثنتين وانمثل يدك وهي تهز اوتار قيثـارتك بينما النشيد العذب يطفر من قلبك مترقرقا على الاوتار ليعيرها لحونه . . .

وتصورت شفتيك دانيتين من شفتي كأنهما تقطفان القبلة بعد القبلة فاغمضت عيني حريصة على ان لا يفلت هذا الحلم العذب !

لقد كانت النوافذ مغلقة وكانت الابواب مغلقة ! وكان باب الحديقة الغناء مغلقا فاطمأنت نفسي الهاجعة الى السبح في عالم مليء بالقبل الشهية والعنـاق اللذيذ ولم اشأ لهذا الحلم استفاقة تكدره !

ولكن حدث في منتصف الليل اني شعرت بعطش شديد وكان السكر منشـأ هذا العطش الشديد فزهدت في احلامي الحلوة العذبة ومددت يدي من تحت الدثار الرقيق الناعم الى ابريق من الذهب ملأته وصيفتي ماء قبل ذهابها الى حجرتها ثم لم البث ان سحبت يدي راعشة راجفة وذلك لان يدي مست شيئاً رخصا ناعما فمن اين توافى هذا الشيء الرخص الناعم ؟ . . .

لقد كان قلبي يخفق ، وكنت اصغى الى خفقه فاميد ميداً ويخيل الى انني مطلة على نذر جديدة لا إخال أني استطيع اضطلاعا بوقرها الشديد ، بل لقد كان قلبي يقول لي وانا مصغية لنشجيه ولحامه ان تلك السعادة التى تذوقتها واستسغتها لن تترك على شفتي غير رماد خابي ...

فما هي هذه النذر التى صرت اخافها من قبل ان ارى اليها واتعرف الى صورتها ؟

في تلك الفينة سمعت في الحجرة حركة عنيفة فمددت يدي كرة اخرى لاتجسس مصدر هذه الحركة العنيفة ، فاذا ذلك الشيء الرخص الذي لمسته قبل ثوان قد عاد يطفو على يدي فاحسست ليانه ؛ فازمعت ان اتعرف اليه ولو كلفني الامر مالا اطيق ، ورحت اجتسه فاذا هو يد تتحرك ، فرعشت وقلت ربي من اين توافت الي هذه اليد ؟

وما عدت اطيق مكثا في فراشي لجفوته ، وقمت الى الشموع فأنرتها ، وانحسر امامي كل شيء في الحجرة التى آويت اليها ، فرأيت صورتك لا تزال على الحائط ، والى جانبها قيثارتك ، ورأيت صورة الفيلارك يوليوس ، ثم رأيت صوراً للآلهة عند الاغريق ! اجل رأيت هذا كله ، ولكن تلك اليد التى تجسستها وشعرت بليانها لم ار لها صورة ، ولم المح لها ظلا فكيف توارت هذه اليد التى طـافت بيدي ، ومست روحي

لقد وشجت في نفسى هموم وامور ، فرحت الى الستائر المنسدلة فازحتهـا فلم ار شيئاً فركعت لاتبين ماوراء السرير فلم ار شيئا . فكيف توارت تلك اليد ؟

ترى هل كنت احلم ؟ لقد فكرت في احلامي المضنيـات الموجعات ، فوثقت برجعاهن الي في هذه الليلة ، وطوافهن بروحي ونفسي فضحكت وازريت بكبرياء نفسي ؛ وقلت ما اجدرني بموت ما دمت اخاف الاحلام مثل هذا الخوف !

ثم تأملت في التواء الناس عني وعبثهم بي فيما لو خرجت اليهم في ليلتي هذه بملابس النوم وقلت لهم « ان يداً ناعمة ملسـاء تمثلت لي في الحلم الموجع المرمض

فاخافتني وقذفت بي من فراشي الى الشوارع ؟ اما كان هؤلاء الناس يقولون لي وقد رأوا اي شحوبة التية تخطف على وجهي « يالها من مجنونة مفتونة ؟ ثم الا يقول بعض الناس لبعض تجنبوا هذه المرأة فان معاشرتها مما لا يروق ! »

ورحت الى فراشي فاحتواني ، وطويت ليلي كله وطويت معه حلمي الممض الموجع ، وفي مساء اليوم التالي انطلقت على زورقي الى خمائلي الضاحكة في بيت صيدا وكان شجر التين قد تبسق ونضج ثمره على الربا والذرى ، واقطف العنب وراحت العناقيد مائلة على صحائف الماء كأنها النجوم السوافر فظللتني بواسق النارنج والرمان واحسست وانا لم ابرح مكاني على ثرى الخميلة القائظ بعبق الحياة يطفر من الجذور وكان المساء حلواً ساجياً وقد رجع الرعاة باسرابهم من الجبال المجاورة الى منازلهم فلذني نشيد الرعاة ورحت اطوف عيني بالضواحي فاذا شجر الزيتون قد اورف على الحدور الهاوية الى ضفاف البحيرة او الى شواطيء الاردن

وكنت اعرف هذه الضيع الماثلة امامي واعرف افاقها الناكصة المدبرة فالآن اصبح في وسعي ان ارى الى كفر ناحوم والى منازلها المتواضعة القائمة على مرمى حجر من مياه البحيرة ثم الى كروزين المتوارية في المخاضر ، ثم الى مجدلة الضاحكة المتوردة ولقد اذكرني طيف مجدلة في هذه الساعة من عزلتي تلك الفتـــاة مريم المجدلية وطوافها الفاتن حول بواسق التفاح او في الرياض الحـــالية بالبرتقال والنارنج ، واذكرني طيف مجدلة كيف غفر ذلك الناصري سوءتها وكيف جلست مريم المجدلية عند قدميه تحت افياء شجر اللوز فاخذ يقص عليها قصصربه ويصف لها رحمته التي وسعت العالم وهي مصغية الى جرسه العذب من غير ان تفارق عيناها السحوران عينيه الضحوكين !

ولما استوثقت مريم من صفحه عنها ، واطمأنت الى انها رجعت الى العالم في غير اثم قالت لذلك الناصري العظيم :

كانت كلماتك في البداية كالاغاني البعيدة فلم يتسق فهمها لاحد ولكنها ايقظت

اماساً كثيرين من سباتهم واحلامهم وقد كنت غارقة في الاهواء فاسمعتني كلماتك فاستفقت وجئت اليك فطهرتني من الأثم حتى اشبهت حياتي ثلجة الجبل البيضاء .

وددت وانا اتنشق اعراف المساء ممزوجة باعراف الازهار لو ان الله يهب لي هذا الذي وهب لمريم المجدلية فيردني جديدة غضة وتغدو حياتي نقية صافية كثلجة الجبل البيضاء وينسى العالم الذي احتقرني مقاذر فراشي ولست انكر انني بكيت واني تمثلت ذلك الناصري الرحيم دالفا من نواحي طبريا وهو يجر وراءه ذيول ثوبه وكان تعباً فارتفق عصاه وطفق يفكر في اشياء بعيدة فرجعت بي صورته التي تمثلتها الى حياتي ، والى حياة مريم المجدلية فصحت: ألا صورة جميلة تخلصني من عاري!

في تلك الفينه شعرت بوسوسة الغصون تخيل الي ان اريج المساء قد ماحت الشجر ولكن الوسوسة ظلت تتراكض الى سمعي ثم اشتدت حتى صارت الى ضجيج فاخافني ما سمعت ولم اكن نائمة لا تخيل نفسي في حلم بل كنت في يقظـــة وكانت عيناي مفتوحتين لجميع صور الطبيعة فما يفوتني الجبل ولا السفح فمن اين جاءت هذه الحركة ؟

ثم جفوت مكاني تحت بواسق التين وجئت تلك الناحية التي صدر الضجيج عنها فاذا انا حيال خيال ابيض ! خيال لم اتبين له وجهـــا ولا صورة ولم تلح لي عيناه لأرى وميضهما الخاطف ، خيال حرص على ألا يبين وحرصت انا عـــلى التعرف اليه على الرغم من مخاوفي العنيفة وكان كلما تقدم الي تباعدت عنه ، فلا يلوي بعدي ، بل يتمادى في اللحاق بي واتمـــادى في الخوف منه ، وكنت قد فقدت كل شيء . فقدت عقلي ، وفقدت نطقي وفقدت شعوري بهذه المشـاهد التي تعرض لي فبقيت ارتد امامه وهو يزحمني حتى سمعت له صوتا ما اظنه صوت انسان فلقد رأيته يفتح فماً غريباً وسمعته يقول كلاماً غريباً . ثم حسر عن وجهه فاذا هذا الذي رأيته وجه غريب ايضاً ! وكان الدم يسيل من صدره وقد غارت عيناه واكلت وجهه قروح خبيثة ، وذفرت جراحه فانبعثت منها رائحة ما اظن انسانا على هذه الارض يأنس اليها ، فكدت اجن من الرعب وتساءلت عن هذا الطيف المشوه ؟

وعادت بي الحمى الى هواجسي الماضية فظننتني احلم وظننت ماأراه طيف ابي في الحلم ولكن الحقيقة مالبثت ان بدت لي بتصاويرها البشعة فقد حسر الخيال عن جسده وجسر عن فمه فرأيت قروح جسده وسمعت لغة لسانه فعلمت انني في يقظة وكانت يقظتي مخوفة رهيبة فلقد عادت بي في اقل من القليل الى ذلك المشوه التعس الذي طوته ارض البحر الميت فتمثلته وقد تدلف الي وجراحــه تريق على صدره القيح والصديد بل لقد تصورت عينيه اللتين ضحكتا لي في الماضي فاذاهما تلوحان لي يابستين ذاهلتين وقد اطفأ الرعب والحزن اشراقهما الخالب !

ولولا ان ابي قد مات ميتته البشعة على الشاطيء المقفر لقلت هذا ابي قد رده الله الي بعد اغتراب سحيق ليرى الي ويرى الى مقادر حياتي ويصب علي لعنته ويمنعني صفحه لانني انكرته وانكرت اوجاعه ثم تماديت في عبثي حتى رحت ازدلف الى الذين غسلوا جراحه بالذعاف فتقدمت اليهم بمائدة ندية الجوانب باللقاآت والقبل والعناق بينما شواطيء البحر الميت على جدبها ومحالها تزور عن خيال ابي ! ...

في تلك الفينة حانت مني التفاتة الى ذلك الشبح الضاوي فرأيته ينظر الي والى مابي ، ثم جعل يحدق الى عيني ووجهي ، ثم رأيته يطفر الى ناحيتي ويده ممدودة الي فنظرت الى يده فاذا عليها ذلك الصباغ الاحمر الذي رأيته على يدي ابي ، وكان الشبح قد اوشك ان يمسني فانحيت بوجهي ناحية اخرى مخافة ان يؤذيني منظره البشع فتهافت علي فاذا يداه الناحلتان الهزيلتان الداميتـــان تطوقان خصري ، واذا لسانه يفيض بكلام ماكنت اتصور ان اسمعه في حياتي .

لقد قال لي « لقد عرفتك يابنيامينـــا ولكنك انت لم تعرفيني ؛ فانظري الي وحدقي في جراحي وفي صورتي المسيخة ، فانك قد ترين على هــذه الصورة التي يتحاماها الناس جميعاً شيئاً من ماض كنت تلذينه وتحبينه ؛ اواه ان بشاعتي لن تهزك الى ماضي ولن تذكرك صورة فاتنة كنت تنظرين اليها في طفولتك وفي شبابك

وكنت اسمع كلماته هذه وانا ادفعه عني فلا استطيع له دفعاً ؛ فقد كان قويا وكان مخوفا . وكان الى هذا يفيض رقة وحلاوة ! ...

الفصل الخامس

صليل البوق

وظل الشبح المخوف مطوقي بذراعيه امداً ليس بالقليل ، وكنت خلال ذلك انظر الى ملابسي البيضاء فاراها مضرجة بقيح ودم ثم انظر الى تلك اللآلىء التي حشدتها على صدري فلا يفوتني سبحها في مقـــاذر هذا الرجل فارعش واترعدد واصيح صيحة المجنون !

وما كان صياحي ليمنعه ان يجتذبني الى صدره او يصده عن صدري فلقد كان يبحث في فمي عن صباغه وفي وجهي عن لونه وفي صدري عن وجيبه وفي شفتي عن ابتسامته ! وكان يقول لي :

لقد انكرتني عيناك فلست الومك على ذلك فان عيني قد انكرهما الناس جميعاً ! ولكن ناشدتك الله ان تستمعي لصوتي ، فلقد تحسين منه نغمة تعرفينها ' الا يقول بعض حكماء هذه الدنيا الساخرة العابثة : « يموت الانسان في عينيه ' وفي وجهه وقد يموت في شعوره ، ولكنه لا يموت في صوته ! » أفما ارعشك صوتي ! لقد تغيرت العينان ، وتغيرت الصور ولكن صوتي يابنيامينا مابرح صوتي ! . . . لقد كان يغنيك الطف الحانه وانت صغيرة في المهد فلما حبوت على الارض لم تفارقك اغانيه ثم كبرت واورف الحسن في خديك وفي جبينك فلم يمنعك اناشيده وتغاريده !

وكان يتكلم وهو يشدني اليه ؛ فعرفت صوته ، بل لقد عرفت هذا الصوت وما نكرته فصحت ابي ! ابي ! ورحت انظر اليه ؛ لافتش عن عينيه ' فارى فيهما ذلك الضياء الذي ملأ مهدي سنى وسناء واتجسس قبلاتي على شفتيه فما رأيت لابي عينين تبصران ولا شفتين تتحركان . وكان ابي الذي نكرت في هذه الساعة اسطورة موته على الشاطىء المقفر من البحر الميت يعيش في الناس بعينين حصدت حواشيهما

القروح واطفأ الحزن والالم فيهما بعض الضياء اما شفتاه فقد قرضتهما تلك الدودة الراعبة التي اجتاحت جسده والتي لا اجرؤ على تصويرها ! ...

قلت لذلك الاب التعس :

— لقد عرفتك فاي رجل انت يا ابي ! ... ثم الويت برأسي حتى لاتبين لي قروح في وجهه وقروح على جسده وكان لا يبرح مطوقي بذراعيه ! نخفت مرضه الشديد ، بل خفت ان تتسرب انفاسه الى صدري فارث مرضه وتنسل الي شجونه وتباريحه فيجفوني الناس جميعاً مثل جفائهم له ثم اطلب الموت واستحث خطاه فينأى عني ولا يقربني !

وانني لفي غمرة من الم وذهول وخوف وشك إذ ابتدرني ابي قائلا :

— قربي شفتيك من شفتي ، اراك ترعش ياكريستيا ! وارى وجهك السحور قد تجون فهل روعك ان يسألني ابي قبلة واحدة ! وقد اعطيتك الوفا من القبل ! .. ألى هذا الحد هاجتك الغيرة ؟ اطمئن اذن فان ابي لم يقبلني ولم تستطع شفته ان تمس شفتي

لقد كان ابي ضارياً كالسبع ، وكان شديداً كالعاصفة ، فلما قرب شفته من شفتي وشعرت بقبس من نفسه صحت :

— ناشدتك الله ان تواري طلعتك عن عيني فقال لي :

لقد غشيت حجرتك في العشية الماضية كما يغشى السراق المنـــازل ونزعت الى فراشك ، فاذا انت نائمة فلم اجرؤ على السرقة ! ... ثق انني لم اهجر شواطيءالبحر الميت واعبر الاردن لانتزع بعض هذه اللآلىء الطافية علىصدرك ، بل جئت من ذلك التيه البعيد السحيق لأسرق قبلة من شفتيك ، فتنـــاني سبحك عن هذه الجريمة واعتزمت ان امضي اليك وانت تتلهين باضواء المسـاء الذائبة على البحيرة لاسألك تلك القبلة !

وبينما هو يسألني هذه القبلة فامنعها عنه ، اذا الافق يمور بصليل الابواق فتلفت

ابي منذعراً الى الناحية التى حملت الى اذنيه ذلك الصليل الذي اخافه ، ثم رأيتـه يعرض عني ورأيته يرجع الى الوراء فحدقت فيه فاذا وجهه قد تجون واكفهر فقلت مابك يا ابي ، فسكت ولكنه اشار الى الناحية التى صدر عنها الصليل كأنه يريد ان يقول لي : « اما سمعت اذناك صليل الابواق » ! . . .

وظل يتراجع وعيناه تنظران الي حتى قرب من باب الخيلة فاخذ يتجسسه كأنه يريد الانسلال منه ؛ ثم صرخ صرخة البمة وقال لي :

— هذه هي ابواق الفيلارك يوليوس عشيقك يابنيامينا ، بل عدوي وقاتلي . . . لن تلعنك شفتي يابنية على الرغم من هذا الاثم الذي تسبحين في زواخره ولن احملك ما لا تستطيعين حمله فحسبي انني بلغت هذا المدى الاليم ، وحسبي انني خسرت امرأتي المسكينة . . . ولست اقول لك وداعا يابنيامينا ، بل اقول لك الى لقاء قريب ! . . . اجل الى لقاء قريب يابنية فاني آليت لأسرقن قبلك المعطرة كما أمرغها في وحول جسدي وهذا هو انتقامي

لقد اخاف ابي صوت البوق فانفلت يعدو في الطريق التي تدفع الى ضواحي القصبة فبقيت في مكاني انظر تارة الى ما افاضه ابي على لباسي من قيح ودم وصديد وتارة الى خياله الهائم ولما وارته بواســق الشجر عن عيني واطمأنت نفسي الى ابتعاده عن بيت صيدا بدت لي حقيقة مخوفة فرأيت على ضوء هذه الحقيقة صورة حياتي المقبلة ورأيتني محمولة على غارب التيار الذي حمل ابي عليه . فسيعود ابي الي ويبحث عني في طبريا وفي بيت صيدا ولن يراني في البلدين فيمضي الى كروزين او الى مجدلة ، وربما اوغل في سياحته ؛ فبلغ قانا وكفر ناحوم ، وغير بعيد ان يفتش عني في جبل تابور في النـاصرة او في سفوح الـكرمل عند شـاطيء حيفا او في حدور جبل جلبوع وذلك لأن ابي قد انسل من منفـاه ليسترق همسي ويمزجه بهمسه ، فيتسرب الي داؤه ومرضه ، واعيش في النـاس مثل عيشته حتى يلفحني غيم الموت الصارد !

واخذ صليل البوق يتعالى في الافق ، فكرهت ان يراني الفيلارك في لباسي المصبوغ فيسألني عمن ضرجه بالدم والقيح والصديد . وماذا في ميسوري ان اقول للفيلارك ، أأقول له ان ابي عاد من منفاه فالبسني هذا الارجوان ، واذا قلت له هذه الحقيقة فقد يغضب وقد يمقت ان ينظر الي فيجفوني ، بل قد يقتلني لاني تركت ابي يصل الى حرمي وهو الرجل الشريد الطريد ! . . .

اعتزمت ألا اقول الحقيقة ولكنني دخلت الى غرفتي في الجوسق الذي بناه الفيلارك لي في بيت صيدا فنزعت لباسي وغسلت درري ولآلئي وعدت في النساس جديدة وبعد قليل دخل الفيلارك الجوسق فطوقني بذراعيه فانساني لهب نفسه خيال ابي البارد المقرور . . . ثم مرت بي طوائف من الايام والليالي فجنيت من ثمار الحب ماساغ ولذ ، ونسيت طلعة ابي الذي جنبني زياراته منذ تلك الليلة البعيدة

هذه هي قصة حياتي يا كريستيا قرأتها عليك لعلك بعد قراءتها ترحمني وتؤمن بان الخوف من الجوع والشرود والموت هو الذي قربني من الهاوية وهو الذي جعلني افتش عن الحماية في قصر الفيلارك !

انني احبك · احبك فوق حبي للفيلارك وفوق حبي لاي شخص آخر ، احبك لأنك لم تحقرني كما حقرني الناس وكما يحقرني اولئك الذين يعرفون ماضي ابي ! . .

وكانت تتكلم عن ماضيها بلغة متواضعة حزينة ، فاشجتها صور ذلك الماضي وشعرت بعجزها عن المضي في احاديثها الى النهاية ؛ فرمت بنفسها على مقعد حيال السرير وهي تبكي اشجى بكاء

الفصل السادس

القبلة

لما فتحت بنيامينا عينها شهدت كريستيا حانياً عليها وقد تلون وجهه وجهم فابتدرته قائلة :

— قلت لك منذ حين انني كنت اشعر بالحاجة الى مثل ذلك المعزي المسلي الذي اخصب نفس مريم المجدلية بالفضائل العالية فانطلقت الى الناس مزهوة بما افاء عليها المسيح الرحيم من نعمه السوابغ وجاءت قريتها فحام الناس حولها وجعلوا يسألونها البركة فلا تمنعهم اياها ، قل لي أمستطيع انت يا كريستيا ان تهب لي مثل ذلك الصفح فارد جديدة في الناس ، واجيء القرية فيعلق بي اهلها كما علق اهل مجدلة بمريم ثم يسألني هؤلاء البركة التي قبستها منك فلا امنعهم اياها ! قل لي امستطيع انت ان تملأ نفسي بالفضائل فانشر جديدة غضة كما طويت وانا جديدة غضة !

ولكن كريستيا لم ينبس فروعها سكوته فقالت :

— احمني يا كريستيا ! احمني من الفيلارك . ومن العالم ، بل احمني من ابي ... ابي الذي اخاف ان يتمثل لي في حاضري كما تمثل لي في ماضي ، فارى الى صورته البشعة والى عينيه الغائرتين ثم الى شفتيه الزائلتين ، بل انى اسألك هذه الحماية لانني صرت اخاف ان يبتدرني ابي وانا لاهية ساهية فيسرق تلك القبلة التي سألتها فمنعتها منه ، خاصني بربك من هذا السم الذي تحمله شفتا ذلك الرجل السروب الجفول الذي يطارده قيصر كما يطارده الله

وللمرة الثالثة عرضت لكريستيا خيالة تلك الفتاة التي تنتظر رجعاه وهى على وصيد الباب فانسته خيالة بنيامينا ونزعت من نفسه صورة شجونها والآمها فجعل يبكي بكاء الطفل فشجيت نفس ابنة نفتالي وقالت له :

اليس تعسي هو الذي ابكاك يا كريستيا ؟ قل لي أما كانت هذه الدموع من اجلي ؟ ولكن كريستيا السادر السابح ظل محدقا الى خيالة سافو ، ســافو المدنفة العليلة ، سافو التي تعيش في هذه الساعة الروعاء بين تصاويره وتماثيله ؛ فلم يسمع كلمات بنيامينا الاخيرة

لقد خرج من مثواه على شاطيء الاردن في صباح ذات يوم وهو لايدري الى اين يمضي ثم طاف بالجبال والاودية واجتاز تلك الاماكن التي ازهر التفاح على حدورها ومر بالقصور والكرمات والجواسق على شاطيء طبريا وهو لا يدري الى اين مساقه فلما اغبش الليل وطوته سدفته تلفت الى نفســــه فاذا هو على باب بنيامينا وكان يحبها ويعرف حياتها تخفق بابها وغشي القصر وما يزال الى هذه الليلة في حجرة المرأة التي يكرهها جميع الناس في بلاد الجليل افلا ينبغي له ان يرجع الى بيته وينسى هذا الحب الذي اضله ويفتح ذراعيه لتلك الفتاة سافو التي تفتش عنه فلا تجد له خيالا ولما لم يعد في وسعه ان يسكن هذا التيار العاصف بنفسه قال لبنيامينا

لقد افنيت لياليي في قصرك فدعيني انطلق الى منزلي ، فقالت له :

— امضي من غير ان تقول لي كلمة توجع ورثاء ! قال :

قلت لك ان سافو تنتظرني ! واني اخاف عليها الناس ، فهي كما تعلمين مدنفة عليلة فليست تستطيع ان تمكث وحدها في منزل منعزل عن منازل القرية . . .

— كريستيا ! ان كلمة حنو ورحمة تبعثها شفتك تنسيني هذا الالم الذي اقاسيه ، فاذا قلت هذه الكلمة زهدت في المي وتفتح امامي عالم جديد ! قل يا كريستيا هذه الكلمة فاني لا احزن ان انت تركتني بعدها ولا افكر في ماضي التعس ! . . . قال: اني احبك ، وسأرثي لك لأن في حياتك من الألم ما يشبه ألم حياتي . . .

الا ترين كيف انساني حبك سافو ؟ ! سافو اختي بل علق النفيس في هذه الدنيا ..

وشحب جبينه من الحزن فاردف قائلا :

— اني اخاف ان اغشى بيتي في هذه الليلة فاراها في ساعتها الاخيرة او اراهــا

مائنة ! . . . لقد كنت قاسياً حيالها فلم اشاطرها بعض حبي لك ! . . .

قالت اذهب وليحرسك الله فاني ماعدت اخشىاحلام لياليي ; وهواجس ايامي ..

فتغشى بردائه ونظر من خلال الشرفة الى البحيرة واخذ يتفحص الافق البعيد النواحي كأنه يبحث عن زورق يقله الى الشاطيء الآخر ففطنت بنيامينـــا الى هواجسه فقالت له :

— اتبحث عن زورق ؟ قال :

— نعم ، قالت :

— ان قواربي ما تزال رابضة حيال ضفة القصر وفي وسعـــك ان تطمئن الى قدرة ملاحي فانهم من ابرع الملاحين في صور ! اما انا فسألحق بك الى ضفةالقصر فاشيعك واتبع ظل الزورق قبل ان تواريه غبشة الليل ... قل لي أراجع انت الى هذا القصر ؟

وكان يحبها وكان إلى ذلك يعلم ان هذا الحاضر الذى يعيش فيه يقسره على ان يقربها ولـكن هذا الحب الذي اثار جنونه والهب احلامه قدر له ان يعيش في افق ضيق ، في افق تشعر نفس كريستيا الـكبيرة الواسعة بضيقه على الرغم من اطمئنانها اليه وذلك لأن لـكريستيا حياة ثانية ، حياة لاتبتديء في منزله بين تصاويره وتماثيله لتنتهي في قصر بنيامينا بين الصواحب والوصائف ، بل تبتديء حياة كريستياالجديدة في عالم لا يعرفه الحب لتنتهي في عالم يعرفه المجد

قال كريستيا بلغة رقيقة ناعمة لابنة نقتالي :

لا ادري يابنيامينا اذا كنت افيء الى سربك او يحتويني بيتي فلا اخرج منهالا الى افق جديد والآن وداعا . فلم تفهم بنيامينا ما اراده الشاعر المصور في حديثه عن ذلك الأفق الجديد فقالت له وهي تمسح دمعة ثرة تسايلت على خدها :

— بل قل الى لقاء قريب ! فاني لا اطيق بعدك ولا اجد مـــا يعزيني في البعد عنك فشد يدها شدة عنيفة . وانحى ناحية الباب يريد الخروج فلحقت به الى ضفة

القصر . وكان الملاحون الذين جاءوا بها قبل ليلة من الشواطيء المجاورة ينامون في قواربهم فلم تشأ ايقاظهم رجاة ان تسمع كريستيا لحون قلبها العميد قبل ذهابه

ولما انحدرت الى جنة القصر على الشاطيء. فزعت الى مكان خلي تحت الطنف ويدها لا تفارق يدكريستيا فاغشاهما الليل وانبسطت البحيرة امـــامهما فرأيا الكواكب ورأيا حواشي الأفق المضيئة واستمعا لوسوسة الموج على الشواطيء فتنبه الحب في قلب بنيامينا وجعلت تتأمل في صورة كريستيا الهادئة الوادعةوتنظر الى عينيه الهائمتين السادرتين في السفوح والذرى فيأخذها سحر هـــاتين العينين فتتحدث الى الشاعر عن الهوى القديم وتصف له ذلك الحبور الذي تحسه وتشعر به كلما رأته منتصراً على شعراء جيله

وانساها رواء كريستيا آلامها وحبها فطفقت تكثر من الحديث عن المجد الذي ينتظره في القسطنطينية او في رافين حيث تعيش عبقرية كريستيا فيالكنائس والبيع الى جانب عبقرية المسيح وحيث تنهض صور الاولياء والصـــالحين وهي بعض حصاد ذكائه الى جانب صور القياصرة

وكانت تشعر وهي تحدثه عن المجد بفرح مماثل لفرح الطفولة ، فيصغي لها بينما عيناه لا تزالان سابحتين في النواحي البعيدة ، ثم انتقلت الى الحب والى القبلة التي خرجت من اجلها الى وداع كريستيا فقالت :

ـــ كريستيا ! كريستيا ! اعطني القبلةالتي احب واحرص على انتجيء قبلةالنفس التي تطلب غذاءها من الحب !

وكان الليلحلواً رطباً فوقفاحدهما حيال الآخر بين نضارة الازاهر وهمس الغصون واخذا يتساران ويتناجيان

لقد قال كريستيا لبنيامينا :

ـــ اين تريدين هذه القبلة ؟ أعلى شفتيك وقد استفـاض منهما عطر لا تجدينه على شفتي : ام على خديك وفي هذين من النضارة مالا ترينه في شبابي الماحل . . .

ــ كريستيا ! اعطني القبلة التي احب فان الزهر قد ينع على شفتيك ويبس على شفتي . . .

وكان سحر هذه الليلة قد غمرها فوضعت رأسها على صدر كريستيا وانثنت قائلة:

ــ لقد حجبت آلامي وشجوني صورتك الفاتنة ووارتها فلبثت مطوية حتى تنبه الحب في نفسي ؛ فانبعثت اهوائي ومتعي ، وعدت انظر الى صورتك لأرى فيها مستهل حياتي الجديدة . اعطني القبلة والف بين فتون في عينيك وافتتان في نفسي ! اعطني القبلة التي احب ، وكان شعرها المنسدل يتفاوح بعطر شديد ؛ فاسكر الشذا كريستيا فهز جسد بنيامينا الرخص الناعم وقال لها :

ــ أقسم لك بسحر هذه الليلة اني وجدت فيك عذراء من عذارى الاغريق فصدقي قسمي واعلمي انني قبست اول اشعاري من فتونك وسحرك ! في اي موضع تريدين هذه القبلة ؟ . . .

ــ في فمي ! . . . قرب شفتيك من شفتي واعطني القبلة التى احب . . .

ــ زيديني من حديثك العذب واجعلي صوتك الناعم يتسرب الى قلبي النائم فلعله يستفيق ، دليني على مكان القبلة من الجسم الساكر الفاتر

ــ في فمي .. قرب شفتيك من شفتي واعطني القبلة التي احب ، فانحنى عليها يقبلها

. . .

في تلك الفينة بينما كانت عينا كريستيا المصور تتأملان في عيني بنيامينا وبينما كريستيا الشاعر يتساءل في نفسه ابن رأى شبيه هذا الوجه المشرق ، وبينما افكاره تطفو في قصص سفوكول واريستوفان وهوميروس كأنه يفتش في نواحيها عن صورة ذلك الشبيه اقبل من وراء القصر شبح لم يره كريستيا ولم تفطن اليه بنيامينا وكان متلفعاً برداء اسود يغطيه من الرأس الى القدم ولكنه ترك في الرداء ثقوبا يطل منها بعينيه على ما يحيط به من المشاهد

وكان يمشي في رفق وتؤدة فلما اصبح باب القصر خلفه والفى نفسه في الحديقة

المطلة على الشواطيء اخذ ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، فرأى الى جسم كريستيا وقد التصق بجسم بنيامينا وكان الحبيبان قد ادارا ظهريهما الى جنة القصر واستقبلا البحيرة وتركا المقعد الحجري الذي اعتادت بنيامينا ان تجلس اليه تحت الافياء المتشابكة فجلس الشبح الى المقعد وارتفق عصاه وطفق يهز رأسه هزة شديدة ، ثم رفع رأسه لينظر من ثقوب في ردائه الى ذينك الجسدين المتلاصقين ويتعرف اليهما فلا يفوته امرهما

وكان لا يزال يلهث كأنما هو قد جاء من مكان بعيد ، فخشي ان يشتد لهاثه ويسمعه اللصيقان فلا يعود سره مطوياً وقد يلحق به اذى اللصيقين ! ثم حبس انفاسه وحرص على ألا يهمس حرصه على النظر الى ما يحيط به ، وكان مشهد الطنف قد عناه فتتبع الجدار الذي قام الطنف عليه ، واخذ يتفحصه ليستوثق من قدرته على ركوبه اذا فتحت ابواب القصر وخرج ناسه الى الطنف ! فدلت حركاته واشاراته على قدم اتصاله بالقصر كما دلت على قدم اتصاله بناسه !

ولما استوثق من قدرته على تسور الجدار وبلوغ الطنف عاد ينظر الى اللصيقين فرابه امرهما وخيل اليه انه عن كثب من قصة حب شديد فتساءل في سره عن هذين الحبيبين اللذين تركا القصر في هذه الساعة من الليل الى جنته ليودعا همس قلبيهما بواسق الشجر او يتركا بعض عطورهما على الشاطيء

ولكنه لم يفكر في صاحبة القصر ولم يذهب بظنونه اليها ؛ بل لقد تناولت ظنونه الوصائف ، فرب وصيفة في نجواه كانت لها القدرة على الخروج من غرفتها الى جنة القصر او الى شاطئه ، لتخلو الى خليل او تستمتع بحبيب ولكن بنيامينا لا تستطيع ان تفعل ذلك لأنها تفضل الابتعاد باصدقائها عن الاماكن التي يغشاها الناس !

ووقر في ذهن هذا الشبح الاسود ان بنيامينا لا تزال في حجرتها نائمة وليس بعيداً ان يكون احد هذين اللصيقين وصيفة من الوصائف سألت حبيبها ان يوافيها الى

الشاطيء تحت ذوائب الغسق ففعل وانساق الى قلبه وشعوره !

ولكن صوت بنيامينا الذي يعرفه هذا الشبح ما لبث ان امتد الى سمعهفانصت له راعشاً فاذا بنيامينا النائمة على صدر الشاعر تقول ،

اعطني القبلة التي احب ! . . . قبلني في شفتي والهب احلامي وهواجسي ! . . .

وكان الشجر حول الشبح متكاثفاً فلم يسمع اللصيقان صيحة الثمة تدفقت من صدره ولم ينظرا اليه وهو يرمي بنفسه على المقعد كأنه الجثة الباليه ! بل لم يستمعا اليه وهو ينشج ويهمس !

— بنيامينا ! بنيامينا ! لقد سألتك مثل هذه القبلة فمنعتها مني ! . . . وكررت بنيامينا قائلة : اعطني القبلة التي احب !

فعضض الشبح يديه من فرط الالم ولوح بعصاه الى الناحية التي انتبذهما الحبيبان كأنه يريد ان يهوي بها عليهما ؛ ثم تطاغى ألمه فرمىعصاه الى الارضوالقى بنفسه على المقعد وهو يهمس همساً اليما

« كانت هذه القبلة لي فانكرتها علي وما انكرتها على قاتلي ؛ وراح به هاجسه الى الفيلارك يوليوس فوقر في ذهنه ان حبيب الليلة لا يعدو حبيب الليالي الماضية فازمهر جبينه تحت القناع الاسود ورعش جسده وروعته ذكرى ذلك الرجل الذي اخرجه باسم قيصر من وطنه الاول الى ارض لا يعشش فيها طائر ، ولا يزهر في اديمها نبت ولا يغني في جنباتها مسافر

وتمنى لو ان في يده نصلا فيثب من مكمنه على الفيلارك ويغمد النصل في صدره فلا ينزعه الا اذا استوثق من موته ؛ ثم يلقي بجثته الى البحيرة فتبتلعها اللجج ويعود الى منفاه وقد اوفى بنذره وسلب قيصر احب قواده اليه

ولكن هذا الشبح الذي توافى الى جنة القصر من ذلك المكان السحيق البعيد ليشهد في هذه الليلة العامدة قصة القبلة لم يستطع ان يمتد ببصره الى عامل قيصر او يرفع يده عليه فضحك وارتد يزري بهواجس نفسه وهو يهمس :

« ماذا ؟ أنفتالي يتطاول الى الفيلارك ؟ انه ان فكر في هذا الامر ازرى به الناس وتضاحكوا عليه » وكان يقول ذلك وهو ينزع رداءه الاسود ويأتي به الى المقعد فانكشفت جراحه وقروحه واخذ ينظر الى جسده وهو يهز رأسه من فرط الالم

« نفتالي ! نفتالي ! اين انت ؟ لعلك تحلم فان كنت تحلم فاستفق وانظر الى جسدك في المرآة فلا يفوتك ماضي حياتك وتعرف من اين اتيت والى اين تمضي ؟

وجعل يضحك وعيناه تنظران الى دمه والى جراحه ! وفي تلك الفينـــة ادار كريستيا وجهه الى ناحية الطنف واستقبل جنة القصر ورأس بنيامينا لا يزال على صدره فاصبح في وسع الشبح الجاثم على المقعد المرمري ان يرى الى وجه الشاعر ويتعرف اليه وكان من امتع اماني كريستيا في هذه الساعة ان يعزف عن البحيرة فلا ينظر الى شطآنها وجبالها حتى لا تبين له الطرق المؤدية الى الاردن بل لقد كان من الذ اماني كريستيا ان ينسى في هذه اللحظة الاخيرة خيالة سافو لينعم بخيـــالة بنيامينا فانحنى ناحية الطنف واخذ يهمس في اذني الحبيبة همسه الخفيف الرقيق بينما جسد بنيامينا يضطرم من اللذة ! . . .

— اي حبيبتي ، لقد اردتني على ورد حوضك ؛ فما عصيت لك امراً ثم قربت فمي من فمك لاعطيك القبلة التي تحبين ! . . .

وكان صوت كريستيا يخرج من صدره مضطربا فسمعه نفتالي فنهض على قدميه واخذ عصاه وتقدم الى ناحية قريبة من مصدر الصوت فلم ينتبه كريستيا الى حركة الشبح عن كثب منه وذلك لأن الشاعر المصور قد زهد في الاستمتاع بما حوله من جميل المشاهد فجعل يصب احلامه في احلام بنيامينا ، وجعلت بنيامينـا من ناحية اخرى تصب احلامها في احلامه .

لقد قال نفتالي وهو يتقدم الى مصدر الصوت ليرى صاحبه :

— من عسى ان يكون هذا الرجل الذي جاء ينازع الفيلارك يوليوس في حبه ويسرق من شفتي خليلته اندى القبل ؟

وكان في غنى عن البحث في ذاكرته عن الاشخاص الذين الفوا الانتداء الى قصر ابنته فقد نادت بنيامينا الشاعر باسمه وقالت له :

— كريستيا ! كريستيا اعطني القبلة التي احب !

فلما خرق هذا الاسم سمع نفتالي الوي برأسه واردف هامساً :

— كريستيا ! كريستيا ! لم اسمع بهذا الاسم من قبل فلعل صاحبه احد رجال الحاشية في قصر هراقليوس او لعله احد عماله في هذه الضواحي . . .

وقد كان طبيعياً ان يلطف اسم الشاعر من حدته ويطفىء في صدره تلك الجذوة التي اذكاها اسم الفيلارك يوليوس ! بل كان طبيعياً ان يطمئن وان يسكن ما دام اسم كريستيا لا يعطيه صورة لبشاعة الفيلارك وقسوته فرجع الى المقعد وارتد الى نفسه فانكر حمقها ونزواتها ثم طفق يصغي الى صوت ابنته

قالت بنيامينا وفم الشاعر على فمها :

— زدني من مثل هذه القبلة ! قبلني دائماً في شفتي ! . . .

وكانت عيناها مفتوحتين فابصر كريستيا فيهما قبس الشهوة الذي لا ينطفىء وادرك من نظراتها انها تطلب المزيد فقبلها نزلة اخرى ، فما اطفأت القبلة الثانية ذلك القبس وظل جسمها يتلوى بين يدي الشاعر وظلت الشهوة تبعث فيه تلك النار الآكلة حتى امتلأ صدرها بما يشابه النشيج وحتى جمد فمها فما عادت تستطيع له فتحاً وطويت جفونها فما عادت تستطيع لها نشراً ، وظلت القبلة تبعث القبلة حتى خيل الى نفتالي ان سيل القبل سيظل دافقاً وانه سيظل ينتظر القبلة الواحدة التي انكرتها بنيامينا عليه فلا يظفر بها !

قال كريستيا :

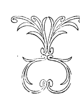
— الا ترين يابنيامينا كيف ان العالم اصبح لنا منذ اغسى الليل ، سنعيد هذه اللقاءة كرة اخرى وسنمضي الى الحقول والجنات والينابيع ؛ ثم الى تلك الحراج الصامتة لنقول لها ان العالم اصبح متاعا لنا ، وسيريق القمر علينا نوره فيضيء امامنا

السبل ويرينا الاشجار الواشجة ، فنقترب منها ونبحث في جوارها عن ذلك المثوى الذي يسعنا ويسع احلامنا ثم ينتهي مطافنا عند اجمة صغيرة من الورد فنتفيأ ظلالها ونشم عطرها فتسكرنا الليلة ويسكرنا الشذا ثم نفيء الى لحـــاء الشجر فننقش عليه تاريخ هذه القبلة

جثت بنيامينا من هذه اللقاءة جنياً لذيذاً ففتحت عينيها فقرأ كريستيا فيهما سورة الاعتراف بجميله واحسانه ولمس في حدجات هاتين العينين شيئاً كثيراً من التعب والضنى فأزمع مضياً الى منزله فتلفت الى بنيامينا وقال لها بلغة رقيقة :

— سأذهب فقالت وهي في ذهلة :

— اذهب ، اذهب ، فان ملاحي ينتظرونك على الشاطيء . . ولكن كريستيا لم يستطع ان يرفع رأسها عن صدره فظلت نائمة على ذلك الصدر الذي اخذ في تلك الفينة يخفق امام صورة سافو ولما استيقن من غشيتها مشى بهـــا الى ذلك المقعد المرمري فوطئت قدماه ارض الخميلة فكان لنعليه خفق استفاق له ذهن نفتالي فانصت وتطاول ليرى بعيداً فاذا هو يبصر كريستيا وقد اخذ في يديه جسم بنيامينـا فرأى على وجه الشاعر صورة الفتى الصليب الشديد : فخشي بأسه وادرك انه صائر الى موت حقيق اذا بقي في مكانه . فوطن النفس على الاختبـــاء وراء بواسق الشجر ثم حمل عصاه وجفا مكانه بجانب المقعد الحجري لائذاً بشجر التين وكان يعلم ألا معدى لكريستيا عن ركوب الزورق في هذه الليلة ليذهب الى مغناه فاستراح الى العزلة وراء الشجر ووقف ينظر الى ما سيعمله الشاعر .



الفصل السابع

المــاضي

اضاء القمر حواشي البحيرة فنظر كريستيا كرة اخرى الى الجبـــال والذرى والاودية فبانت له الطريق التي تدفع الى منزله فرق قلبه رقة اليمة وصبت نفسه الى تلك الفتاة التي ما برحت تنتظره على وصيد الباب وكان جسد بنيامينا الهامد لايزال بين يديه فوضعه على المقعد الحجري والقى نظرة اخرى على طريق منزله فشهد مياه الاردن تلمع من بعيد تحت ضياء القمر ورأى اشجار الزيتون الى جانب اشجـار الرمان ولم تفته خضرة الآس في حقول الاردن الفيحـاء فاشجته ذكريات المنزل المنفرد كما اشجته ذكريات سافو فتهافت على الشاطيء صائحاً من منكم ايها البحـارة يحملني الى الشاطيء الآخر !

وكان الملاحون قد استفاقوا على صدى صوته فطافوا بضفة القصر واخذوا يحدقون اليه فعرف اي ذهلة تغشى نفوسهم من وقفته على الضفة في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل فاحب ان يزيل ما علق بنفوسهم من شك وريبة فقال لهم :

ــ لا تشكوا في امري فاني انا كريستيا المصور الشـاعر وقد امضيت ليلتي في القصر لأن بنيامينا ارادتني على وضع بعض الاغاني ، فلم يكذبه احـــد من كل هؤلاء الذين اعتادوا ان ينقلوا العشاق المعاميد من شواطيء بيت صيدا الى شواطيء طبريا ، بل لقد افسح له هؤلاء الطريق فانحدر الى احد الزوارق واخذ مكانه في خيمة نشرتها بنيامينا في مؤخرة الزورق ، وراحت عينـــاه تتوغلان في السفوح والحدور واليفوع بينما يد الغادف (١) تنحدر بالغـادوف (٢) الى اللجج وبينما

---

(١) الغادف الملاح

(٢) الغادوف المجداف

الزورق يطفو على الماء في تلك الطريق التي تدفع الى مغنى كريستيا !

كانت بنيامينا نائمة حينما وقف نفتالي حيال المقعد الحجري فـلم تسمع صوته الراجف ولم يتسرب الى قلبها همس قلبه الواجف ، ولم تر اليه وهو يحدق اليها بعينيه الذاهلتين السادرتين بل لقد كانت بنيامينا تسبح في احلامها اللذة ساعة خرج نفتالي من مخبئه ليرى الى اثر تلك القبلة المعسولة التي تركها كريستيا على شفتي الحبيبة الغالية

ولبث نفتالي يقلب نظراته في وجه ابنته ويتأمل في ذلك الجمال الساكن الوادع الذي خلع القمر عليه فتونه واشراقه فزهر زهورة رائعة واشبه هذه الصور التي حفلت بها وثنية الاغريق . ثم لم يلبث هذا الوالد التعس ان رق رقة غريبة وجعل يقلب بصره في ذلك اللباس الازرق الذي ستر جسد بنيامينا ثم انثنى حائراً مشدوها

ولعل اشد ما اثار نفتالي في هذه الساعة الروعاء هو هذا الصباغ الاحمر الذي يخطف على شفتي بنيامينا ، وماكان هذا الذي رأى صباغا ولكنه اثر القبلات التي تهافت بها كريستيا على شفتين كانتا تقبسان حمرتهما من حمية الهوى وحمية الشباب

وشاء نفتالي وهو ينظر الى ابنته النائمة ان يتمثل المشهد الذي عرض له قبل ان يركب كريستيا غارب الزورق ، فتصور فتاته نائمة على صدر هـذا الفتى الرائع الرجولة ؛ وهي تنظر اليه بعينيها السحورين ، وقد ادنت شفتيهـا من شفتيه فانحنى عليها وظلل وجهها واسمعها وسوسة القبل كما اسمعها وسوسة النغم !

لقد الهبت حمية نفتالي خياله فعضض يديه من الغم والقهر وعاد الى نفسـه فسألها لماذا قعدت به عن قتل ذلك الفتى الذي سرق قلب ابنته وسرق هداها ووعيها!

الا يمت ذلك الخليل الى سلائل الرومان بنسب ؟ اذن فقد ينبغي لنفتالي وقد اغساه الليل وحجب صورته عن الناس ان ينقض على خليل ابنته الروماني ويشد على عنقه شدة لا استفاقة بعدها ، ثم يلقي به الى البحيرة فتحتويه لججهـا وعلى هذه الصورة يكون نفتالي قد اوفى بنذره واراق دماً رومانياً !

ولو فعل نفتالي هذه الفعلة ، واطل ذلك الدم الروماني لشعر بالراحة ولاطمأنت

نفسه الى انه كافى جراحه واثاب آلامه ! ؟ ولكنه لم يفعل لحق عليه ان يصمت وان يسكن لآلام نفسه الهادمة . . .

كان ضياء القمر حلواً رقيقاً ، فلذ نفتالي سحره المستفيض على وجه بنيامينا وخفق قلبه لماضيات ايامه ورق لليالي السالفات فذكر بيته وذكر زوجه ، ثم ذكر الطفلة التي جعلها الله ثمرة هوى صحيح ، وحصاد ولاء اكيد ، ثم ذكر اسفاره البعيدة وطوافه بين شواطيء البحر الاحمر حاملا الى الحبشة واليمن ومصر كل ما حفلت به سفنه من عطور الشرق وخزف دمشق وحريرها الغالي ! وكان الرومان الى ذلك العهد القصي البعيد يجلونه ويكبرونه ويزدلفون اليه لانه سيد اسرياء جيله ولانه العبقري الذي استغل عبقريته فاغلته وكان يفيء من اسفاره بعد عام او عامين فلا يستفزه في رجعته غير منظر بيته ولا يستهويه غير خيال طفلته وهي تحبو على الارض ! ولم يكن هذا العالم الذي يحبه واسعاً بعيد النواحي ، بل كان صغيراً متواضعاً وكان ناسه هو وزوجه وطفلته !

في ذات عشية رجع نفتالي من احد اسفاره البعيدة ، فدخل القرية وجاء منزله فتلقته زوجه على وصيد الباب وعلى ذراعيها طفلة في ربيعها الثالث وكان نفتالي قد غرب في الارض فلم يتح له امعانه ان يستمع الى طفلته وهي تناديه باسمه او تنادي امها باسمها ! وشد ماكانت فرحة نفتالي ساعة اقتحم عتبة المنزل وشهد زوجه تتقدم اليه بثمرة قلبه ، بل شد ماكانت فرحة هذا الوالد الشفيق ساعة اخذ تلك الطفلة الغالية كطائر لم ينبثق جناحه بعد

ولما ايفعت بنيامينا وانبثق جناحاها وعرفت الاشياء والصور طفقت تنادي اباها باحب الاسماء لديها فكانت اذا أتته تعباً مكدوداً طفرت الهضاحكة وجلست الى ركبته وانحنت عليه لتفتش عن الشعرة البيضاء في رأسه او لتسمعه قليلا من غناء القرية فينسى تعبه وينسى اسفاره ثم يفيء الى حياته ويفتش في جوانبها فيرى اليها على الرغم من هـــذه الغيوم العالقة بنفسه حافلة بالموسيقى والمرح والزهو فلا

يلبث ان يطمئن ويستريح الى مستقبل ايامه !

وماذا كان يهم نفتالي وهو الرجل الذي اصغى الى ابنته فسمعها تغني فخيل اليه ان غناءها قد ملأ العالم على رحبه واتساعه ثم توهم هذا العالم وقد استأنس بموسيقى الطفولة مشاركه في اللذة والفرح ومادام نفتالي يرى في دعة الطفولة وانسها مصدراً لدعة العالم كله وانسه فقد اصبح من حقه ألا يفكر في غيوم المستقبل وفي سحبه !

ولو قدر لنفتالي ان يكب على دراسة العالم الذي يعيش فيه كما اكب على دراسة التجارة والربح في البلاد البعيدة لكان في قدرته ان يجنب نفسه اوهاما علقت بها وذلك لأن العالم الذي يعيش فيه لم يشعر بهذه الموسيقى الساحرة التي اسكرت بيته واسكرت نفسه وكان ينبغي له ان يدرك ان العالم في القرن السادس ليس بيته ، وليس بيت غيره من الناس ، وانما هو بطريرك القسطنطينية سرجيوس المسيطر على هراقليوس قيصر الرومان ، ورجل مثل سرجيوس رمى الشرق بالغرب والب القسطنطينية على روما وضحك من بطاريك انطاكية واورشليم والاسكندرية ، وتنزى الى الشر فهاجه ، رجل مثل هذا الرجل ماكانت تلويه عن مقاصده انشودة تنشدها طفلة في بيت لبث ذووه من مطلع القرن الخامس الى القرن السادس فرائس قيصر الرومان

لقد كان نفتالي من نبعة سامرية في الاصل فتنصر ؛ وكان حافزه الى النصرانية امعانها في اضطهاد ذويه وايغالها في تشريدهم وتبعيدهم ، وهو لا يزال يحمل ارثه الشجي من الماضي ولا يزال هذا الارث الذي يتمثل في صبحه ومسائه يقص عليه نبأ الكارثة التي نزلت بالسامرية في سنة خمس وعشرين وخمسمائة ؛ وكان قيصر الرومان لذلك العهد يوستنيانوس مجدد اياصوفيا ومعيد ذكراها ، وزوج تيودورا الهائلة التي ظللت ماضي بزنطيه بشبح شديد التعتيم !

في ذلك العهد القصي البعيد ، اتهمت تيودورا السامريين بالتواطؤ على القصر فساوقها البطريرك ايتوشيوس فاتهم السامريين بالتواطؤ على الكنيسة ، ثم سوغ

القصر والكنيسة ارهاق السامريين، فقتل الغساسنة منهم مقتلة عظيمة، وعرضوا خمسة وعشرين الفاً من نسائهم واطفالهم وشيوخهم في اسواق الحبشة كما تعرض العبيد! وكان بين هؤلاء الذين حصدتهم سيوف الغساسنة احلاف الرومان بعض هؤلاء الذين يزدهي نفتالي بالانتماء اليهم فاورثه خطبهم البعيد اشجى الذكريات فلبث خائفاً على مصائره ومصائر الاسرة التي يحبها وجعل يكثر من السياحة في البلاد لينسى ارثه الشجي من ماضي آبائه، فما قدر على النسيان قدرته على التبسط في التجارة والتوغل في الكسب فلما آب الى وطنه في بلاد الجليل اوبة الظافر لم يستترف ولم يتبذخ، فتلقته ارض الوطن وهو اشد ما يكون عزوفا عن عيشة الرجل المترف البذاخ. وكان من امتع اماني نفتالي الذي اخضع البحر لمتاجره من ايلة الى الاسكندرية ان يعيش في ارض الجليل عيشة ناعمة هانئة! عيشة متواضعة لا تستثير حسد الناس ولا توقظ احقادهم. وكان يعلم الى هذا كله ان شهرة الرجل مطلع عثرته ومبدأ محنته، فخاف الشهرة وجفاها فلحقت به فما استطاع ان يردها عنه وظلت تلاحقه وتدعيه، وهو لا يريد لحاقا بها ولا يدعيها، حتى املته الملاحقة واعياه الادعاء فاستخذى وكان استخذاؤه منبع تعسه ومصدر بلواه! فحسده الناس جميعاً حسده الشعب لأنه اضاء ولمع في المنبت المتواضع. وحسده قيصر لأنه النابه النابغ وحسده البطريرك لأن شهرة نفتالي طغت على شهرته وقد كان الشعب وقيصر والبطريرك صورة لكبر الامبراطورية البزنطية. استترف قيصر فجاراه في الترف عماله فشحت خزينة الدولة، وجاع الجند، واستترف البطريرك فتضاءلت الارض في يدي الفلاح واتسعت في يدي رهبانه وقسوسه، وجاع الشعب فانساق الى ميوله وجرؤ على الشر!

لقد تحالف البطريرك وقيصر والشعب على نفتالي لأنه استخرج الذهب من مواطنه البعيدة ولانه الرجل النابه النابغ، ولانه كان سيد بلاد الجليل في وفرة مزارعه ووفرة متاجره ووفرة ماله، نزع البطريرك الى سلبه اراضيه ومتعه وزخارفه

ليبني بها الكنائس والبيع والاديرة وليزين الجدر والحياط والسقوف ، ونزع قيصر نزعة البطريرك ليعيش في قصور القسطنطينية عيشة اسلافه قياصرة الرومان فلا يمنع خليلاته هذه اللآلىء الثمينة التي توافي بها نفتالي من البحرين ولا يزهد في منافسة اسلافه ومجاراتهم بل ينشيء القصور والجواسق والعمد والصور مما كسبه نفتالي ، وانساق الشعب الى مجاراة البطريرك ومجاراة قيصر ، لانه متعصب ولانه جاهل ، ولانه الى جانب تعصبه وجهله لم يعد يتذوق جنى تلك التعاليم العالية الرحيمة التي اقرتها النصرانية في العالم ! ولان المسيح نفسه لم يعد يظهر على الناس في ارض الجليل ليسمعهم اعذب صوت او ليريهم اجمل صورة ، او يعرض عليهم انبل خلق ، ولان شبح العذراء مريم تلك الوالدة البارة الرحيمة لم يعد يطفو على ارض الجليل وهي تملأ جرتها من عيون الناصرة او من ينابيع طبريا . . .

في ذات عشية خرج نفتالي الى الكنيسة ليشترك مع الناس في صلاة عيد الاحد الذي قبل الفصح ، وهو عيد السعانين عند متنصرة الروم ويوم السباسب عند متنصرة العرب . فما ان وطيء الكنيسة حتى اخذته انظار الناس ، فانتبذ في المصلى مكانا منعزلا على جداره صورة من الفسيفساء تمثل السيد المسيح على الصليب وقد خلج امه الرحيمة بعينين نديتين خضلتين ، ثم لم يمنعه اله ان يحييها ففعل ، اما مريم فقد ظلت تلك الام الصابرة ، فلم تحسر عن الما ولم تنشج وظلت تحدق في ابنها الرائع الرجولة بين سرب من صواحب وفتيات تشاجين معها فسرحن شعورهن على مناكبهن وبدون حافيات

وفي سفح الصورة حروف يونانية ؛ قرأها نفتالي وهو ينظر الى خيال المسيح على الصليب فرعش كأنه لم ينظر اليها قبل هذا اليوم ، وكانت الصورة نتاج مصور شديد الاحساس . وحصاد نفس اختلط بها الورع والصفاء والحب والحنو الى جانب ولع صاحبها بفنه وصنعته حتى ليستطيع الانسان وهو ينظر الى الصورة ان يلمس سيرة الرجل النبي من البداية الى النهاية فلا يفوته معنى من معاني النصرانية !

وكان نفتالي بارعا في لغة الاغريق فقرأ الحروف المنقوشة على الصورةفارعشته وحاول ان يتكبها فلا ينظر اليها كرة اخرى ، ولكن عينيه ظلتا معلقتين بالجدار وظلت الحروف تتراءى له فهمس بها على شديد نفوره منهافاذا هي نداء الى الامهات في العالم « ايتها الامهات اللواتي احببن اطفالهن واولعن بهم تعالين انظرن الي مافعلته اليهودية في ابن داود »

وكان الناس ينظرون اليه فلا تفوتهم حيرته ، فيشتد همسهم ولغطهم . وكان هو من ناحية اخرى ينظر اليهم فلا يفوته بعض هذا الهمس فيتمادى في خوفه ويرتد ببصره الى الصورة فيقرأ الحروف المنقوشة عليها !

ولما اتم صلاته خرج من الكنيسة الى بيتهفلحقت به عيون المصلين فطغا خوفه ووضع يده على قلبه فاذا هو ممعن في خفقه فوقف يصغي اليه فدله نشيجه على قرب هبوب العاصفة التي يخافها على بيته وذويه ثم دخل بيته ليواري غمه عن النــاس فتلقته امرأته ولم يفت هذه المرأة اثر الخوف الشديد العنيف عــلى وجه زوجها الشاحب فسألته عما يخيفه فسكت ؛ ثم طفق يلاعب ابنه بنيامينا فتلاعبه وتضاحكه حتى انسته الطفلة المرحة الناعمة مأساة نفسه فرقد ليله وفي صباح اليوم التالي احاط جند الفيلارك بمنزله فاذا هو متهم بضحكه على الاولياء والصالحين وعبثه بصورة السيد المسيح ســاعة صلبه ، واذا البطريرك يسوغ احراقه فيجوز قيصر هذا الاحراق ؛ ثم اذا الشعب يسر ويفرح لانه سيرى الى النــار وهي تأكل الرجل الملحد !

وكانت احلام نفتالي في تلك الليلة التي حشد فيهــا الفيلارك جنده على باب قصره كافية لتقويض عافيته فما ان نهض من فراشه وجاء الى المرآة حتى كان الرعب قد محا معالم وجهه فاذا ذلك الوجه مجتاح بقروح فتمايد نفتالي وتمــايدت زوجه وتولهت بنيامينا !

ثم ذاع خطب نفتالي في البلاد جميعاً ، فاستعاض قيصر عن الاحراق بالنفي لأن

السماء قد انزلت بالرجل الملحد اشد القصاص فلا ينبغي لقيصر ان يجاوز المدى في القصاص وكان ختام هذه المأساة هذا التيه الابدي الذي يعانيه نفتالي على شواطئ البحر الميت ، وموت امرأته التعسة في بيت خامل وضيع وضياع شرف البنت ، وكانت هذه الخاتمة لابد منها ليظفر البطريرك بحقول نفتالي وجناته ، ويأخذ قيصر هذه اللآلي الثمينة والطرف الباقية التي اشتملت عليها قصوره ، ثم ليضحك هـذا الشعب الذي عمر الدنيا كلها بعلمه وثقافته ثم افقرها بجهله وتعصبه !

الفصل الثامن

على شواطيء البحر الميت

لقد كان نفتالي ينظر الى وجه ابنته وهو مطل على رأسها حيال المقعد الحجري في تلك الخميلة التي تركها كريستيا حالية بوسوسة القبل، ثم لا يلبث ان ينظر الى ماضيه فتنزع صورة الماضي البشعة من قلبه صورة البنت التي احبها في طفولتها وفي يفعها، ثم يتمثل حاضر هذا البنت فيرى اليه خليطاً من العار والبؤس والعبث فيرعش ثم يفكر في حياته على شواطيء البحر الميت فتميـــده صورة ذلك المنفى السحيق! وكيف لا تميد نفس كان لزاماً عليها ان تمضي النهارات والليالي على شطآن كانت، في القديم البعيد جنة حالية بالنـــدي من الازاهر والضحوك من الشجر، والرائق العذب من الماء فلما تبذخ اهلها وترفوا زلزل الله عمرانهم واقفر ارضهم وقوض آثارهم فطواهـــا هذا البحر في ليل شديد التعتيم من اعماقه، ثم تضاءل هذا البحر من غير ان يتبدل لونه وشكله ولبث ماؤه الملح الثقيل لا يجد فيه السابح حمى او ملاذاً؛ وماذا كان يفعل نفتالي في هذا المنفى؟

لقد كان ينبغي له ان يطوف حوله سحابة النهار فاذا اوغل في طوافه تراءى البحر له منتهياً في الشمال عند الكثب القائظة اللافحة ألاوار، فاذا ربض في مكانه وتأمل فيه الفاه مجتمعاً بين صفين من جبال متوازية متقابلة. في الشرق جبال مواب الزرقاء التي تنضح القار لتربقه في افق لاهب، وفي الغرب جبال اليهودية، وليس بين هذه الاصلاد وجبال مواب ثمة انسجام، بل ان الجبال اليهودية طبيعة اخرى. فهي كلسية بيضاء ولكنها تبدو رائعة فتانة اذا لثمتها اشعة الشمس، وعلى جانبي هذه الجبال يبسط الحزن المطلق رواقه ويمد الصمت جناحيه كأن هذه الامـاكن قد غصت بالرميم من عظام الموتى فلا تسمع فيها صوتا او لغواً

فما هي حياة نفتالي في هذا التيه ، واين يستريح هذا التعس بعد طوافه الناصب حول جدة البحر ؟ ومن هم اخلاؤه واحبابه في هذا العدم الموحش ؟

كان نفتالي يعيش في برج متهدم عند الكثب القائظة ، وقد قيل ان هذا البرج قديم عهده وان بناءه يرجع الى عصر سليمان ، وقيل انه من صنع قدماء الرومان الذين اخضعوا بلاد النبط ، وقيل انه من عمل هؤلاء النبط من عرب الشمال الذين صمدوا للرومان ومنعوا سيلهم ان يتدفق عـلى بلادهم من نواحي البحر الميت ! وقيل ان هذا البرج آخر ما تبقى من آثار السادوميين والعموريين وان ارواح هؤلاء تظهر على شرفاته واطنافه اذا جثم الليل ، ثم لاتلبث ان تترع الافق باصوات ينكرها من سمع ، ففي هذا العالم الذاهل يعيش نفتالي ويستريح واما من هم اصدقاؤه فاشباح لياليه العامرات بالحزن والبكاء الحافلات بذكريات السادوميين والعموريين، من اين يأكل نفتالي وشطآن هذه البحر عارية ماحلة ؟

لقد كان التعس يخرج من البرج عند كل صباح فيقف على جدة البحر ليلتقط السمك الذي يقذفه التيار من نهر الاردن حياً الى هذه المياه الملعونة فاذا قلبه في يديه الفاه في قسوة الصخر كأنما قد حنطه القار والملح ! ومع هذا كله يستسيغ نفتالي هذا السمك الهالك ولا يطرحه لأنه طعامه الذي اقسر عليه ، ولا يعرف هـــذا التعس الخبز الا مرة واحدة في الاسبوع وذلك حينما تمر القوافل بهذه الشواطيء في طريقها الى بلاد العرب او في انحدارها الى سفوح الاردن !

وقد حاول نفتالي ان يخلص من هذا المنفى ففكر في الموت ، وكان تفكيره صحيحاً ففي ذات صباح خرج التعس من البرج الى البحر وطفق يتأمل في مائه المنساب بين شاطئين تحيط بهما جلامد واصلاد مقفرة فلذ الارتماء في لججه الراغية المزبدة على الرغم من هذا القار الاصهب الذي يطفو عليها وعلى الرغم من سوائل كان نفتالي يفتش عن مأتاها ومنبعها فلا يظفر بامنيته ثم يردها الى الله ويخالها صورة لغضبه على المترفين من عباده وكان التعس في غنى عن التأمل في الخام البشع الذي

ستنتهي اليه حياته القاسية ؛ فمشى الى الماء وغاص الى ركبته في لجته البيضاء ، ثم لم يعد في ميسوره ان يمشي فقد كان الماء ثقيلا فنزع الى اغراق نفسه وتمدد على الماء فلم يغرق وظل عائماً فلما حاول ان يلقي برأسه الى اللجة ظل عائمـــاً واحس حرارة الماء ولذعه في جسده وفي فمه . فطفق يصرخ صراخ الألم ، وكان الشاطيء مقفراً فلم يسمع صوته غير هذه الجلامد الشاحبة الناصلة وغير هذا الأفق الذي يمور بضياء الشمس !

وكان طالعه ميمونا فلم يتجاوز رمال الشاطيء الذي يلثمه الماء فاستطاع بعد عناء شديد ان يفلت من هذه السوائل الراغية المزبدة وعاد الى البرج وقد زهد في الموت في ابشع صوره

ولم يكن نفتالي اول من فكر في هذه الميتة ، واول من اخفق فيها ، فلقد سبقه الى هذه الفكرة الامبراطور تيطوس ، اذ غضب على بعض عبيده فاحاطهم بالحديد ورمى بهم الى لجج هذا البحر الملعون فعاموا ولم يغرقوا !

ولما ماتت في صدر نفتالي فكرة الموت ؛ انتعشت عنده فكرة الحياة ففكر في الافلات من هذه المشاهد البشعة ! وفي ذات مساء وقف والد بنيامينا على كثب من الرمل في تلك القفرة القائمة الى شرقي البحر واخذ ينظر الى المسافات والمفازات لعله يجد طريقه الى النجاة من عيشة ممضة مرهقة ، فصافحت عيناه خطاً رائعاً من الخضرة يتمايد ويرعش في الافق البعيد وقد كان امراً غريباً ان يمتد هذا الخط في وسط هذا المنفى الموحش المقفر ذي الاصلاد الرمادية الكابية لينتهي الى ذلك الساحل الراعب!

ولكن نفتالي لم يكن غريباً عن هذه الاماكن وكان يعرف مقاصير الطرق فيها فلا تفوته ممراتها وشعابها فلما ترائت له هذه المخاضر من بعيد صاح وافرحة النفس هذا هو الاردن !

نعم لقد كان ذلك الطائف الاخضر الذى ابصره نفتالي ماء الاردن ، انسال بين صفين متقابلين من بواسق الشجر ليصب ماءه في البحر الميت !

وصاح نفتالي كرة اخرى هذا هو الاردن ، ثم شجي وبكى ورق لذكرى ابنته وزوجه وازمع ان يهجر منفاه ليعود الى تلك الارض التي احبها ولو كلفه الرجوع اليها الموت احراقاعلى مرأى من سكان الجليل ثم نحدر عن الكثيب وسار في طريق يدفع الى ذلك الطائف الاخضر الذي استهواه من بعيد

وكان كلما اوغل في سيره تراءت جداول الماء ثرثارة موارة على الرمل والحصى فيتمهل في سيره لينظر اليها متطامناً كأنها باكورة البشائر في وصوله الى ذلك النهر الذي انبثقت على ضفافه الكاسية العاشبة احلام النبيين والرسل ثم يستأنف سيره غير ناصب ولا مكدود ، وفي قلبه القريح صورة لابنته وصورة لزوجه !

وكان يتدفق في سيره كالمجنون فيمر بالمشاهد فلا يمسها ولا يفطن الى مروره بها حتى سرت على جبينه نسمات ندية بعطر الخزامى والنعناع والزنبق فاستفاق من ذهلته وتلفت ذات اليمين وذات الشمال فرأى الاجمات والغياض وقد تشابك فيها اللوز والصفصاف والرمان والزيتون وغنت العصافير على الادواح ورأى الاردن يشق المخاضر ليفتح طريق البحر الميت امام زبده الاصفر فيختلط هـذا الرحيق السلسل بذعاف البحر الميت ! سنة الاردن منذ نشأته الى نهاية العالم

ولما رفت الوان هذه المخاضر في عيني نفتالي ولثمت جبينه اعراف المساء شعر باول تحيات الوطن لابنه الطريد الشريد فركم واخذ يصلي على ذلك الاديم الذي احبته السماء !

وكانت صلاته المؤثرة مصدر هذا العزاء الذي شعر به بعد تلك الليالي الجاهمة التي سلخها في ارض المنفى تخطف على جبينه ضياء من امل ورقت تصوراته فمـا عادت تلك التصورات الهائلة الرهيبة ، ثم حرك شفتيه وقبل هذه الارض المباركة وكان الاردن يجري دافقاً هادراً فانحنى على ضفته الوارفة واخذ بكفه شيئاً من مائه فشربه وغسل جبينه وشعر وهو يريق الماء على وجهه انه في تلك الارض القديمة التي حباها الله الحب والموادعة والرفق فلا يحمل به وقد فتحت ذراعيهـا له بعد

امعانه في التيه ان يطل عليها بالحزن واليأس والخوف والشك

وبغتة جعل نفتالي يبتسم واخذت ملامحه تهدأ كأن هذا الماء الذي باركه المسيح ابن مريم والنبيون من قبله قد رده انسانا جديداً او كأن هذا النهر الذي ما برح منذ الاف السنين يمر بالارض المقدسة ليجعل منهـــا جنة عدن قد اخصب نفسه بالامل والفرح فطوى بغضه وحزنه وآلامه وامضى الليل كله عند جدة النهر يأكل من ثمراته واعنابه

وفي مساء اليوم التالي انحى نفتالي ناحية بلاد الجليل وكان لزاماً عليه ان يسلخ اياماً في طوافه قبل وصوله الى الناصرة فمر بارض اليهودية ، واستراح فيهـــا ، ثم استأنف سيره الى السامرية وفي السامرية عرف نفتالي نبأ موت زوجه فبكاها احر بكاء ، ثم واصل سيره الى بلاد الجليل فاظلته بواسق جبل ثابور في الناصرة ، وفي هذه المدينه شهد عيد الفصح ، ثم مضى في طوافه بارض الجليل وهو يسأل الفلاحين عن رجل اسمه نفتالي كان يعيش في سالفات الايام في هذه الارض فاخبره هؤلاء بموت نفتالي على شواطيء البحر الميت ، فما احزنه هذا النبأ الكاذب بل استراح اليه وادرك ان في ميسوره ان يسأل عن ذوي نفتالي من غير ان يحمل الذين يسألهم على الشك في امره وما دام نفتالي الميت قد نسيه الناس ففي وسع نفتالي الحي ان يطل عليهم وان يتحدث اليهم كما يحب ويهوى !

وفي مجدلة عرف نفتالي من النساء اللواتي اعتدن الذهاب الى العين عند كل مساء كيف عاشت زوجه قبل موتها ، وعرف اسماء عشاقها . ثم لم يفته ان يعلم اشيـاء كثيرة عن حياة ابنته بنيامينا التي تعيش في طبريا عيشة لا تشرف نفتالي ولا تمجد حياته

وكان الذين يقصون عليه هذه الاقاصيص يلاحظون هذه السحب التي تظلل وجهه ويرون قروحا على ذلك الوجه فتهزهم هذه الصور الكامدة ولكنهم لا يسألون نفتالي عن مبعثها كأن الزمن البعيد قد انساهم قصته وكأن النسيـان قد حبب اليهم ان يهتموا لامورهم قبل ان يهتموا لمصائر الاسرة التي خلفهـــا للالم

والعار بعد مضيه الى المنفى.

وقد كان طبيعياً ان يتجلد نفتالي وان لا يحزن مخافة ان يفضح الحزن امره فيعرفه الناس جميعاً ، ويتهافت عليه بعيدهم وقريبهم ليروا ما فعل به النفي والالم او ليدل بعضهم عامل قيصر على المنفي العائد فيرده الى شواطيء ذلك البحر الذي تسايلت سمومه على حواشي الافق وعلى اديم الارض فماتت الحيوان والنبات والانسان !

على ان مشهد نفتالي كان مشهداً حافزاً فتصدق الناس عليه وهم لا يعرفون امره واعطوه قوتاً ولباساً ، وحباه بعضهم قليلا من المال فعـــاف مجدلة وجاء طبريا يتجسس خبر ابنته حظية الفيلارك يوليوس وخليلة اكثر من رجل !

الفصل التاسع
في الحلم

والآن يقف نفتالي التعس حيال المقعد الحجري لينظر الى خيال الابنة الغاشية الذاهلة ، ويتجسس اثر القبلة التي تركها آخر العشاق المعاميد على شفتيها ! وقد نسي الرأفة التي تسربت الى روحه ساعة اطل من منفاه على نهر الاردن ونسي الحب والموادعة وعاد اليه جنونه ويأسه والمه ! حتى لقد هم بقتل ابنته وهي تحلم ! بل لقد اشبه نفتالي العائد في ثورته وطغيانه وهو جد قريب من المقعد الحجري ومن القصر والبحيرة نفتالي المنفي في ثورته وطغيانه وهو جد قريب من جلامد المنفى واصلاده في اقل من القليل لمس التعس مخازي حياته ، وشعر بالاهانة التي حملها العدو الاجنبي الى بيته وفراشه ! وفي اقل من القليل نسي نفتالي مهد تلك الطفلة الغالية ، ونسي الصورة الفاتنة التي ضحك لها وضحكت له ونسي القبلات الحارة التي كانت الطفلة المرحة الوادعة تتهافت بها على جبينه وعلى خديه ، ثم على شعوره ، ونسي كذلك رقص الصغيرة على ركبتيه ، ونسي الكلمات العذاب والاحاديث المعسولة ، والاقاصيص الساذجة المتواضعة يستمع لها وهي تخرج من فم الطفولة ولكن نفتالي مع هذا كله ظل ذاكراً عاره وآلامه في ذلك المنفى الذي تعسافه الضواري . فازمع قتل فتاته وهي نائمة ثم هو يلقي بجسدها الى البحيرة ، ويذهب الى الفيلارك يوليوس فيقتله . ويقتل نفسه !

وكانت صورته البشعة صورة هذا الجحيم الذي يفور في نفسه فانحنى على المقعد فظلل جسمه جسد بنيامينا ثم مد يديه الى ذلك العنق الابيض وقد نذر ان يميت بنيامينا خنقاً وفي تلك الفينة اضاء القمر نواحي الاجمة الصغيرة ، فغسلت انواره الازهار والاشجار كما غسلت جبين بنيامينا وعينيها وعنقها ، وتحت هذا الضياء

الباهر تنشق نفتالي عرف بنيامينا وشهد صدرها العاري ، وعينها السادرتين الذاهلتين وشعرها المرسل ! وقدميها الرقيقتين الناعمتين ، ويديها البضتين فجحظ الى الساحرة النائمة ، من غير ان يشد على عنقها ، كأنما هو يريد ان يتملى من فتونها قبل ان يميتها تلك الميتة التي تخيرها لها

وبغتة رعش ذلك الجسد الهامد ، فرعشت الحياة في تينك الشفتين الحمراوين فتفتحتا كما تتفتح البراعم ثم تمايد القلب وخفق ، وغمرت ذلك الجسد الراكد الوان زاهية ، واخذ الهمس يتعالى على ذلك الفم المعطر فانصت نفتالي لصوت الحياة وكانت اول كلمات الساحرة النائمة :

— اعطني القبلة التي احب ! وغني لذيذ النغم

وكانت النبرات حلوة صافية فلم يستطع ذلك الرجل الذي نشر ظل الموت على ابنته ان يمنع نفسه حلاوة هذه النبرات وانسجامها فذهب بوعيه وحسه وعقله الى ناحية بنيامينا ويداه لا تزالان ممدودتين الى عنقها ، ثم غشيه ذهول شديد ، ثم استفاق من ذهوله على صوت بنيامينا

— لقد حلمت ياحبيبي اجمل حلم ، فرأيتني اطوف البحيرة على زورقي ورأيتك الى جانبي في حاشية من صحاب احبوا ان يقاسموك مفارح العشية ! فلما تركنا الزورق على الشاطيء واحتوتنا الجنات الحاليات بالرمان والنارنج والبرتقال ، رحنا الى الافياء والادواح فاظلتنا مجتمعين ، كما اظلتنا متفرقين ، وفي هذه الساعة اصغيت اليك فاذا يدك تهز اوتارك واذا ذلك الشعر المهذب الذي استمعته في ليالي الماضيات يطفر من هذه الاوتار طائراً الى الماء المنسدر على الشاطيء فاخذت اسارق صواحبي النظر فاذاهن يحسدنني ، بل لقد تسرقت همسهن فعلمت من هذا الهمس انهن قد تبرمن بهذه الحياة التي امضيها بين ذراعيك المشرقتين وعلى صدرك الابيض اعطني القبلة التي احب ! اعطني القبلة التي احب »

ورفع اليها وهي نائمة على المقعد شبح كريستيا كأنه لم يركب غارب الزورق

وكأنه لم يبرح الشاطيء فمدت يدها الى ذلك الخيال الهائم وراحت هامسة !

— كريستيا ! لماذا تضن علي بالقبلة التي احب ؛ بل لماذا لاتسمعني صوت قيثارك

وكان صوتها يفيض رقة وعذوبة ، بينما وجهها يفيض حلاوة وسحرا ، ولكن كريستيا لم يسمع صوتها العذب ، ولم ينظر الى جمالها الخالب ، فقد كان في هذه الساعة بعيداً عنها ، وكان يعيش في عالم لا يشبه هذا العالم الذي تعيش فيه ، وكان يسأل الملاح في كثير من الرجاء ان يسرع في التجديف ، فيطوي البحيرة ويستقر على الشاطيء الآخر لعله يبلغ بيته قبل طلوع النهار ويضم الى صدره تلك الفتاة التعسة التي تنتظر رجعاه على وصيد الباب

قالت بنيامينا الذاهلة الغاشية :

— اعطني القبلة التي احب !

وجعلت تردد هذه الكلمة ويدها ممدودة الى ذلك الخيال البعيد ؛ فجوي نفتالي جوى شديداً ؛ حتى لقد اوشك ان يتداعى على الارض لولا لياذه بجوانب المقعد ، وكان حديث القبلة اشد ما آلم هذا الروح المعذب فذكر تلك الليلة التي حملته من المنفى الى هذا القصر ليسأل ابنته القبلة التي يحب ، فابت عليه ان يمس شفتيها ، فتلون وجهه وارعد ، واقبل عليها بذراعيه ثم تراجع على صليل الابواق في الغاب المجاور ! . . .

لقد كان عزيزاً على نفتالي في ذلك الماضي ان يضع شفتيه على شفتي بنيامينا ، ولكن اي مانع يمنعه في الحاضر ان يمس هاتين الشفتين ؟

ان بنيامينا لا تزال تلك المرأة العطشى الى القبل ، وما دامت القبلة الواحدة لم تطفيء هذه الجذوة المتقدة في نفسها ، وما دام كريستيا قد منعها شفتيه وازور عنها فقد صار لزاماً على نفتالي ان يروي ثرى نفسها بالقبل فتعود ريا ندية وتنطفيء نارها الى الابد ! وكان لزاماً على نفتالي ان يقلد كريستيا فيحسن التقليد وهذا هو كل انتقام ذلك الاب الذي حمله المنفى مالا يطيق ومالا يطيقه غيره من الناس ! واذا

كانت قبلة كريستيا قد ملأت نفس بنيامينا قلقاً وسهداً وخوفا واضطرابا واذا كانت شفتا ذلك الساحر الفاتن قد حملت الى شفتي الساحرة الفاتنة رعشة دائمة فان قبلة نفتالي ستملأ نفس بنيامينا سكونا وامنا ودعة وسلاما ونوما طويل الامد وستحمل الى شفتيها في امد واحد ذلك الركود الذي تشتاقه فتهدأ الشفتان الى الابد وعلى هذه الصورة وطن نفتالي العزم على الثأر بجراحه وآلامه وتنكب ان يشد على عنق ابنته ثقة منه ان هذا الموت قد ينهي آلامها وهو الذي يكره ان تكون لهذه الآلام نهاية

...

قالت بنيامينا وهي تضحك لطيف كريستيا في الحلم العذب :

— اعطني القبلة التي احب ! فقلد نفتالي صوت الشاعر وانثنى قائلا :

— قربي شفتيك من شفتي ! وخذي الخمرة التي تلذينها . . . لقد توجدت بك حتى نكرت كل صورة في العالم وحتى اصبحت صورتك شاغلتي ! . . . قربي شفتيك من شفتي واشربي ذلك الرحيق الذي يطفىء سعير نفسك !

وكان صوت نفتالي يخرج رقيقاً ناعماً فلذته بنيامينا ورفعت ذراعيها الى ذلك الخيال الغالي وعيناها لا تزالان مغمضتين ، وجعل نفتالي يتدلف اليها حتى احتواه ذراعاها الممدودتان ، واخذت تدغدغ وهي نائمة شعوره المرسلة كما كانت تدغدغ شعور كريستيا وهي في اليقظة ومع انها كانت تحلم فقد اتيح لنفتالي ان يرى الى حمية الحب في حمرة وجهها وان يبصر ائتلاق الحياة على جبينها ! ثم ان يلمس على شفتيها ذلك العسل الذي اراقه شبابها الضاحك الوارف وكان سكرها شديداً فتمالى همسها واشتد

— قبلني في فمي واملأ نفسي بهذا الشذا الذي ملأ نفسك

ولكن كريستيا لم يكن يشهد تينك العينين الذابلتين ، وتينك الشفتين اللاهبتين وذلك العنق الذي اشبه الورد في لونه واشراقه ، نعم لم يكن كريستيا من شهود هذه

اللا ّلي، التي تخطف على جبين الحبيبة الغالية ليغني الاغنية التي تحبها بنيامينا ، ولكن الذي شهد هذه اللا ّلي، كان ذلك الرجل الذي استعار من صحراء البحر الميت جدب نفسه ومحلها فلم يتخير في مخاطبة النائمة الحالمة غير الالفاظ التي التقطهـــا حزنه وشجوه فقد قال نفتالي :

ـــ اتبحثين عن القبل في فمي ؟ ويلك من هـــو ذلك الذي اضلك وفتنك حتى صور السم لك عسلا فاخذت تفتشين عنه في افواه الافاعي ؟ الا تدرين ان شفتي بابستان مجدبتان ! وانني احمل في قلبي بغضاً لا حباً ! جنبي شفتيك الورديتين قبلة المجذوم فاني اخاف ان تصدأ الحياة في صدرك !

ـــ اواه ! اراك قد بدلت اناشيدك واحلامك مع ان هذه الليلة لم تبدل سحرها وعطرها ؛ ومع ان الحب لا يزال ذلك الحب الذي الف بين روحينا ، وآخى بين جسمينا ؛ ومع ان الملاح الذي اعتاد ان يذهب بنا من شاطيء الى شاطيء لا يزال يدفع بالزورق الى المخاضر التي اظلتنا في صفاء العشيات الماضية ! فمن هو ذلك العدو المقيت الذي اراق السم على فمك حتى ذبلت الشفتان ، من هو ذلك الشيطان الرجيم الذي اوحى الى قلبك بالبغض فجف الزهر في ثرى نفسك وانقلب هشيماً ، كريستيا كريستيا !

قل لي لماذا بدلت انغامك ؟ فصاح نفتالي :

ابتعدي عني واذهبي بسحر عينيك عن عيني فاني لا الذ النظر اليك ، ولا اريدك دانية مني ! ولا احب الاصغاء الى احاديثك ، فلقد تحطم القلب وعز علي ان اجمع بقاياه . نعم انني لا اريدك وذلك لانك تضيئين ويضيء العالم منك ولكن شعاعا واحداً لم يتسرب من هذا النهار الذي يملأ قلبك الى هذا الليل الذي يملأ قلبي !

لقد رأيتك الساعة وانت تحلمين ، ورأيت اي رواء خلعه حلمك على العـــالم فعدت الى نفسي لارى نصيبها من هذا الزخرف الذي تصوغينه في الرؤى اللذيذة فالفيتها لاتزال عارية ! ثم عدت اليك فاوغلت في الليل الذي يخترق قلبك فسمعت

لحيح الافاعي يملأ هذا الليل ! أفكان حلمك الذي صاغه الحب لذلك الحاسد المقيت حتى استبقيت لي البغض

جنبيني هذا الليل الغاسق فاني ارى الهزء يطفو على شفتيك وارى وميض الشهوة في عينيك ثم ارى الى تلك الكبرياء الكاذبة التي تفتش عن مكانها في صدرك

وجعل نفتالي يتدفق في حديثه وهو يبكي فاستفاقت بنيامينا على بكائه نصف استفاقة ولكن عينيهـــا ظلتا سادرتين في الرؤى اللذيذة فلم تبصر تينك الذراعين المشوهتين اللتين تسللتا الى ذراعيها ولم تشهد ذلك الوجه الذي اكلته القروح بل ظلت غائبة عن هذه الصور الكامدة الشاحبة على الرغم من اصغائها الى الكلمات الهائلة!

قالت بنيامينا :

— لقد حدثتك عن تعسي في هذه العشية وقصصت عليك ما احزنك وهاجك ! فما الذي انساك ليالي الموجعات ، وذكرى ايامي المضنيات ، ودمعاً تسايل من عيني فتسايل معه دمع قلبي ! وافرحة النفس ! لقد احسست دموع عينيك في هذه الساعة فاحسست دموع قلبك ، اذن فانت لا تزال ذلك الذي رأيته في طريقي ، ســـاعة اجدبت الطريق من جميع اولئك الذين احببت ، وقد جئت الي لتلطف في نفسي هذا الشجن الذي يقرضها منذ طوى الموت وجه امي الرقيق الناعم ، ومنذ احتوت رمال الصحارى طلعة ابي ، قل لي ان دموعك هذه يا كريستيا كانت وفاء لحزني ووفاء لذكرى امي وابي ! ...

الفصل العاشر

من صور الوطن

اوشك نفتالي ان يتداعى لولا انه اعتمد دعامة المقعد ؛ ولما اطمأنت نفسه انثنى يحدق الى جبين بنيامينا فاذا هو جبينها يوم كانت طفلة في المهد ، واذا هو جبينها يوم كانت تفتش في رأس ابيها عن الشعرة البيضاء ثم تمثلها وهي تتكلم ، فاذا صوتها الذي تسلل الى اذنيه منذ لحظات حلواً سائغاً لا يزال ذلك الصوت الذي تسلل حلواً سائغاً في الماضي البعيد ! بل لقد كان هذا السحر الذي يفيض من عينيها وهي نائمة على المقعد ، نفس ذلك السحر الذي استفاض من عينيها وهي طفلة تمشي مستندة الى جوار المنزل ، او تجر على الارض ! وكذلك قارن نفتالي بين ولع الطفلة بابويها وولع الفتاة بابويها فعثر وهو يقارن بين العهدين عهد الطفولة وعهد الشباب ، على الصور الواحدة والمشاهد الواحدة والمشاعر الواحدة ، اذن فقد كانت بنيامينا حتى في ايام بؤسها وتعسها تحب اسرتها وتحب الى جانب هذه الاسرة اباها وامها ! واذن فقد طوى نفتالي منفاه الأغبر ليشد بيده على عنق الطفلة التي احبها في الماضي!

لقد روعه الجرم وهو لا يزال فكرة ، فتقاصر وانكمش وعشرعشة مااحس مثلها حتى في تلك الليلة التي نظر في فجرها الى المرآة فابصر وجهه قد تقرح ، نعم لقد روعت فكرة الجريمة نفتالي فصرصر وارعد وواري وجهه بكفيه حتى لا يرى الطفلة الغالية ثم تعالى همسه وقد نسي نفسه ونسي الوجود !

— يا لتعسي ! لقد اطفأ البغض نور قلبي ، حتى رحت امد يدي الى عنق ابنتي لاقتلها اشنع قتلة ، وقد كانت يدي تهز مهدها في الليالي المواضي …

وراح ينظر الى ابنته الحالمة كرة اخرى فراعه فتون في عينيها وفتون على جبينها ثم لم يلبث ان عاد رجلا دميعاً وطفق يهمس :

– أكان هذا السم الذي اراقه البغض على فمي من اجلك انت ؛ لا لا ! كان ينبغي لي ان اواري نفسي في الصحراء ، او ادع جسمي يحترق في مياه ذلك البحر فذلك خير لي من ان ابثك غمومي واحمل الى وجهك كل ما على وجهي من قروح وسموم!

ماذا كان يقول الناس عني لو انهم علموا بجرمي ! الا يقول هؤلاء لا يستحق نفتالي رحمة الله لانه ازرى بذلك الحب الاقدس الذي يشعر به الوالدون في العالم فنقل الى ابنته سمومه وآلامه ، ثم الا يصدق هؤلاء ما كان ارجف به المرجف في ماضي البعيد من انني جئت الى صورة المسيح في حرمها الاقدس فازريت بها ؟ بلى سيصدق الناس ما ارجف به المرجف وسيقول هؤلاء : غير كثير على رجل ازرى بصور الاولياء والصالحين ان يقتل ابنته ، وكيف يخاف ذنبه من لم يعرف ربه ! صفحاً يابنيه . صفحاً فقد كنت اقسى والله لانني فكرت في اقسى عقوبة ! . . . بل صفحاً ايها المسيح السيـــد فلقد جرؤ المجرم ان يتخطى ارضاً ولدت فيها وحبستها على الموادعة والحب واردت ناسها ان يلين بعضهم لبعض وان يحب بعضهم بعضا ، ثم اردت الاباء منهم على اتراع نفوسهم باطيب عرف من اطيب زهرة !.

وكان نفتالي مؤمنا . ثم جاء الالم فصقل ايمانه . فما ان حرك شفتيه باسم المسيح حتى تمثل حياة السيد ، وطوافه بارض الجليل ، ودعوته الناس جميعـــاً الى الحب والملاينة والموادعة فنجم الخوف في صدره وازمع ألا يطيل مكثه في الخميلة ، مخافة ان تصدأ هذه الارض المعطرة من انفاسه اللاهبة بل مخافة ان يكون اطلاله عليها بسحنته المشوهة نذير غيم جديد !

وكان اشد مايخافه ان تستفيق بنيامينا من حلمها اللذيذ على مقاذر حياته فيعروها مس شديد ، وهذا ما لا يستطيعه رجل طغت عليه موجة من حنان ورأفة في الليلة التي تخيرها لاراقة الدم الذكي ! ولما لم يكن في ميسوره ان يكافح هذه المخـاوف حبس انفاسه ثم اعرض عن المقعد الحجري في مثل خفة الوميض وراح الى بواسق النارنج فاذا هي قد اغصنت فاستذرى بها ووقف ينظر من خلال الورق الى ذلك

الوجه الرائع الفاتن ، وانه ليحدق الى ذلك الجمال المطمئن الوادع اذا صوت الساحرة السادرة يهمس :

— اي كريستيا ! لقد انجمت السماء ، ونصع لون الافق من فرط الضياء ! وتفاوح زهر النارنج والورد على الشواطيء ، واخذت القوارب تطوف بالمحبين من طبريا الى مجدلة ، ففيم انت لا تغني اغنيتك ؟ وعلى م لا يثير الناس صوت كان يهزهم في الماضي ، وتلا صياح الفتاة الغالية صوت شديد ريعت له نفس نفتالي فتطلع من خلال الورق الى مصدره فاذا على الارض ذلك الجسم الذي اظله قبل لحظات بطيفه الراعب فما فاته منشأ ذلك الصوت ، فقد كانت بنيامينا تتحدث الى كريستيا في الحلم ، وكانت تصوغ في الرؤى عالما يمور بالحب ومتعه فلما مدت يدها الى الحب لتحركه وتستجيشه تمايد جسمها على المقعد ، ثم سقط على ارض الخميلة فكان لسقوطه ذلك الصوت الشديد العنيف الذي سمعه نفتالي ، والآن ماذا يستطيع الرجل التعس ان يفعل ؟ ايمضي الى ابنته ليهديء روعها ؛ فلا تلبثان تطرقها خيالته فتمضي منها جافلة مذعورة ، ام يظل وراء هذه البواسق ينظر الى عذابها من غير ان يستطيع عملا ! لقد آثر ان يسكت فسكت ، ولكن هذا الصمت الذي علق به لم يمنعه ان يفكر وان يتأمل

ولم تذهب به ظنونه وتخيلاته الى ذلك المدى البعيد الذي اعتاد ان يحلق في فضائه . فلقد نهضت بنيامينا على قدميها وسحبت حواشي ثوبها ومشت الى الشاطيء لتنظر الى خطوط الزورق الذي اقل كريستيا الى الشاطيء الآخر كأن تلك السقطة العنيفة لم تفقدها شيئاً من ذلك الرواء الذي اراقه الحب على الرؤى الماتعة ! وكان خيال الزورق لا يزال يبين في زرقه البحيرة فجعلت بنيامينا تسبح !

— كنت احلم يا كريستيا ! وكان حلمي حلواً سائغاً ؛ حتى لقد تمنيت لو ان سحر هذه الليلة يرافق الابد ! الى لقاء قريب يا كريستيا ! الى لقاء قريب ياشاعري ! ثم اخذت تضحك فامتلأ الشاطيء بالضحك ، ولم تشأ ان تبرح مكانها قبل ان

يتوارى ظل الزورق ، وبعد قليل انحت ناحية القصر لجازت عتبـــاته وهي تغني انشودة كريستيا الحلوة . الى ابن تمضين في هذا الليل الاخرس ايتها الحبيبة ؟

وكان نفتالي يصغي لغنائها وهو صامت ، وينظر الى خيالها السادر بين الاشجار الواشجة وهو صامت ، ويتأمل في حاضره الشجي وهو صامت ، ولما توارى طيف الابنة الغالية طغت على نفس نفتالي موجة من فرح ورجاء وراح هامساً :

— لقد منعني الله دمها فمنع ليالي احلامهـــا السود ؛ وجنب فراشي صورة الشهيدة واستبقى لهذه الارض المقدسة روعتها فلم ينشر عليها ظلي الكريه المقيت ! والآن اصبح في وسعك ايها التعس نفتالي ان ترجع الى ذلك المنفى الذي ارادك قيصر عليه فتفيء الى جدبه ومحله وتمضي ما تبقى لك من ايامك فان من الخير لك ايها المشوه المسيخ ومن الخير لابنتك ان تظل ذلك الروح الهائم عـــلى الجلامد الشاحبة في مواب او على الشاطيء المقفر من ذلك البحر الراعب او في تلك المناقب الملتوية المخوفة في جبال النبط اذ ليس يسوغ لك وقد تخيرك الله للألم والتيه في الصحارى ان تعيش هنا في الجنات الحاليات بالنارنج والرمان والاعناب والمـــاء الدافق الهادر والنجيم الضاحك ؛ وذلك لان في صدرك من السموم والغيوم ما يصوح الازهار ويجفف الاثمار ويرجع بالماء العذب آسنا !

وخطر لنفتالي ان يلقي آخر نظرة على ارض الوطن قبل رجعته الى المنفى فعاف مكانه وجاء الى ناحية اخرى من الشاطيء والليل يوشك ان يدبر وقد اخذ الناقس يضرب ناقوسه في بيعة طبريا ايذانا للناس بالصلاة الباكرة فرعش نفتـالي لصوت مهده الاول تهزه يد الناقس على النحاس بل لقد خيل الى نفتـالي ان ذلك الصليل الذي انصت له في البيعة الدانية ما كان غير دعاء الوطن لابنه الطريد الشريد وكان يعرف اي ناحية تملأ هذه الصلاة في نفسه فرق رقة اليمة لذكريات عمره الاول وذكر الاردن الذي قص على بنيه في جريه وتهطاله احسن القصص ولم يمنعهم بره وحبه فتدفق في حقولهم حتى عادت من رحيقه ضاحكة الجنبات زاهرة القسمات !

وكانت اغلى الدموع التي اراقها نفتالي في حياته هي هذه الدموع التي استثارها صليل الناقوس ! ولكنها كانت دموعا حلوة كأن صورة الوطن في محاضره وجناته وشطآنه قد لطفت من ينابيع الدمع في قلبه فسالت من عينيه هادئة صافية !

اي الاماني كانت احب الى نفس نفتالي في هذه الفينـــة ؟ لقد كان من اعذب امانيه ان يركد يأسه وان يخفت صوت آلامه فلا تطل جراحاته من جديد ! فلما لثمت اعراف الوطن جبينه ارتد انسانا جديداً وشعر بحاجته القصوى الى الصلاة فركع على الارض وصلى لوطنه ودعا لابنته ثم نهض على قدميه وطوف نظراته في ارجاء القصر ، في طنوفه وشرفاته وابوابه فلمح خيال ابنته على الطنف وهي تنظر الى البحيرة فبارك الخيال من بعيد ثم غيب نفسه في الشجر فاظلته الادواح والاغصان وبعد لحظات جعل نفتالي يشق طريقه الى منفاه السحيق !

الفصل الحادي عشر

في بيت كريستيا

كان على كريستيا وقد ارسى به الملاح على الشاطيء ان يلقي النظرة الاخيرة على قصر بنيامينا ، ففعل واخذ وهمه يحلق في فضاء ذلك القصر ذي الطنوف المرمرية ' لعل خيال الحبيبة الغالية يبين له فيضحك لفتونه وسحره . ثم يواصل سيره الى ذلك المثوى الذي اعتزله قبل ليال ليستمتع بخيالة سافو ، وكانت حياة السامرية قد الهبت شعوره ، واثارت شجونه فحرص على ألا يسيء الى ذكرى الحبيبة الغالية ، ولما لاح له خيال السامرية من بعيد اخضلت عيناه بالدمع وعرس في مكانه على الشاطيء كأنما هو قد ازمع ان يحمل معه الى مثواه بقية من ذلك العطر الذي اذرته الحبيبة على البحيرة ثم اعرض عن الشاطيء وفي نفسه من عطر الساحرة بقية وطفق يمشي مشية الرجل العربيد

ومع ان ذكريات الحب ومتعه كانت تملأ نفسه فقد ظل حزيناً ملتاعا وظل الخوف من المستقبل الذي ينتظره حافزه الى النفور من كل هذه المشاهد التي عرضت له في ريف طبريا وجبالها وفي هذه الفينة شعر المصور النابه بحاجته الى ذلك المعزي المسلي الذي يلطف احزانه وكان شعوره بالحاجة الى من يعزيه ويسليه شعوراً حقيقياً ولكن كريستيا لم يستطع على الرغم من وضوح المعيته ونبوغه ان يتعرف الى ذلك المسلي فارتد الى نفسه وجعل يسألها عن العالم الذي يشتاقه وذلك لان الشاعر النابه لم يجد في الذين عرفهم من الرفاق والاحبة من يشاطره المه ويقاسمه حزنه . فالناس جميعاً كانوا يريدونه على الغناء وعلى الضحك وكانوا يأنسون الى طلعته ويده تستجيش قيثاره

اذن فقد كان كريستيا في حاجة الى عالم جديد . الى عالم ينصت لهذه النوازع

التي تجيش في نفسه ، الى العالم يستملح مراثيه كما يستملح اغانيه ! وكان يعلم ان تماثيله المصنوعة من اصلاد الجبال هي وحدها التي استملحت مراثيه واغانيه من غير ان تتبرم بها وذلك لان هـــذه الجلامد المنحوته لاتشعر ولا تفكر ولو كانت تشعر وتفكر كما يشعر الناس وكما يفكرون لجفت اغانيه وصدفت عن مراثيه

لقد كان يهمس وهو ينحدر الى جنات الاردن همساً وجيعاً اليماً ثم اخذ يصيح صياحا شديداً « يطلب العالم من الشاعر ان يلين وان يتواضع ، ذلك لان النـاس « يحسدون الشاعر حتى على ثوب بؤسه البالي ؛ فهم يريدونه ان يظل نغمة واحدة « لا معنى لها ثم يريدونه على الضحك اما الشاعر فيريد ان يترع العالم بجميع « الاصوات بالنشيد المؤلم والنشيد اللذ ، اواه ان الناس لا يطيقون كبرياء الشاعر « على حين ليس لهذا العبقري غير ذكائه يسود به العالم »

لقد نكرني الصحاب شاعراً ثم عادوا ينكرونني مصوراً ونحاتا افليس من حقك ياكريستيا وقد ارادك الرفاق ألا تصور العواطف والمشـــاعر في الشعر الرقيق الصريح ان تنقش على الحجارة صورة ارادوا انتزاعها من الشعر ! ولماذا يضيق الناس ذرعا بكوخ الشاعر المثال اليس هذا العـالم الذي اعيش فيه لا يعدو بعض الحجارة وبعض الاصبغة ؛ انا لا اطمع في مجد هراقليوس فان لقيصر اياصوفيا وقصر الشالسيه والملعب الرومـــاني في ميدان اوغستون والبحر والبر ولكني احب عزلتي التي اعيش فيها بين التصاوير والدمى واشباح القرون الماضية ! ففي هذا العالم البارد الذاهل انظم مراثي واصوغ اغاني . . .

وكان يردد هذه الكلمات المضنيات وهو هائم على الذرى والربا وما زال يتدفق في سيره حتى خلف وراءه بحيرة طبريا وحتى تقاصرت الشواطي. فما عاد يبين غير شبح المياه الازرق سادراً حائراً ثم انحى ناحية المخاضر فلم يترفق في ســـيره حتى لثمت اشعة الشمس جبينه على الحدور والمنابت وترامى له من بعيد ماء الاردن جياشاً دافقاً فاطمأن الى خياله ورق لهذه الغلائل البيضاء التي يريقها الموج على

الحقول بين سلسلتين متقابلتين من جبال خضراء بلون الزمرد وكانت الحدور التي وطئها الشاعر لم تفقد ذلك الرواء الذي تسلل اليها من آماد بعيدة واحقاب سالفة فظلت ريا بعطر الخزامي وشذا النعناع وتكاثف على حواشيها البردى حتى اشبه الاجمة الفيحاء فلما تراءت هذه المنابت للشاعر النابه صفق بيديه لمعتكفه الهادىء قبل ان تصافح عيناه جنباته وشرفاته وقبل ان يرى الى مساربه وابوابه وكان لا معدى له عن الانسلال الى هذه الحدور الرقيقة الغلائل ليصل الى مثواه فاوغل في سيره فظللته بواسق الشجر ومست جبينه المرتفع ادواح من الشمرة طيبة العرف وكان مسلاه في رجعته الى معتكفه الهادىء حداء الراعي في التلال المجاورة وخفق عصاه على الجلامد وتيه اسرابه على الذرى الكاسية وجريه في اثرها ، ثم ثغاء هذه الاسراب وحومانها على الماء الدافق الهادر !

ولم يكن كريستيا غريباً عن هذه الارض ، بل كانت له بها صلة قديمة فظل ماضياً في صعوده وانحداره في غير تعب ولا ملل حتى سلخ بعض الطريق وحتى استوقفه دفق الماء وانسلاله بين غلائل من البردى والحور والصفصاف فكان من امتع اماني كريستيا وقد احتوته ارض شجراء ان يجلس الى صخرة نابيه ثم يحدق الى مثواه البعيد ويصغي الى تغاريد العصافير او الى ثرثرة الينابيع التي اخذت تشق طريقها الى النهر الجائش الثائر .

وكم كان حلواً على قلب كريستيا وهو منتبذ مكانه على الصخرة ان يضحك لمشهد البلابل الطافرة من الغصون الفيحاء الى الارض الزهراء كأنها تريد ان تنهي على الاديم الرطب ما بدأت به من الاناشيد والتغاريد على غوارب الادواح !

وفي الحق كان حومان البلابل على قدمي الشاعر في ذلك المكان الذي استراح اليه اول العهد بالعزاء الذي يشتاقه فانسته التغاريد الحلوة الصافية اشعاره الباكية فتنفس وشعر بالراحة ولذ ان يطوي هذه الغابات والمروج ويتنشق الاعراف الذكية ثم يستقر على ضفة الاردن ويغسل قدميه بمائه السلسل ثم يعود الى

نفسه فيراها قد حسرت عن انسان جديد !

ولما ارخى قدميه الى النهر وطغى الموج عليهما لألأ الفرح في عينيه واحس القوة والعافية والشباب وخطف على وجهه نور من الرحمة والحب والموادعة كأن نفسه قد تكشفت عن ذلك الانسان الجديد وكأن السرحة الغيبــاء بجانب الدار التي احبها واولع بها قد ردت اليه مرحه وانسه وكان ينبغي له ان يسلخ بعض النهار في اختراق هذه الحدور والطواف حول الغياض والغدران ثم يواصل سيره في السفوح فيطويها ، ويصعد الى وادي الاردن الاعلى ليستقبل اجمل واحة عرفها الانسان منذ خلق الله الانسان وعلمه البيان !

وعلى الرغم من سهده وقلقه في الليالي المضنيات الموجعات استأنف الشاعر طوافه فمر بمآلف الرعاة المهجورة حيث اجراس الينابيع تفيض في الافق كما يفيض الغناء العذب في كل سمع وحيث اشجار البلوط تظلل الطريق وحيث ازهار الزعرور والرمان تبدو بيضاء كالنجوم

وكانت نفسه مفتوحة دواماً لشذا الزهر في الجبل ولهذا العطر الذي ينبعث من الاديم كأن بلاد الجليل من حالقها الى مبسوطها قد احبت تكريمه فجاءت اليه بكل ندي طري من الازاهر !

وانه ليعدو في الحقول وفي الحدور والتلال اذا خيــال بيته يلوح له في شعفة الجبل الحادرة فمضى بوعيه وحسه الى ملعبه الهادىء وروعه هذا الصمت العميق الذي يحفه من كل جانب وخيل اليه اكثر من مرة انه عن كثب من قفر عافية لولا هدير الماء في المغائر المجاورة ولولا حداء الراعي في الشعاف القريبة !

وكان لا معدى له عن تسور حائط احدى المغائر القديمة ليرقى الى شعفة الجبل ويدخل بيته الذي احب من اخصر الطرق فركب الحائط في كثير من الرفق والتؤدة وأمل ان يطل عليه خيال سافو من بعيد فيتهافت على هذا الخيال الغــالي بالقبل المعسولة ويسأل الفتاة الضحوك كيف امضت لياليها في هذا المثوى الذي يعيش مع الطبيعة لا مع الناس !

وكان اول شيء استرعى تأملات الشاعر في المكان الظليل النامي ذلك الطلل الباقي الذي كان بطرس الرسول يفيء اليه عند كل مساء مع صائدي السمك ولا يبرح هذا الطلل الدارس اول معالم الطريق المؤدية الى منزل الشاعر ثم تتالت المشاهد امام عيني كريستيا وشهد بواسق الرمان وقد راحت متدلية على صفحات الماء فدله هذا كله على انه قريب من منسكه فطار وهمه الى سافو حتى لقد هم بان يناديها لعلها تخرج اليه وترافقه في طوافه :

ولم تكن هذه الاماكن الحافلة بالخضرة وطن كريستيا الذي ولد فيه بل كانت وطن عبقريته وملتقى احلامه في هذه الشواطيء الحادرة انبثق ايمانه بالنصرانية وعلى هذه الحدور الضاحكة اورف جنونه بالسامرية وفي هذه المغاور التي فزع اليها الرسل والنبيون تفتحت ازهـــار العبقرية في نفسه فعبد الى جانب المسيح وثنية الاغريق بني ابيه !

لقد رأى النهر ، واستمع لدفقه ، ورأى المخاضر ولذ هذا الرواء الذي يخطف عليها ورأى الرعاة فشاقته اشباحهم على الجلامد والاصلاد ، ثم رأى المغارة التي حملت اليه اول تحيات بيته ورأى الحور والصفصاف والرمان والنارنج وبريق الاشعة على الذرى والشعاف والاوديه وافتتن بموكب الشمس ، وراعه هذا الحلم الذي اراقه الصباح على الكائنات ، رأى هذا كله ولذ هذا كله ولكنه لم ير شبح سافو فاين هي فتاته ، ولماذا لم تخرج الى لقائه كما كانت تفعل في الايام المواضي ! لعلها مدنفة عانية او لعل دنفها قد طغى عليها فما عادت تستطيع ان تجفو فراشها فلصقت به وهي اشد ما تكون قلقاً على مصير كريستيا

« اما كان ينبغي لك ان تهجر مكان الشهوة لتبقى عن كثب من الاخت الغالية ، اراك قد تماديت في ضلالك يا كريستيا حتى انساك تماديك ذلك السرير الذي يرعش عليه المرض والالم .

ومع ان فمه كان يهمس بهذه الكلمات فقد ظلت عيناه سادرتين في الافق البعيد

وظل خيال سافو يطالعه فجعل ينادي الفتاة اللعوب :

— سافو ! سافو !

ولكن صوته الراجف لم يهز سافو ولم يحفزها الى موافاته في نصف الطريق فاشتد في ركضه لعله يصاقب الدار فيرى الى سافو وهي على وصيد الباب ويلقي بنفسه الى ذراعيها وينسى آلام حياته !

فيم هذا اليأس الذي يغالب نفسه ؟ ولماذا هو ينظر الى الاشياء والى المشاهد بعينين ذاهلتين سادرتين ؟ فقد تكون سافو مدنفة عليلة وقد تكون صحيحة سليمة وقد تكون نائمة على سريرها في ذلك الفراش المحموم وقد تكون في الخمائل المجاورة التي اعتادت ان تفيء اليها وهي احسن ما تكون حالا واهدأ ما تكون بالا اذن فقد وجب على كريستيا ان يتنكب طريقه الى الدار وان يمضي الى الخمائل الريا ليبحث عن سافو بين الظلال والاعناب

ولكن خواطره لم تهدأ عند هذه الناحية فطاف به وهمه اشق مطاف وحمله هذا الوهم الحافز الى ظنون يغاير بعضها بعضاً فتوهم غارة اللصوص على منزله وانتزاعهم سافو من حجرتها ثم توهم قيصر ثائراً عليه لمسارته وثنية القدماء وتوهمه يلقي القول الى فيلارك بلاد الجليل فيذهب هذا مع حاشية من الجند الى بيت كريستيا فلا يجده بل يجد الدار تطفح بانصاب حرمها البطريرك ومنعها قيصر فيلقي بها بن النوافذ الى النهر الصاخب الثائر . ثم يجوس خلال الغرف باحثاً عن ذلك المجرم الذي جوز البطريرك احراقه فيرى سافو الحزينة الملتاعة فيبهره جمالها الرائع ثم يرجع بها الى قصره ليجعلها في جملة صواحبه وخليلاته !

وكانت اوهامه قد بلغت به آخر المدى . فوضع يده على جبينه فاذا هو يتندى بعرق شديد ثم وضع يده على قلبه فاذا هو يطفح بخفق شديد ؛ فارتد الى نفسه وتأملها ملياً فاذا هي نفس الجبان الرعديد !

ثم رأى انه قد افرط كثيراً في سبحه وان اوهامه وهواجسه انما هي حصاد

لياليه المليئة باشبــــاح النزع المترعة بذكريات الالم ، نعم ان عصر هراقليوس هو الذي خلق هذه الليالي واترعها بالصور والاشباح ، وسوغ محاربة الصور ومطاردة التماثيل ، كما سوغ محاربة الشعر والشعراء ، وجوز قتل النصراني لان في نصرانيته على ما يرى وعلى ما يرى البطريرك بعض ما يتنـافى مع ميوله وميول البطريرك ، وليس بالامر البعيد ان يجيء حصاد هذا العصر ما يخافه كريستيا ؛ ولكن كريستيا الذي اراده الله ان يعيش في عصر هراقليوس كان احب الناس الى قلوب الناس وكان رفاقه واصدقاؤه كل هذا الشعب الكبير الذي وثق النصرانيـــة في العالم وارسخ آداب الاغريق في جميع نواحيه . فلو ان قيصر فكر في ايذاء كريستيا لما رأى من يطيع له امراً

وعلى هذه الصورة تنكب كريستيا اوهامه واحلامه ثم تنكب طريقه الى منزله الى ضفة النهر ليبحث عن سافو بين بواسق الصفصاف وبواسق الحور ؛

وكانت الشمس قد لألأت على الذرى والحدور والمنابت وترقرق خيال الجبال على صفحات الموج الرقيق الناعم واستفاض في الافق الازرق اريج فواح من الغابات المجاورة وكشفت البيوت والمنازل عن النساء والفتيات تخرج فريق الى العيون وراح فريق الى المقابر ورأى كريستيا هذه الجموع الزاخرة فزرف اليها كأنه يريد ان يبحث عن ضالته فيها او كأن عرف سافو قد خالط اعراف الفتيات السواحر

وكانت النسوة قد انحين ناحية المقـــابر تجرى كريستيا في اثرهن وعلى جبينه ظل رقيق من شحوب والم وكن يحملن في ايديهن بعض الازاهر فلما شهدن كريستيا عرفنه فصحن : اهذا انت ؟ لماذا لا نرى سافو الى جانبك ؟

وقالت امرأة من صواحب سافو :

لقد انسته السامرية اخته الحنون ... وقالت امرأة اخرى :

— الا ترين الى عينيه كيف بدلها الهم ؟ وقالت ثالثة :

— كانت صورته مثار فتنة وافتتان في البلد فصارت مثار نفرة والم ، وهذا

لعمري هو مصير الرجل الذي تقصيه الشهرة عن واجباته . . .

وكان كريستيا يعرفهن جميعاً ، بل لقد كان الشاعر النابه في ماضيات ايامه يضحك اضحكهن ويجلس بقربهن على ضفاف الاردن فيرشقن وجهه بالازهار ويسلينه باقاصيص تسرقنها من افواه العجائز او عرفنها في حياتهن ثم يسألنه ملحفات ان يغني بعض اغانيه فلا يمتنع عن مسايرتهن في الذي اردنه وكانت بين هذه الكواعب الاتراب فتاة في السابعة عشرة سنة اسمها سمعانة وكانت احب بنات الجليل الى سافو فلما رأت كريستيا وسمعت احاديث صويحباتها عنه طفرت الى الشاعر كما تطفر الوردة من كمها وجاءت اليه فطوقته بذراعيها وقالت له مازحة :

ــ لماذا لا تحبني يا كريستيا ، بل لماذا لا يمحو خيالي في نفسك خيال السامرية وشعر كريستيا بسحر هذه الكلمات ، كما شعر بسحر تلك النظرات ولكنه كان في غرق فلم ينظر الى زرقة في عيني الحسناء كانت اصفى من زرقة البحر واسمى من زرقة البنفسج وقد كان في وسعه ان ينظر الى هاتين العينين فينسى هواجسه المؤلمة وينبثق في نفسه حلم جديد !

وجاءت فتاة اخرى الى كريستيا فقالت له بلغة رقيقة :

ــ كانت شفتاك حمراوين فعادتا شاحبتين ؛ وكانت عيناك تبعثان في النفس السحر والسكر فعادتا مطفأتين ؟

وجاءت اليه فتاة لم تر عين الى اجمل منها في بنات حواء وكانت قد استحيت من خفة سمعانة التي اخذته بين ذراعيها ولم يرقها طيش الفتاة الاخرى التي تحدثت اليه عن الجمال والهوى فتقدمت منه وقالت له وعيناها تنظران الى الارض :

ــ افاتك يا كريستيا ان الناس يعيدون اليوم عيد الموتى وانه لا يليق بالفتى الذي احب امه اشد الحب ان يمنع قبرها في صباح هذا اليوم من نضرة الازاهر !

وقد كانت هذه الكلمات كافية لاثارة احزان كريستيا من جديد فتلفت الى الفتيات الثلاث اللواتي زرفن اليه من بين ذلك الجمع المتهافت على مقابر القرية فعرف سمعانة

رفيقة سافو وهي فتاة كانت تراه في بعض الاحايين يتسلق الصخر الواعر فتسأله ان يتنكب هذه الفعلة خشية ان تزل به القدم فيسقط الى الوادي وكانت الثانية ممن شهدن كريستيا على شاطيء بحيرة طبريا وممن سألنه بعض السمك الذي اصطاده اما الثالثة فقد كانت من بنات الضواحي المجاورة وكانت تشكو علة في الصدر فذهبت في ذات مساء الى كنيسة القرية لتصلي امام صورة العذراء فرآها كريستيا ورأته فلذ جمالها الشاحب ولذت جماله الرائع ولكنها استحيت ان تكلمه في الحب واستحيا ان يسألها معنى هذا الوجوم الذي تحسه كلما رأته في البيعة او في الطريق !

فلما اذكرته هذه الفتاة الحسناء عيد الموتى ، واذكرته امه خجل ان تبصره القرية عزوفا عن المقابر وخاف ان يفطن الناس الى نضوب يده من الازاهر ، وهو الذي احب امه وعرفه الناس بره بها ، ولكنه لم يعرف كيف يستغفر الناس عن هفوته فظل صامتاً من الحيرة ولم يعد في وسعه ان يحدث السائلة الحسناء فحنى رأسه وانتحى ناحية المقابر !

وقد كان طبيعياً ان يوقظ سكوته ريب الصدور ، وان يلتاع صواحب سافو على الفتاة الغالية ، ثم ان يخفن عليها الموت ، وإلا فما معنى هذا الوجوم البادي على وجه الاخ الحبيب ؟ وفي مثل خفة البرق جرى اسم سافو على الافواه ، ثم اخترق سمع كريستيا فرعش ووقر في ذهنه ان سافو لفظت الروح على سريرهـــا في تلك الحجرة المظلمة الباردة المملوءة بالدمى والتماثيل فلم يفطن احد لموتها ولم تبسط يد اليها لتطبق اجفانها في الساعة الاخيرة ! ومع ان احتمال هذا الموت قد اخشع كريستيا فقد ظلت كلمات الفتاة حافزه الى ذلك الرمس الذي آوت امه اليه فلم يفكـــر في الرجوع الى منزله ليرى الى الجثة الباردة ! . . .

وبغتة رفع لكريستيا الهائم السادر صليب كبير من الخشب قام على ذروة عالية تطل على الاردن فجهم وجهه واذكره الصليب اي جسد ينام تحته ، بل لقد اذكره الصليب سيرة الام الفاضلة التي تحملت آلام النزع في كثير من الصبر والجلد ثم

اهدأها الموت فهدأت الابتسامة على شفتيها كأنها لم تتعذب ولم تتألم !

وجعل يحدق الى الصليب والى خيال يطفو حوله ، فعرف القبر وعرف زائر القبر . وكان الصليب الذي رأى صليباً رفعه بيده على الرمس ونقش على خشبته هذا الاسم البسيط المتواضع « مياندر » وذلك كان اسم امه فانه لم يشأ الى ذلك العهد ان يذكر اسم الاسرة الى جانب اسم الام ! اما الخيال الذي عرفه الشاعر فقد كان خيال الاخت الغالية ، خيال سافو التي اخذت ساعة اطل تخلع ظلا من الزهر على خشبة الصليب

وكانت سافو قد سمعت اصوات الفتيات ؛ وسمعت اسم كريستيا وهو يجري على السنتهن ، فنهضت على قدميها واخذت تنظر ويدها على صليب القبر الى الجموع الزارقة لترى فيها الى صورة الرجل الذي انتظرت رجعاه على وصيد الباب في غضون ثلاث ليال فاذا الشاعر يسير في طليعة الموكب الى ناحية المقابر فعرفته من لباسه الابيض ومن شعره المرسل على كتفيه فنادته من بعيد :

— كريستيا ! كريستيا !

وكان الصوت رقيقاً ناعماً فتمايد الشاعر من الفرح وترك حسان القرية واخترق المقبرة وراح فاتحاً ذراعيه لسافو التي تهافتت عليه باكية ؛ ثم ركع على ركبتيه امام ذلك الرمس الغالي وطفق يصلي صلاته الهامسة وعيناه تتأملان في الرياحين التي جمعتها سافو من جنات الاردن فلمح بينها زهرة طيبة الشذا احب الناهون القدماء من الاغريق عطرها ولذوا شحوبها فآثروا ان تظلل قبورهم بعد الموت ، وبلغ من ولعهم بهذه الزهرة ان اقاصيصهم واشعارهم جاءت حافلة بذكرها . واسم هذه الزهرة التي يضرب لونها الى زرقة شاحبة في لغة الاغريق فوسترا فلما ابصرها كريستيا على القبر انحنى عليها ولثمها في كثير من الخشوع ، ثم لم تلبث هذه الزهرة ان جددت في نفسه ذكرى الالام الرقيقة الثاوية تحت الجلامد فشجيت نفسه وعاذ بالصلاة كرة اخرى وبعد قليل شخص الشاعر الى مثواه ترافقه سافو ولما احتواه ذلك الوكر الذي احبه

جلس الى جانب سافو واخذ يديها بينما عيناه تتأملان عينيها وقال لها :

— اكنت تنتظرين معادي ؟

— نعم فاين كنت يا كريستيا ؟

— كنت على شاطىء طبريا ، ثم صعدت الجبل لارى لعاب الشمس وهو يراق على الماء

— اهذا كل ما فعلته في لياليك الطوال

وكان خيال الزهرة التي رآها على قبر امه لا يزال يطفو في نفسه فقال :

— خرجت افتش عن زهرة شاحبة اسمها فوسترا في لغة هوميروس ! اتعلمين ياسافو ان لهذه الريحانة رقة نفسك وان لها الى جانب ذلك ظلامها ! ماذا أيذهلك اني بحثت في الجبال عن زهرة تشبه في شحوبها واظلامها شحوب حياتك وحياتي ناشدتك الله الا يذهلك عملي فاني جريت على سنن القدماء من شعراء الاغريق ومصوريهم فلقد كانت هذه الزهرة احب الرياحين الى هوميروس فكان ابناء الجيل الذي عاش فيه يرونها على صدره وفي بعض الاحايين كانوا يرونها على رأسه ثم امتدت بهم الايام فرأوها على القبر الذي استراح اليه الشاعر وكان فيدياس يحب هذه الزهرة فصور عذاراه وحسانه على احسن صورة ولم ينس ان يضفر على رءوسهن عقوداً من زهرته الفواحة ، ولما مات واحتوته حفرته لم ينس الذين احبوه ان يحيطوا تربته بهذه الزهرة ! وقد كنت انت تعلمين اي حب احمله في صدري لهذه الريحانة لخلعت ظلها الشاحب على قبر امي ...

قالت له وهي تعبث بشعره !

اين امضيت لياليك يا كريستيا ؟ ولماذا يطل السهد من عينيك ويبين الالم على وجهك

فصاح الشاعر :

— امضيت ليالي على ضفاف الاردن وفي جبال طبريا ايتها الغالية فوسترا

— فوسترا ! فوسترا ! لماذا اردت لي هذا الاسم ؟ الم يسمني ابي سافو ، ناشدتك

الله ان تستبقي اسمي الاصيل الجميل !

— أغرب عن ذهنك ان اسم فوسترا هذا كان احب الاسماء الى نفوس شعراء الاغريق من كل اولئك الذين الهبوا حمية الاجداد ، وذلك لانه رمز للالم الشديد العنيف ، وحيث قد تطاغى شجوك ، وبرح بك الالم ، وزخرت حياتك بالصور القاتمة الجاهمة ؛ فقد اردتك على اطراح اسمك القديم لأن اسم فوسترا ادل على حياتك من اسم سافو . وهو رمز الفرح والحب واللهو في لغة آبائي وآبائك

قالت سافو بلغة يخالطها شجن ويأس:

أهذا هو حصادك من طوافك حيال جنات الاردن ؟ اني ارى السهد يطل من عينيك والمح صورة الالم الشديد على جبينك فاي كارثة اثمة هزتك في هذا الصباح الرائق الى الجنون ؟ كريستيا لقد تعبت في البحث عنك ، وكنت اخرج من خدري في كل صباح وعند كل مساء لاقف على مقاصير الطرق واستجدي النـــاس سؤالا طيباً عنك ، ثم امضي الى بيوت الظواهر فاقف على الابواب واسترق الهمس لعلني اسمع اناشيدك او المح خيالك فلا يهزني صوتك ولا يستثيرني خيالك ، فارجع الى الطريق واقف على المسارب لعلني اتسرق نظراتك بين الجماهير واهتف بالذين يمرون بي ويرونني ملتاعة واجمة « من منكم ايها الناس رأى طلعة كريستيا في هذا الصباح او في الليلة الدابرة ؟ » وكنت على ثقة من طغيان شهرتك على الجماهير ، بل كنت على ثقة ان هؤلاء الذين يمضون في الصباح الى الجبال المجاورة ليعودوا في المساء الى مراقدهم لا يجهلون عبقريتك ، وربمـــا ابصرك هؤلآء على حافة الينبوع او في شعفة الجبل ! ولكن واحداً من كل هؤلآء الذين اجتازوا الطريق لم يقل لي انه رأى الشاعر النابه والمثال النابغ ، والمغني البارع ! فطغا خوفي وامتد بي قلقي ، حتى لقد توهمت انك لقيت مصرعك وانت عائد الى مثواك .

وفي ذات عشية وقفت على الطنف انظر الى الاشجار الواشجة لعلني المح خيالا منك بين الادواح ، وشد ما كانت حيرتي حينما تعالى الى اذني صياح الناس فتطاولت

رجاة ان اتعرف الى ما يبعثهم على الصخب فاذا بي ارى سربا من رفاق كريستيا وقد انحى الجميع ناحية هذا المنزل فاذهلني انهم يقتربون من الطنف . وانهم يهتفون باسمك بل لقد اذهلني ألا اراك في هذا الموكب الثائر ، وكدت اكثر من مرة اثب من الطنف لاسأل هؤلاء الذين زرفوا الى منزل الشاعر من كل النواحي اين هو كريستيا ؟ فمنعني ذلك ايغالهم في الصياح ثم احاط الجميع بسرحة الدار فاطللت عليهم فاذا في طليعتهم ذلك الصديق القديم مارسيليوس فلما ابصرني قال لي اين هو كريستيا ، وما باله قد قبع في منزله ونسي روعة العيد ! بل لماذا تغاضى الشاعر النابه عن ذكريات هذا اليوم الرائع فلم يخلدها في قصائده وملاحمه ! لعل كريستيا لا يعلم الى هذا اليوم ان قيصر المنتصر خرج من دمشق قبل ليـــال الى بصرى ناشدتك الله ان توقظي كريستيا اذا كان لا يزال منكمشـاً في سريره فانه من الخير للشاعر ان يقبس من موكب قيصر رواء الفتح ليريقه على شعره ؛ فقلت له ــ ولكن كريستيا لا يعرف شيئاً من هذا الذي تحدثني عنه ولا يزال بعيداً عن وكره

فبهت مارسيليوس وانثنى قائلا : اتعرفين مكانه ياسافو ؛ قلت لا ! قال لعله لا يزال صريع حبه وهواه ! فسكت فامضه سكوتي ، وروعه هذا الخوف الذي يخطف على جبيني فقال لي ناشدتك الله ان تستميلي اخاك الى اطراح حياة العزلة ، فان من احب الاشياء الى نفوس رفاقه ألا يفوت الشاعر النابه كثير او قليل من مجد قيصر ؛ ثم رفع صوته وانثنى قائلا : لقد اجتمع في بصرى عشرون ملكا من ملوك الشام ، ومائة وسبعون من بطاريق الجيوش الظافرة ، ولحق بهؤلاء بطاريك الكنيسة الاربعة ؛ وسيمضي جميع هؤلاء في موكب قيصر الى بيت المقدس !

وكنت استمع اليه ، فلا تستميلني احاديثه عن المجد الى ذلك الرجل الذي اقعدني الخوف عن ترديد اسمه ، وظل مارسيليوس ماضياً في خطبته متحمساً لقيصر حتى مللت حماسته فحاولت الرجوع الى غرفتي وكانت العزلة احب الى نفسي من كل هذه الصور الماجدة التي نثرها مارسيليوس امامي ، وأعترف لك انني ما كنت قادرة على

الافلات من استماع خطبته ، فلقد حدجني ببصر متقد ورماني بنظرات عرفت فيها كبره ونشوته وعنفوانه فبقيت على الطنف واستمر هو في خطبته الرائعة وجعل يصف لي كيف كان قيصر خائر النفس ضائع الامل وكيف اوغل الفرس في الفتوح حتى دانت لهم بلاد الشام ومصر ، ورابطت جيوشهم حيال القسطنطينية

« لقد كان هيراقليوس سيء الحظ منكود الطالع ، واصبح ملكه لا يتعدى « اسوار القسطنطينية وذلك لان جموعا من التاتار والافاريين والهون ومن والاهم « من قبائل البربر قد اخذت توغل فيما يلي عاصمة ملكه فلا يقف في سبيلها احد « ثم اخذت تدب حول ابواب المدينة نفسها . فقبع هراقليوس في قصره وقد « غشيته سحابة داكنة فيئس الناس منه وخيل اليهم ان ذلك الامبراطور العظيم « الذي بلغت به همته الشماء العرش ، قد تعرى من حماسته ، وانه قد استعاض « عن كبره وعنفوانه وشجاعته بالفتور واليأس ، حتى لقد حمله يأسه على استجداء « الصلح من عدوه كسرى فبعث اليه بالهدايا فرفض عظيم الفرس مصالحته ، وقال « كلمته الطائرة الصيت » ان هذا الملك العظيم الذي ينعم به قيصر ما كان لجده « وابيه وانما هو ارث انتزعه مني ؛ على انني نذرت الا اصالحه وليس من سبيل الى « مصالحته قبل ان يأتي الي مستغفراً تائباً ثم قتل رسل الامبراطور العظيم (١) « ومضى في فتوحه فيئس هراقليوس منه وجعل يبكي بكاء الاطفال ، فاثار بكاؤه « حمية البطريرك سرجيوس فحمسه وخرج به الى معبد اياصوفيا في موكب حشد « له رؤساء النصرانية وزعماءها ، وخطبه تحت القبة الكبرى خطبة استثارت حميته « فنضا عنه لباس الرجل الرعديد ، وعاد في اقل من القليل الى ما كان عليه من خلق « الزعيم الغطريف ، واظهر من عنفوان الملوك ما هو خليق باعجاب الناس ثم امدته « الكنيسة باموالها وكنوزها وصلبانها فجعل من هذه الكنوز نقوداً ملأ بها « خزانة الدولة الفارغة ثم انتعل نعلا اسود ودخل الكنيسة الكبرى وراح

(١) تاريخ فتح العرب لمصر للكاتب الانكليزي الفرد جورج بتلر

« جاثياً امام المذبح يسأل الله والعذراء النصر على ذلك الوثني العظيم الذي ازرى
« بالصليب وعبث بالاولياء والصالحين من رجال الكنيسة (١) ولما اراد الخروج
« من البيعة الكبرى عرض له سادنها جرجيوس فقال له : دعائي لك هو ان تعود
« من ميدان القتال مخضوب النعل بدماء عدوك (٢) وكان هذا احر دعاء سمعه
« هراقليوس من فم ذلك القسيس الشجاع ، ثم كان النصر على عدو النصرانية
« ففر كسرى هائماً على وجهه فلقيه عدوه شيرويه فاسره وقتله شر قتـــلة واحرق
« قصره فحصدت النـار كل ما احتواه القصر من كنوز وتحف وطرف ، وسرح
« الاسرى وبينهم ذلك التقي الورع زكريا بطريرك بيت القدس واعيد الصليب
« الكبير الى هراقليوس ، ولم يشأ قيصر ان يرجع الى القسطنطينية بل آثر البقاء
« في ربوع الشام ليشهد بنفسه مهرجان اعلاء الصليب الى جانب الحفلة التي اعدتها
« النصرانية تكريماً للبطريرك زكريا بعد عودته الى كرسيه في بيت القدس » (٣)

افلا يستثير هذا النصر حماسة كريستيا ؟ ان شعراء العـالم قد توافدوا من كل فج عميق لتمجيد ذكرى استرداد الصليب المقدس ! فهل للشاعر النـــابه الذي ردد اغاني هوميروس الوثنية ان يصف لنا في شعره ظفر النصرانية الخالب ... تكلمي يا سافو تكلمي ايتها الفتاة النبيلة ، تكلمي فقلت له بصوت راعش ، ساعيد على سمع كريستيا ما اسمعتني اياه ولم ازد على ذلك حرفا فابتسم مـارسيليوس وقال لي : سيصل هراقليوس بعد ايام الى طبريا فلعل كريستيا تخرج الى لقـائه باعذب اغانيه وارق اشعاره قلت وهو فاعل . . . فقال مارسيليوس سنعود نزلة اخرى الى هذا البيت..

ثم جاءني ضاحكا وشق طريقه الى الاردن فلحق به صحبه وهم ينشدون اناشيدك يا كريستيا

(١) تاريخ فتح العرب لبتلر
(٢) تاريخ فتح العرب لبتلر
(٣) فتح العرب للشام للكاتب الهولاندي جو ج

وكان كريستيا يستمع لها وهو ذاهل وعيناه تنظران الى الارض . فلما وصلت في احاديثها الى وداع مارسيليوس لها ، فتح الشاعر فمه ليتكلم فقالت له : لم افرغ من اقاصيصي بعد فلقد حدثت في خلال ابتعادك عن المنزل حوادث وهن جلدي عن احتمالها حتى لقد هممت بترك الدار لولا بقية حماسة في نفسي . فرفع كريستيا عينيه وقال لها

— ماذا حدث ؟ لقد كنت مذنباً حيالك ، لانني تركتك من غير ان افطن الى هذه الايام المملوءة بالسحب ! ناشدتك الله ان تصفحي عني ... قالت :

« في هذا الصباح طرق الباب علي طارق لجفوت غرفتي وجئت الى مصطبة الدار « لعلني اتبين القادم وقد ظننته انت ! وشد ما كان خوفي حينما رأيتني حيال فتى « عربي يلبس الخز والديباج وكان لا يزال على جواده وقد اعتمد سيفه ونظر الى « سرحة الدار ، فلما رأيته رعشت فما فاته غمي وحزني فقال لي : هوني عليك فلست « رجلا شريراً ، وانما انا رجل سري ، وقد عرفت كريستيا في ماضيات ايامي . « قلت فمن انت : قال فروة بن عمرو الجذامي امير ايلة وعامل قيصر الرومان « على البلاد الممتدة من ايلة الى سيناء ، وكان مظهره يدل على نبل وشهامة ، كما دل « حديثه على صدق وصراحة فاطمأنت نفسي وزال خوفي وقلت له : مــا تريد « الزائر ؟ قال اين هو صاحب الدار ؟ قلت خرج من منزله ولم يرجع اليه الى هذه « الساعة قال : فهل تعلمين متى يؤوب ؟ قلت لعله يؤوب في هذا المساء ! قال اذن « تخبريه بامري وقولي له انني منطلق في هذا الصباح الى بصرى للسلام على قيصر ! « وسأعود بعد ليلة الى هذا المنزل ، ثم نظر الى النواحي البعيدة . فتتبعت نظراته « فاذا هنالك في السهل الافيح كوكبة من الفرسان فاجفلت فقال لي هوني عليك فان « هؤلاء الذين ترينهم قومي واسرتي وقد خرجوا معي من ايلة منذ ايام للسلام على « قيصر والذهاب معه الى بيت المقدس لنشهد حفلة اعلاء الصليب ! ... »

وحرت في تعليل هذا الغضب الذي تولاه ساعة ذكر اسم هراقليوس ، ثم عدت الى غرفتي ورميت بنفسي على فراشي وحاولت ان انسى خيال هذا الرجل

فظل نصبه ماثلا امام عيني وظلت كلماته تطفر في سمعي وفي خلدي ، وبقيت ذاكرة له ، وبقيت احاديثه ندية في مسمعي حتى جاء صواحبي فنبهني الى عيد الموتى واردنني على الطواف معهن بمقابر الاحبة ، ففعلت ورحت الى قبر تلك الام الحنون اغسل ترابه الثمين بدمع عيني ودمع قلبي ! وبغتة اطللت علي من بعيدفانساني اطلالك حزنا علق بنفسي خلال ثلاث ليال ، كريستيا ،كريستيا اتعرف هذا الفتى الذي جاء يسألني عنك ؟ فاغمض الشـــاعر عينيه ، وعاد الى سبحه وشروده كأنه ينزع الى الاتصال بماضيه الذاهب ، وكأنه يفتش في دوارس هذا المـاضي عن صورة هذا الفتى فروة بن عمرو الجذامي امير ايلة وعامل قيصر الرومان علىمعان وسيناء ثم استفاض نور بهي على جبينه وغشيت شفتيه ابتسامة خفيفة ، فرفع عينيه الى تلك الاخت الغالية وقال لها :

— أكان الرجل يلبس الذهب؟ قالت، نعم وكان زخرف لباسه اشد فتنة من زخرف لباس بطاريق الجيوش الرومـانية . وكان سيفه الذي اعتمده على شكل صليب ، وقد احاطه باللؤلؤ واليواقيت ! ، وكانت كلماته تدل على كبر وعنفوان ؛ كما دلت حركاته واشاراته على مرارة وحزن والتيـاع . قال اني اعرفه ، وقد رأيته في ذات يوم في مأدبا وكنت لذلك العهد قد فرغت منصنع تمثال لاله العرب اللات فراقه مشهد التمثال فتدلف الي وهمس باذني قائلا : امستطيع انت ان تصنع لي تمثالا من المرمر لكبير من كبـار اسرتي فقلت بلى ! قال اذن فاجلني الى ايام معدودة . قلت ستجدني طوع امرك ، قال فاين مكانك ؟ قلت عند شـــاطيء الاردن بجوار طبريا ، فال سأزورك في يوم لا اسميه لك ! ثم انصرف ومضيت في سبيلي وانا في ذهلة من امره ، وسكت كريستيا قليلا ثم اخذ بيده يدي سـافو وانثنى قائلا :

— متى يعود امير ايلة ؟ قالت ربما عاد من بصرى فيصباح الغد ؟ قال سأنتظر رجعاه هنا على وصيد الباب ! أقال لك انه يكره هراقليوس ! قالت لا ، ولـكني

رأيت على جبينه كدرة مخوفة ساعة مرت بعينيه صورة قيصر وهو يتحدث عنه فهمس كريستيا همساً اليماً وقال :

— ان العالم كله يشاركني في الحقد على قيصر ، لو كان مارسيليوس هنا لقلت له انك مخطئ في تمجيد هراقليوس فان هذا الرجل على الرغم من انتصاره على عدو النصرانية لا يستحق حبي ، امشاركتي انت في بغضي ! . . قالت :

— نعم ، نعم ، فاني ما نسيت ابي ولا يزال طيفه يمر بنفسي فيثير احزانهـــا ومخاوفها واحقادها قال : سيعلم مارسيليوس عما قليل ان اغاني قد ذابت على شفتي وان البغض وحده هو الذي يحرك قيثارتي فلا يطمعن في تمجيد هذا النصر الذي استهواه وإماله الى اكبار القاتل السفاح

وجعل كريستيا يهمس بكلمات غامضة ، وقد تلون وجهه وغارت عيناه واقرس برد الخوف يده فاحست سافو بلذع هذا القر الذي تولاه وغشيه فقالت : الا عد الى فراشك ونم قليلا فان من الخير لنفسك ان تهدأ وان تنسى حديث مارسيليوس عن هراقليوس ! . . . ثم احاطته بذراعيها فانساق اليها كالطفل فمشت به الى فراشه وهو يعثر في مشيه ؛ ولما لاح له سريره الخشبي في زاوية الحجرة رمى بنفسه عليه وبكى احر بكاء فوقفت سافو حياله تهدهد آلامه واوجاعه .



الفصل الثاني عشر

بصرى عاصمة غسان

بصرى ذات العمد والتماثيل والاقواس تضحك وتغني ؛ بصرى وريثة ستة عصور ماجدة من حياة اولئك المنشئين المبدعين من عرب النبط ومعان : الظافرة بميراث زينب الزباء في تدمر تضحك وتغني ، بصرى ملتقى العبقريات الثلاث ، عبقرية الرومان ، وعبقرية اليونان ، وعبقرية غسان تضحك وتغني ، بصرى هذه المدينة الخالدة الساهرة على قبور الذادة المغاوير من ملوك الشام تضحك وتغني ، ثم ترفع صوتها بالضحك والغناء فتضحك لضحكها وتغني لغنائها هذه النصرانية التي نضرها عيسى بن مريم ووثقها الحارث بن جبلة ؛ وتميد من كبر واستعلاء لانها غسلت عارها وصانت وقارها وانتصرت على جيوش الوثنية في معـــارك ظللت نجومها وشموسها الساطعة سلائل الرومان كما ظللت سلائل آل غسان

في صباح اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة اثنتين وعشرين وستمائة تعالى صوت البوق في دير ماريه ذات القرطين فهز ترجيعه الغطاريف الكماة في القصور المجاورة فخفوا اسرتهم وعاذوا برماحهم وسيوفهم ونهدوا الى مقاصير الطرق لتحية قيصر العائد من قتال الفرس !

وفي هذا الصباح الماتع انبعث الملك العربي الحارث بن ابي شمر من قصره الى خارج المدينة على رأس حاشية من ابناء ابيه فزهت الخيول بفرسانها وراحت تترع الفضاء بصليل اختلط عصفه بعزيف الابواق وحداء الفرسان !

وفي هذا الصباح المضيء تفتحت التخوم المجاورة للاردن وعمان ودمشق فكشفت عن فروة بن عمرو الجذامي فيلارك معان وامير ايلة تلتف به حاشية من الفرسان ثم لم يلبث فروة ان لحق بالملك الحارث ليستقبل قيصر على ابواب بصرى

بعد ان استثار حمية الذين رأوه على جواده الابيض وبعد ان حرك جماله شعور النساء اللواتي جئن بازهار اليرموك لينثرنها على هامة هراقليوس

لقد كان كل شيء في المدينة العظيمة يغني ويضحك في هذا الصبـــاح المشرق النواحي فمن اين توافت هذه النشوة الى روح بصرى ؟

لم تكن عاصمة ملوك الغساسنة غريبة عن المجد : بلى كانت مولودته الحبيبة ، وطفلته الغالية ، في القرن الثاني قبل الميلاد غزاها عرب النبط بثقافتهم وحضارتهم فاصبحت عاصمتهم الثانية ، وفي زمن الحارث الثـالث ملك النبط اورقت الفنون العربية في بصرى واستطالت افنانها حتى اظلت حوران مبسوطه وحالقه ، فتناسى العالم القديم الذي شهد روائع الفن العربي النبطي جمال الفن العجيب الذي طلعت به دمشق على العالم في عصور القياصرة ، بل ان مدينة دمشق فقدت شيئاً كثيراً من فتونها وجمالها منذ حمل عرب النبط الى بصرى النضر ما ولدته القرائح والافهام في القرون التي تقدمت مولد النصرانية وبعثها .

ولما استطال الرومان على النبط وطمسوا معالم دولتهم الباذخة فطنوا الى عظمة بصرى فجعلوا منها عاصمة لبلاد الشام ، وكانت الحضـارة النبطية قد بهرت هؤلاء الذين عمروا الدنيا فاعمتهم الغيرة وأبت كبرياؤهم الا ان تقوم آثارهم وفنونهم الى جانب اثار النبط وفنونهم ومنهذه الغيرة التي الهبت شعور الرومان ولدت قصور بصرى وملاعبها وهيا كلها وبيعها وتحاسينها !

وفي عصر تراجان اصبحت بصرى عاصمة للولاية العربية الرومانية الممتدة من ايلة الى ابواب دمشق ، ثم انقلبت الى ايالة رومانية في زمن اسكندر سيفر ، ثم استردت مجدها السليب في زمنالامبراطور فيليب العربي الذيولد في قريةمتواضعة من قرى حوران ولم تنسه روما وطنه الاول فاحاطه بالرعاية والحب ، وجعل من احدى مدنه عاصمة بلاد الشام

وقد كان ازهى عصور بصرى عصر فيليب العربي ، وروى مؤرخو الرومـان

ان فيليب احب ان يسلب روما مجدها الخالب على الرغم من ان رومـــا فتحت ذراعيها لهذا المغامر الشجاع وكان يحب وطنه على ضؤولة شأن هذا الوطن . فجرد روما من مفاتنها وانتزع من معابدهـــا العمد والاقواس والمرمر البديع الرائع . وبعث بهذا كله الى بصرى وبنى هيكلين عظيمين من مرمر انطاكية الصافي تمجيداً للات والعزى ولجميع الآلهة التي عرفها العرب في بلاد النبط وتدمر قبـــل مولد النصرانية وكان من احب امانيه ان يخاطبه الناس بلغة قومه اعلاء لشأن هذه اللغة التي خلدتها نقوش النبطيين والتدمريين على الحجارة والاصلاد في الاودية الجائشة بالينابيع وفي الجبال الخضلة الحواشي . . .

وفي عصر فيليب العربي ازدهرت حوران ، وحفلت بالمدن العظيمة ، فقامت الى جانب مدينة بصرى مدينة قنواتا (١) الشهيرة بهيكلها الجيل واسواقهـــا ذات العمد المرمرية المجلوبة من بعلبك وانطاكية ، واسوارها الشامخة ، وقصورهـــا وملاعبها ، وبلغت مدينة السويدا المعروفة في القديم بمدينة ماكسيمنا بوليس حداً من الرفعة والمجد لم تبلغـــه مدينة في الشرق فلقد قامت في هذه الدسكرة صروح العبادة والتقشف الى جانب صروح اللهو والحب والمرح ! . . .

زار فيليب قيصر في ذات يوم قرية شهبا مهده ومهد ابيه الذي اورثه عرش روما فاورقت في نفسه ذكريات الطفولة فخلع على شهبا اسمه القيصري فعرفها العالم القديم باسم فيليبو بوليس ولم يشأ فراقها قبل ان يطمئن الى قدرتها على منافسة انطاكية في الروائع الفواتن ولعل اجمل ما اتحف به هذا العربي وطنه الاول ومسفر احلامه في الطفولة اللاهية العابثة هي هذه القصور البيضاء وتلك الحمامات التي حمل اليها الماء من شقوق الجبال البعيدة ، وهذه الهياكل التي لا تزال مثار اعجاب السياح الى هذا العصر ،

في القرن الخامس والقرن السادس افاض الذكاء العربي على حوران ما افاضه

(١) مدينة القنوات اليوم

الذكاء الروماني فغصت المدن والقرى والدساكر بقصور الغساسنة وصروحهم وكنائسهم وقرأ الناس على هذه الطرف الخالدة اسماء قياصرة العرب الجدد الذين كانوا اشد غيرة على ميراث الاجداد ممن تقدموهم من قياصرة الرومان وكانت هذه الاسماء الجليلة التي اقتبسها الغساسنة من اسلافهم ملوك النبط مثاراً لكبرياء الشعب العربي في بواديه وحواضره فلذ العائدون من وطنهم القديم في جزيرة العرب الى ارض الشام ان يقرءوا على المرمر والرخام والبرفير اسم الحارث الثالث النبطي فاتح دمشق منقوشاً الى جانب اسم الحارث بن جبلة الغساني والهب شعورهم القومي ان تضيء هذه الاعلام العربية على الصروح والعمد والبيع بجانب اسماء قياصرة الرومان كارك اورل وسبتيم سيفر وانطوان التقي وكانت قلوبهم تخفق كلما صافحت عيونهم دير ماريه الغسانية واعمدة دير بحيرا وطنوف قصر المنذر الرابع عن كثب من الهياكل والصروح والمعابد التي بناها القياصرة تخليداً لارباب الرومان !

من هذا الماضي المشترك بين الرومان والنبط والغساسنة قبست بصرى خماستها في اليوم الخامس عشر من شهر ايار . ومن هذا المحصول الثمين الذي اشتركت فيه عبقريات الرومان والبيزنطيين والعرب ولدت هذه النشوة ثم اختلط عنفوان الحاضر بعنفوان الماضي وضاعف النصر الذي اجتنى العرب الغســـاسنة قطوفه في الملاحم الثائرة على كسرى في جمال ذلك الماضي فتفتحت ابواب بصرى الاربعة وتهافت منها على الملعب الروماني بطاريق ايلة ومعان والاردن وامراء الجولان واليرموك ودمشق وحمص وحماه وانطاكيه

وفي اليوم الخامس عشر من ايار سمع الناس لغة الرومان ولغة العرب معاً ، وكانت لغة الرومان لغة العابثين اللاهين المولعين بالجديد ، كما كانت لغة العرب لغة الناس الحريصين على القديم ، وذلك لان الرومان قد حببوا لغتهم الى الناس جميعاً ؛ فلذ سحرها بطاريك الجيش وبطاريق الكنيسة ؛ وليس بالامر الغريب ان يستمريء الناس جميعاً سحر لغة اراقت مفاتنها على الفنون والاداب ، وخلعت جمالها على البيع

والقصور والمعابد ! وتبسطت في كل ناحية من نواحي الفكر والذكاء واينع حصادها، حتى لذ الناس قطافه !

لم تكن لغة الرومان وحدها تستميل النفوس، بل كانت الالقاب الرومانية تفعل فعلها في عقول الناس ومشاعرهم وقديماً استمال الرومان اذينة صاحب تدمر اليهم بما افاءوا عليه وعلى رجال اسرته من النعوت والالقاب (١) فطغت شهرته وبعد صيته. وحسده اصدقاؤه كما حسده اعداؤه ثم لعبت الالقاب الفخمة في عصر يوستنانيوس دورها الخطر وظلت نافذة السحر الى عصر هراقليوس الذي لم يضن على احلافه من شيوخ البادية وغطاريفها بالقاب السمو والرفعة

• • •

لما قرب موكب هراقليوس من بصرى خرج الى لقائه حنظلة كونت مقاطعة الجولان وزياد فيلارك مقاطعة اليرموك وامرؤ القيس دوق غزة والبحر الميت والاصبغ بن عامر الكلبي فيلارك دومة الجندل واكيدر النصراني فيلارك كندة وغطريف دومة العراق وشرحبيل بن عمرو الغساني امير عمان وكونت الاردن(٢) وكان جميع هؤلاء يلبسون البرد الرومانية

قد يبرع القصاص في تصوير موكب من المواكب وقد يحذق المصور البارع تقليد الصور الاصلية؛ ولكن القصاص مهما كان بارعا في الوصف فلن يقدر له ان يبرع في تصوير جلال موكب قيصر وكذلك المصور فلقد جاز المتغلب على كسرى سور المدينة في حاشية عظيمة من الفرسان على خيول يخطف الذهب على سروجها ويضيء اللؤلؤ والمرجان والعقيق على ملابس اصحابها واخذ جميع هؤلاء يلوحون براياتهم في الهواء ويهتفون لقيصر ولبيزنطية هتافا اودعوه هذه النشوة التي اقتبسوها من ملاحم ابتسمت لهم وتجهمت لعدوهم

ولما صاقب الموكب دير ماريه ذات القرطين راحت يد النـــاقس تشد على

---

(١)و(٢) كتاب الدولة النبطية وبطرا لكارمر

الناقوس شدواً حلواً رقيقاً فاستثار جرسه حمية الشيوخ والنساء والاطفال وانثنت عيون هؤلاء الذين جفوا مرابعهم ومنازلهم في الاماكن القصية البعيدة تغمر وجوه الفرسان بنظرات رقيقة حلوة وكان الاساقفة قد نهدوا من صوامعهم الى لقاء قيصر وفي ايديهم الاناجيل ومجامر البخور الذهبية جريا على تقاليد الرومان في مهرجاناتهم واحتفالاتهم وقد سار في اثرهم شيوخ دمشق وشيوخ حمص وما زال هذا الموكب القيصري يتسع وينمو حتى اقبل بطريرك بيت المقدس زكريا فترجل قيصر عن جواده وتهافت على البطريرك يوسعه عناقا وتقبيلا وفي تلك الاثناء رفع البطريرك يديه الى قيصر فانتبه الناس الى ذلك وراحوا ينظرون الى يديه المرفوعتين الى قيصر الظافر فاذا تانك اليدان تحملان صندوقا من الذهب الابريز فانحنى هراقليوس على الصندوق وجعل يقبله في كثير من الحب والتقى الشديد العنيف ثم فتح البطريرك الصندوق واخرج منه الصليب المقدس، ذلك الصليب الذي انتزعه كسرى من كنيسة بيت المقدس وقفل به عائداً الى بلاده من غير ان يجرؤ على مسه او تحدثه نفســه بالاساءة اليه وقد قيل ان كسرى فكر في انتزاع جواهر الصليب فثناه عن ذلك وهم علق بنفسه وطاف بنواحي شعوره (١) وحسه وقيل ان قسوس النصارى قد نصحوا لكسرى ألا يعرض للصليب بسوء استبقـــاء للملك وحرصاً على مجده فانكمش وتصاغر

لقد جعل قيصر ينظر الى الصليب نظرة الرجل الممسوس الذاهب اللب ثم لم يلبث ان اخذه بيده وطاف به على الجماهير فاما لها الورع والتقى الشديد العنيف الى الدعاء للرجل المنتصر ولما فرغت من الدعاء والصلاة تهافتت على الصليب تتمسح به وتستجديه البركة؛ ثم انحت ناحية البطريرك زكريا وناشدته ان يصلي مها في دير مارية ذات القرطين، فشق البطريرك الصفوف ولحق به الشيوخ والنساء والاطفال ودخل الجميع الى دير ماريه حيث صلى البطريرك وقيصر عــلى الاديم الى جانب

---

(١) فتح مصر لبتلر

الملوك والامراء وبطاريق الجيش في ظل الصليب المقدس !

ولما فرغ البطريرك من الصلاة خرج قيصر الى ملعب بصرى الروماني فالتقى هنالك فروة بن عمرو الجذامي امير ايلة واكيدر الكندي فيلارك دومة العراق والاصبغ بن عامر الكلبي وكان هؤلاء الثلاثة احب فرسان العرب الى قيصر الروم فلقيهم هراقليوس مسلماً مصافحاً ثم التفت الى بطاريق الجيش وبطاريك الكنيسة وقال لهم ويداه تومضان الى اكيدر الكندي :

« كان اكيدر اشجع من رأيت في جميع الملاحم ، شهد كسرى يركب فرسه كأنما هو يستعجل في الفرار فلحق به وجرى في اثره ولم يصحب معه غير نفر قليل من ذويه ، ورأى كسرى فعلة اكيدر فانحى ناحية دجلة يريد ان يغيب نفسه في الماء الدافق الهادر لعله يبلغ الشاطيء المقابل وكانت المطاردة عنيفة فان كثيرين من الذين ارادوا حماية كسرى من زعماء وقادة لم يفهم ما يريده اكيدر فصمدوا له وقسروه على القتال ليفسحوا امام كسرى الذليل المهيض الجناح طريق الفرار فقاتلهم اكيدر قتالا شديداً ولحق بكسرى الى المدائن ! ولكن اكيدر عاد من هذه المعركة موفور الكرامة !

ثم انثنى قيصر الى الاصبغ الكلبي فقال : لقد رأيت هذا الفتى بعيني وهو يضرم النار في ايوان كسرى فلا يثنيه عن فعلته تصدع الجدران وانهيارها تحت قدميه ولا يلويه عن حماسته وفاء الفرس لمليكهم وذبهم عنه واستبسالهم في سبيله وقد ابى الاصبغ ان يعود الى الجيش قبل ان يحسر عن ذلك المكان الخفي الذى خبأ فيه كسرى الصليب فتغلغل في مقاصير الايوان تحت صليل النار التي اكلت الجدر والمقاصير وبعد قليل عاد الينا يحمل بين يديه وديعة الله المقدسة !

وكان هراقليوس يتكلم عن الاصبغ الكلبي وعيناه تنظران الى فروة بن عمرو فلما فرغ من حديثه اراد ان يتكلم عن فروة ويطري شجاعته وحميته فاستوقفه الجذامي وقال له بلغة فخمة عالية :

— لم افعل شيئاً مما فعله هذان ايها المولى ! ... فتبسم قيصر وقال : لست في حاجة الى من يطريك فان اعمالك قد نمت على سلائقك ! فاكفهر جبين الفتى العربي ولكنه لبث صامتاً فلم يفت الناس شيء من هذا الغم الذي تخيفه ساعة اخذ قيصر يتحدث الى رجاله عن حمية الفرسان الثلاثة !

وفي المساء شهد قيصر في ملعب بصرى تمثيل رواية « اوديب الملك » لشاعر اليونان سفوكول ، وكان هراقليوس في مقصورته المحاذية لمقصورة الملك الحارث بن ابي شمر الغساني ولكنه لم يشهد اي غيمة غشيت جبين فروة بن عمرو ، ولو قدر لقيصر الرومان في ذلك المساء ان ينصت لهذه النوازع التي تجيش في نفس ذلك الفتى العربي لتمايد من رعب . ورعش من قلق ، ولكن حظوظه اللامعة التي صحبته في المعارك ابت الا ان تصحبه في هذه الليلة فلذ حمية الناس وابهجه انهم يهتفون له هتافاً عالياً غير ان هذا الحزن الذي طغى على نفس فروة بن عمرو لم يكن بالحادث الذي يجهله رفاق له من قضاعة وعاملة وجذام وطي ، فلقد كان جميع هؤلاء الذين رافقوا حاشية قيصر يعلمون لماذا تغشى الظلمة الراعبة نفس الفتى العربي بينما جميع هؤلاء الذين احتواهم الملعب يتسارون ويتضاحكون

ولما فرغ الممثلون من التمثيل وعاد هراقليوس وحاشيته الى قصر الملك الحارث ابن ابي شمر الغساني وتفرق الامراء والبطاريق كان فروة بن عمرو الجذامي آخر الذين فارقوا الملعب الروماني ، وكان لا يزال واقفاً على بابه الرخامي تحت العمد والقباب ساعة التف به فرسانه فنظر اليهم نظرة مستطيلة ثم اردف بلهجة الرجل المغيظ لقد اعتزمت المضي الى بيت كريستيا المثال فانطلقوا بي اليه في هذه الليلة !...

وكان فروة سيد قومه ، وفتى جيله فما استطاع هؤلاء الفرسان على ضخامة القابهم ان يسألوه لماذا لا يقضي ليله في بصرى عن كثب من قيصر ، وفي خفة البرق المومض انحى فروة ناحية اليرموك تاركا وراءه بصرى وملاعبها وقصورها وآطامها وجواسقها ولحق به فرسانه من غير ان يجرؤ واحد منهم على الهمس .

الفصل الثالث عشر

هواجس

نشر الليل ذوائبه الفاحمة على بصرى واغمض الناس عيونهم من فرط التعب الشديد العنيف الذي تحيفهم في نهار امضوه فرحين مستبشرين ولكن قيصر الرومان لم ينم بل لبث ساهداً ارقا في ذلك الصرح الغساني الذي يتصل عمره الاول بمستهل القرن الرابع وكانت اشجار الخميلة التي تحيط بالقصر تتمايل تحت عصف الهواء وترديده وقد انتشرت في افق القصر غيوم بيضاء من زهر النارنج والاترنج فراحت تصب انفاسها الذكية المتضوعة في اعراف الاوراد الحمراء واخذت ظلال هذه الاوراد تغطي الممرات والاروقة والحنايا كأنها السحب ، فلم يستطع قيصر الذي لبث على شرفة القصر ساهداً ارقا ان يمنع نفسه سحر عشية اختلط صفاؤها بصفاء العيون الصغيرة التي فجرها الغساسنة في احب القصور الى نفوس ملوكهم وامرائهم ومع ان هراقليوس كان يشعر بجهد السياحة فقد احب ألا يفوته بهاء هذه العشية فجعل يقلب نظراته في الاشياء التي تتراءى له تحت ومضات المصابيح الملونة ولكن نظراته لم تستقر عند مشهد من المشاهد فكان من ارضى الاماني الى نفسه ان ينصت لحفيف الورق فاذا مل الاصغاء الى وسوسة الغصون انقلب الى الينابيع يستمع لخرير الماء ثم هو يستمري. ان يطيل التحديق في ذلك الزهر الابيض الذي اشبه الغمام في صفائه ونقائه ، ومع هذا لله فقد كان قيصر يعود الى نفسه فيتوغل في قرارتها فلا يستطيع الاصغاء لنوازعها الكثيرة فقد كان يرمض نفسه ويشجي روحه شبح راعب من مأساة جديدة شهد فصولها في دمشق في الماضي في صباح يوم رائق خرج قيصر من بيعة دمشق في حاشيته الرومانية فما ان جاز باب المدينة حتى رماه رجل بحجر فاحنقه ان يرشقه احد العامة بحجر تحت عيون الحرس فامر بقتله

فكان له ما اراد وصلب الرامي على باب الكنيسة

ومر قيصر بمنزل منفرد يسكنه قروي مع طفليه فلما سمع القروي صدى حوافر الجياد اطل من شرفة المنزل فصالحت عيناه هراقليوس تحت الرايات فعبث بالموكب فامر قيصر باحراقه فاحرق وطفلاه ينظران الى النار باكيين ملتاعين !

وكان شبح هذه المأساة يطوف بنفسه يوم دخل الى بصرى ، فلم ينسه جلال العيد ورونق النصر ذينك القتيلين الشهيدين ؛ بل لقد كانت هذه المأساة الجديدة حافزته الى الماضي ، الى ذلك الماضي البعيد الذي خلع هراقليوس على حوادثه شيئاً كثيراً من ظلمات نفسه ؛ فلما تمثل مصرع ذينك القتيلين البريئين عاد به الخاطر الى حادثة قديمة العهد فذكر انبعاثه الى تشييع جثة زوجه الامبراطورة ايدوكيا الى مقبرة القياصرة في كنيسة الرسل على ذرى القسطنطينية ، وفيما هو على رأس الموكب اذا امرأة تطل من شرفة بيتها على الجنازة ويدهـــا ممدودة الى نعش الهالكة ، فوقف الموكب ، وجعل قيصر ينظر الى المرأة والى يدها الممدودة في ذهلة شديدة ، ولكن تلك المرأة التي اطلت من شرفتها لترى الى نعش المائتة ظلت رابطة الجأش فلم يرهبها قيصر ولم يثنها عن ارادتها طغيان الحرس ، فظلت تحدق في نعش الامبراطورة حتى مر حاملوه حيال منزل المرأة فثارت حميتها وبصقت على التابوت فاحفظ عملهـــا هراقليوس والتفت الى البطريق فابيوس فاراده على قتل هذه المرأة وفي اقل من القليل اخترق سيف البطريق قلب تلك التعسة فهوت وهوت من فمهـــا لعنة ارعد لها هراقليوس وارعش !

كان القتيل الاول يعقوبياً ، وكانت العقوبية ديانة بعض اهل الشام ، كما كانت الارثوذكسية الملكانية ديانة قيصر والرومان ، وقد كان تحمس الرجل لدينه المضطهد المروع حافزاً له الى العبث بسلطان قيصر فرماه بحجر وهو مطمئن الى انه قضى نذراً وعمل واجباً واتم فريضة كان عليه ان يتممها زلفى لعقيدته وتقربا من ربه وكان اعذب حلم لقيصر ان يجمع مذاهب الدولة فبدا له ان الامر يسير اذا هو

اغاظ في القصاص فقتل الرجل وهو عالم انه قد وفى بنذر صحيح للنصرانية التي مجدت فيه بطلها العبقري !

وكان القتيل الثاني ممن حظر عليهم البحث في طبيعة المسيح اذ لا ينبغي له ولا لغيره من جميع الناس ان يبحثوا فيما اذا كانت لذلك الناصري العظيم صفة واحدة ام كانت له صفتان وكانت ارادة قيصر تقضي على الناس جميعاً ان يقروا أن للمسيح ارادة واحدة وقضاء واحداً (١) فلما عرض الرجل للموكب راح هراقليوس يذكر حماسته لمذهبه فقتله اما المرأة التي اطلت من شرفة بيتها لتبصق على تابوت الامبراطورة المكشوف فقد كانت شامية المنبت ، وكان مولدهـــا في دمشق وطن سرجيوس بطريرك القسطنطينية وقد اشتهرت هذه المرأة في بزنطية بشديد كرهها للرومان اعداء وطنها فخظر قيصر عليها الخروج من منزلها فاحنقها ذلك وطفقت تتحين الفرص لغسل ما حسبته تجاوزاً على كرامتها ، فلما عرضت لها الجنازة ، ورأت وجـــه الامبراطورة الشاحب في ذلك النعش المفتوح بصقت عليه ، فكان حصادها من هذه الفعلة ان مزق سيف البطريق صدرها

طافت هذه الذكر الراعبة بنفس هراقليوس فود لو ان مشهد الازاهر في هذه الليلة الصحية يمنع طوافها ولكن هذا الشذا الذي اسكر الافق لم ينسه اشبـــاح موتاه فظلت هذه الاشباح تتراءى له في الاوراد الحمراء حتى خيل اليه ان لونهـــا مقتبس من حمرة تلك الدماء التي اطلها باسم النصرانية فرعش وهو الرجل الصليب الشديد ، وراحت يداه ممسكتين بالعمد المرمرية مخافة ان يتداعى على نفســه بينما عيناه تنظران الى مسيل الماء وبينما احلامه وهواجسه تصور له ثرثرة الماء وعزيف النسمات للطاف الخفاف لحاماً مؤلماً ينبعث من صدور قتلاه !

ولم يكن بالحادث الغريب ان يجمع هراقليوس بين خلق البطل المنافح عن النصرانية ، وبين خلق الرجل الجبان الرعديد ، فلقد كان قيصر في غرائزه وسلائقه

(١) كتاب سورية الحديثة والقديمة للاستاذ جول آدافيد ص ٤٩

طوائف من صور يغاير بعضها بعضا ، بل لقد كان صورة صحيحة للتناقض المتوج (١)
وكانت هذه السلائق المتغايرة المنبع الاول لنهاية امبراطورية عظيمة تعاقب على الامر فيها ملوك ارضوا الله والناس وارضوا الوطن

كان تراجان قيصر حازماً شديداً عنيفاً وكان عنفه يخالطه شيء كثير من الحلم والكياسة والمداراة وكان طيطس مثال الظرف والاناقة والميل الى معاشرة العلماء ومسايرة ذوي الافهام الراجحة وكان مارك اورل فيلسوفا بارعا وشاعراً محتدم الاحساس ، وكان جوليان رضياً متواضعاً ، ثم ولي الامر من بعد هؤلاء جميعاً موريس التقي فاورث تقاه الدولة ضعفاً وهونا واستخذاء ، وجاء فوكاس فجاءت معه الجريمة والخيانة ، ثم ولي الامر هراقليوس فكان في شجاعته ومروءته وعنفوانه من طراز اولئك الرومان القدماء ، ولكنه على شجاعته وعنفوانه كان متردداً !

وكان بطلا في قتاله الفرس وفي صموده لقبائل البربر ، كان وكذلك باراً بالنصرانية حريصاً على تعاليمها اميناً على ماجاء به الرسل ، ولكن بره بهذه الديانة لم يمنعه ان يبطش اشد البطش بذوي البدع الثلاث فحارب اتباع آريوس ونسطوريوس وايتوشيوس بمثل تلك القسوة التي حارب بها وثنية الفرس وجاهلية القبائل البربرية وكان الى جانب هذا كله رخواً طريا تستميله اللذة ، وتسترقه الشهوة فلا يلبث ان تنسيه طراوته حماسة الكمي الغطريف الذي دافع عن النصرانية (٢) اشرف دفاع !

لقد ولدت هذه السلائق النادة المتنافرة عبقرية مضطربة قلقة ، طغت آثارها على العظيم من اعماله ؛ والحقير من فعاله ، فكان يشتد حينا ؛ ويضعف حينا ، بل لقد كان يبدو لعصره رائع الرجولة لا تميله لذة ولا تسترقه شهوة ، ثم لا يلبث ان يسترضي اهواءه فينيم شجاعته على فراش ناعم من ليونة وضعف ! فيهزأ عصره به ويسخر منه

---

(١) فتح العرب لمصر لبتلر

(٢) تاريخ سورية الحديثة والقديمة للاستاذ جول آدافيد ص ٤٩

وكانت المآسي الجاهمة الفاحمة مثاراً لسلائقه ، فقد احرق الفرس مدينة خلقدونية على الشاطيء الاسيوي من القسطنطينية فوقف على شرفة القصر في الشاطيء المقابل للخليج الذهبي واخذت عيناه تنظران الى تصدع القصور وانهيار الهياكل من غير ان تميد نفسه او يضيع كثير او قليل من شعوره ، وعصف الجوع ذات مرة بسكان بزنطية فطار صوابه وانخلع قلبه ومادت نفسه من قهر وغم ، فاعتزم الفرار من عاصمة ملكه ليعيش منزويا محتجزاً في الصحراء الافريقية (١)

اصطنع كبرياءه في قتال الفرس فانتصر ، واصطنع تردده في قتال قبائل البربر وهم اضعف شأنا من الفرس واقل عدداً فاستخذى وتقاصر ، ثم عقد مع الاولين صلحاً شرف النصرانية وحمله الآخرون صلحاً رفع من قدر الوثنية !

وعلى هذه الصورة خسر بالقلم ، ما كان ربحه تحت العلم ، ثم احالته حمية الرومان الى رجل فاطمأن وثبت في قتال كسرى حتى لحق به الى المدائن وها هو الان يفيء الى ارض الشام فتفيء اليه عبقريته القلقة المضطربة . ذلك لأن هذه الارض كانت في مطلع القرن السابع تميد من ظلم الرومان ميداً ، وكان الشاميون الذين قنطوا من استمالة الرومان اليهم يتطلعون بلهفة الى الصحراء لعلهم يرون على صحائف الرمل المسجور ذلك السنى الذي يستشرقون بنوره فلقد ارمض نفوسهم ونبه آلامهم ان تغلو الرومان في العبث بحرياتهم وان يسرق هؤلاء الذين عمروا الدنيا في شبابهم الاول حظوظهم واقدارهم ! ...

---

(١) تاريخ سورية الحديثة والقديمة للاستاذ جول دافيد ص٤٩

الفصل الرابع عشر

صليل الناقوس

لم يلبث هراقليوس على شرفة القصر الا قليلا حتى عاف هذا المغنى الى جنته الزاهية الضاحكة وتسرب الى سرادق منعزل التفت به المصاطب ذات العمد ثم جلس الى مقعد من الرخام يشرف على مسيل ماء وكان في قدرته وهو في مكانه على المقعد الرخامي ان يرى الى بصرى مجتمعة لديه . فاذا امال رأسه الى ناحية الشرق او الى ناحية الغرب بدت له مقاصير الطرق المؤدية الى صلخد واذرعات ولاحت له الابواب المرمرية التي زينها الرومان بالصور والنقوش ، واذا تلفت الى القلب بدت له اقواس النصر وقد تبسقت وتطاولت حول القصور البيضـاء واذا ادار عينيه الى ناحية الشمال انتصب امامه سهل دمشق الغني وتراءى له بردى السادر في البطائح والغدران القائمة الى شرق المدينة العظيمة

وكان في قعدته على الرخام اشد ما يكون انكماشا وحزنا على ان هذا الشجن البليغ الذي خلع ظله الشاحب على حياة قيصر لم يمس عنفوانه فظل انفه المستطيل على شموخه وبقي جبينه العريض على اشراقه واستبقى فمه حمرته الزاهية واستفاضت شعوره البيضاء على منكبيه كأنها تاج من اللؤلؤ ، وكان في شبابه العاتي اجمل فتيان عصره وجيله وظل في شيخوخته مستبقياً جماله على كثرة آلام هذه الشيخوخة واشجانها

لقد ظل عزوفا عن روائع الربيع ، فلم تفتنه الوان المخاضر . وذلك لانه كان قد جاز صباح الحياة الماتع الدافيء الى ليله الصارد فمنع عينيه روعة الالوان الزاهرة كما منع اذنيه لذة الاناشيد الساحرة ولولا هذا القبس الذي يضيء بعض نواحي نفسه والذي استعاره من معاركه الظافرة لكان لزاما عليه ان يسبح في ليل لا صباح له !

اذن فقد كانت انتصاراته الاخيرة مبعث هذه الحلاوة الطـاغية على نظراته

ومنشأ هذا الظل البهي الذي يحمس شيخوخته

وكانت يده تتجسس العمد وعينــاه تطوفان جميع نواحي الافق ، ثم استقرت نظراته السادرة الحائرة على ذلك الدير العظيم الذي رفعته غسان تكريماً لذكرى «اريه ذات القرطين ام الملوك الصيد وجدة الامراء المساعير ، والليل الى هذا يوشك ان يدبر وقد اخذت خيوط الفجر تضيء على القناطر والحنايا فاسترعى تأملاته ناقوس الدير العظيم ورأى سربا من الطير يتمرغ على نحاسه فلذه المشهد وابهجه ان يعشش صغار الطير على النحاس ، وانه لغارق في تأملاته اذا ذلك الناقوس الهائل الضخم يهتز ويتمايل واذا يد النــاقس تخفقه خفقاً حلواً سائغاً تحت ظلال ناعمة من غيم رقيق ندي ! فاشجى نفسه صليل الجرس وخيل اليه ان الناقس يدعو الناس الى صلاة الصبح ولكن شيئاً مما امله لم يتحقق فلقد ظل الناس يغطون في نومهم ، فلم يهزهم الصليل الى الصلاة وظلت يد الناقس ماضية في الخفق ؛ وظلت يد قيصر تتجسس العمد المرمرية .

سأل هراقليوس نفسه لماذا لم يخرج الناس الى الصلاة ! وكان مؤمنا فازمع ان يمضي الى الدير ليصلي صلاة الصبح ويستمع لصوت الجرس ولكنه لم يستطع ان يجد تفسيراً لصدوف الناس عن الصلاة ولم يجرؤ على فراق مكانه على مصطبة القصر

وفي تلك الاثناء خرق اذنيه حداء مؤثر ! حداء بعيد ماثل في مستهله همس الماء وترجيعه ثم لم يلبث ان تكامل فاذا هو غناء شجي لجمل يبحث عن مصدره ومأتاه وقويت رغبته في التعرف الى الحداة وبغتة صالحت عيناه طريق صلخد فانكشفت له على جوانبها الصهاريج العظيمة التي اقامها النبط من قديم ثم جدد الرومان بناءها في القرن الرابع لأرواء القوافل القادمه من جزيرة العرب ، ثم شهــد على ضوء الصباح طيوف الابل وقد حامت حيال الصهاريج ورأى رجال الصحراء يملئون حقائبهم ماء فاستهواه مشهد الابل كما استهواه حومانها على المــاء وطرب لوجود الاعراب على ابواب المدينة وافتتن من جديد باغانيهم على الرغم من جهله لغة البادية

لقد كان الرومان على شديد ولعهم بفتح الامصار وتدويخ البلدان من اولع شعوب الدنيا بالاعمار والانشاء وكان يشجعهم كثيراً ألا يكون نصيب الشام من وفرة السكان عظيما فحملوا عرب البادية على الهجرة من منابتهم الاولى الى الجنوب والشمال وانشأوا الحصون والقلاع على التخوم لا لمنع عرب البادية من التسرب الى الشام بل لتشجيع هجرة هؤلاء اليه رجاة ان يستبحر سكان البلد الشامي وقديماً استمال الرومان الى هذه الهجرة طوائف عظيمة من عرب البادية فزهدوا في الرمال المحرقة وانتشروا ما بين حوران والاردن والجولان

ولم يلبث هؤلاء الاعراب ان لذوا حياة الحقل في وطنهم الجديد فساووا الرومان في الاعمار والانشاء ، ولم يفت اساتذتهم الاذكياء جدوى هذه الهجرة فنشطوا الى انشاء الطرق وكان اعظم هذه الطرق التي اتاحت لجزيرة العرب حرية التبسط في اراضي الشام ، تلك الطريق العظيمة التي انشأها الامبراطور تراجان ووثق بها ما بين البحر الاحمر وبصرى مخترقة عمان ثم استأنف الرومان اعمالهم فاقاموا طريقاً توصل ما بين بصرى واذرعات ثم هي تمتد من بصرى الى دمشق ولهذه فروع تتشعب من ضاحية اليرموك بطريق اذرعات وبصرى ثم هي تمتد الى مشارف العراق (١)

لقد جاز قيصر في ماضيات ايامه هذه الطرقات ، وطاف باليرموك والاردن ولم تذهله عظمة بصرى وروائعها عن المضي الى صلخد ليشهد بعينيه ذلك البيت المتواضع الذي ولد فيه فيليب الاب وفيليب الابن (٢) ليذهبا فيما بعد الى روما ويلبسا ارجوان القياصرة ، ويحكما الدنيا باسم وطنهما الصغير وليس من شك في ان هراقليوس كان يخاف طريق صلخد اكثر مما يخاف الطرق الاخرى ، وذلك لان الصحراء لقيت صبابتها في هذه الطريق فطفقت ترسل ابناءها الى بصرى فيلبس بعض هؤلاء

---

(١) تاريخ العرب في سورية قبل الاسلام لرينه ديسو

(٢) تاريخ بطرا والانباط للعلامة كامرر ص ٢٦٨

ارجوان القياصرة في روما ، او يذهب بعضهم الى بزنطية فيجلس على عرش البطريرك فلما حطت القوافل رحالها في هذا الصباح حيال الصهاريج تلون جبين قيصر واحس قاهر الفرس انكماشاً لم يفطن الى معانيه وربما طافت بخاطره في هذه الساعة احداث الماضي فخشي ان تحسر هذه القوافل عن قيصر عربي جديد يقاسمه مجده او يقسره على التخلي عن ارثه ! وقد يكون قيصر محقاً في شعوره بالانكماش فلقد استفاضت من جزيرة العرب نذر لم يأنس الرومان اليها وكان اروع هذه النذر قيام نبي عربي بالدعوة الى منافحة الرومان في وادي القرى وفي الضواحي المجاورة لايلة !

وفي تلك الفينة اخذت يد الناقس تخفق الناقوس فتمايد ذلك الجسم النحاسي على ضخامته واستفاض منه صليل عنيف تراكض رجال القوافل على جرسه الى ناحية الدير وشهد قيصر بعينيه كيف تسارع الرهبان الى فتح بابه لجازه من رجال القوافل واحد وعاد رفاقه الى الصهاريج بينما اخذ ذلك الصليل العنيف يتضاءل ويفنى في غيوم الصباح !

وكان الرجل الذي جاز فناء الدير في موعة العمر فشهد هراقليوس على خيوط الفجر الصفراء سمرة جبينه ورأى وميض عينيه ولم يفته شيء من بساطة ثيـــابه ؛ ولما احتوى الدير الرجل التي بسلاحه الى سادنه وحياه بالعربية فرد السادن على تحيته بلغة العرب وسأله عن مصدره فقال من يثرب وقد جئت برسالة الى قيصر ! فتبسم الراهب واردف : ممن هذه الرسالة قال من محمـــد بن عبد الله نبي العرب فرعش الراهب وقال : امستطيع انت ان تحسر لي عن معنى هذه الرســالة ؟ قال لا فلقد ارادني صاحبها على المضي بها الى قيصر وقد بعث بمثلها الى الملك الحارث بن ابي شمر الغساني والى صاحب الاسكندرية عامل قيصر على مصر ، ثم الى النجاشي ملك الحبشة ، ثم الى كسرى عظيم الفرس ، قال ما اسمك قال دحية بن خليفة الكلبي ! قال على الرحب والسعة نزولك بدير مارية ! ولم يزد على حديثه شيئاً ، بل افسح الطريق امام الرسول فتقدمه الى داخل الدير

وكان شيوخ العرب ورؤساؤهم ينزلون بالاديرة ضيوفا على احبار النصرانية فتقرع لهم النواقيس وتفتح الابواب (١) اما ملوك العرب وغطاريفهم فكانوا ينزلون ضيوفا على قصور الغساسنة

ولم يفت قيصر كثير او قليل من اعياء الرجل ؛ وان كان لم يعقل شيئاً من حديثه ، فظل ينظر اليه حتى توارى ظله خلف عمد الدير المرمرية والناقوس لايبرح عصافافي الافق فما عاد لقيصر جلد على الاصغاء اليه فعاف مكانه على المصطبة وارتاد خميلة القصر وتغلغل في كثيف الاشجار حتى اقترب من مسيل الماء فجلس على مقعد من الحجارة الحمراء حيال تمثال من الرخام يمثل الملكة مارية ذات القرطين وراح يتأمل في وهمه وخياله صورة ذلك الرجل العربي الذي تحدث الى سادن الدير بلغة عالية فخمة ان فات قيصر معناها فلم يفته كبرها وزهوها ، وقد امتلأت عينا هراقليوس غما وحزنا فشعر بالحاجة الى رفيق يهدهد آلام نفسه ولكن هذا الرفيق الذي اراده في هذه العزلة لم يكن بعيداً ، فلقد وجده في جرس الدير الصاخب الثائر وبعد قليل هدأت ثورة الناقوس في دير ماريه وتلا صمته المستطيل دعاء القسوس والرهبان . فلطفت هذه الصلاة المتواضعة من اشجان هراقليوس فنسي صورة الرجل بل لقد نسي تلك الذكريات القديمة التي هاجمته قبل لحظات وانبعثت منها ثلاث صور لثلاثة من الشهداء اباح قتلهم لانهم لم يساوقوه في عقيدته ولم يجاروه في ايمانه على ان مقامه بالخميلة لم يطل فعاف مكانه على مسيل الماء وانقلب الى حجرته في القصر ، ورمى بنفسه على سريره الذهبي ، وراحت عيناه تنظران الى صورة معلقة على الحائط تمثل السيد المسيح في طفولته . ففي هذه الصورة الماجده التي تمثل عمر المسيح الاول وجد هراقليوس ذلك العزاء الذي يشتاقه فسكنت نفسه واغمض عينيه ولكن خياله ظل يطفو على الحائط .

---

(١) فتح العرب لمصر لجورج بتلر

الفصل الخامس عشر

عمر بن الخطاب

كان راهب الدير عربياً من متنصرة كندة العراق وكان يعرف بمالك الورع ، وقد احبه العرب الذين الفوا الانتداء الى بصرى لحسن في خلقه واحسان في عمله ، وصراحة في اقواله ، ثم اغرقوا في حبهم له وتمادوا في ايثارهم اياه لتبجحه في نصرة قومه وعطفه عليهم وشدة اسراعه الى ايواء الضالين منهم ، وعرف ملوك الغساسنة فيه هذه السلائق فبالغوا في تكريمه واسبغوا عليه الشيء الكثير من نعمهم ونشروا سلطانه على اديرة حوران مبسوطه وحالقه ، وقد ظهرت اريحية مالك في خلال عشر سنوات امضاها الفرس في بلاد الشام بعد ظفرهم بالرومان واحراقهم بيت المقدس ، ففتح ادبرة بصرى في وجوه الهاربين المشتتين من نصارى الروم ونصارى العرب واطعم الجياع بان فجر عليهم كنوز الاديرة ، وكانت هذه الكنوز لاتمس الى ذلك العهد ، فناشد مالك بطريك الاسكندرية يوحنا الرحوم ان يبيح له ما حرمته الكنيسة فاجازه على بيع النفائس ، فباعها واطعم ثمنها جيشاً من المكدودين والماحلين ولما بلغ القائد الفارسي امره وهو يومئذ في دمشق اكبر مروءته فساوقه في البذل والاريحية ولم يمنعه ان يكون على صلة بذلك البطريرك النبيل يوحنا الرحوم وقيل ان القائد الفارسي سوغ دخول الف عدل من القمح والخضر والف سفينة من السمك المملح كان بعث بها يوحنا الرحوم الى راهب بصرى العربي (١) وبعث بمثلها الى بيت المقدس ومنذ ذلك العهد طارت شهرة مالك الكندي راهب بصرى في كل ناحية ؛ حتى تلاقت مع شهرة يوحنا الرحوم في افق واحد . واصبح الحديث عن الراهب العربي قصة يتلهى بها الناس في البوادي والحواضر

---

(١) فتح العرب لمصر لجورج بتلر

لما جاز مالك بضيفه فناء الدير عاد يتفحص صاحبه من الرأس الى القدم فاذهله وميض في عينيه كما اذهله صفاء في وجهه فقال له : اصدقني الحديث وحاذر ان تخفي عني امراً ! فنظر دحية اليه نظرة مستطيلة ، ثم راح قابضاً على يده واردف قائلاً : أحريص انت على سماع اخباري ؟ قال نعم ، فلقد تبينت على احاديثك لهجة صدق! قل لي من يكون هذا الرجل الذي بعث فيكم ، وماذا يريد الى قيصر ؟ قال اتسألني عن محمد ؟ قال نعم ، قال هو رجل يدعو الى مـادعا اليه عيسى بن مريم . فاحفظ عمله غطاريف قومه فتشاوروا في امره وقال قائل منهم احبسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما اصاب اشباهه من الشعراء الذين قبله ، زهيرا والنـابغة ومن مضى من هذا الموت حتى يصيبه منه ما اصابهم ، فخشي هؤلآء ان يحبسوه وقال قائل منهم لا والله ماهذا برأي ، والله لو حبستموه كما تقولون لخرج امره الى العالم من وراء الباب الذي اغلقتموه دونه ؟ وقد كان هذا الذي خشيه النـاس فان هذه الفكرة السامية التي يدعو الرسول اليها قد خرجت من سجنها الى العالم بعيده وقريبه! قال فاين هو صاحبك ؟ قال في مقر امنه وسلامه بمدينة يثرب . قال فمـاذا يصنع ؟ اجاب يراسل الملوك ويدعوهم الى الايمـــان بدعوته فاكفهر جبين مالك واطرق يفكر في احاديث دحية وفي ما سمعه من القصص عن بعث نبي في العرب يطرد الرومان من الشام ، والفرس من العراق ويمضي في زحفه حتى يضع يده على اسلاب العالم . وبعد قليل رفع رأسه وعاد ينظر الى جبين دحية ، فاذا ذلك الجبين لا يزال على صفائه واشراقه . فقال الراهب اذن فانت تحمل الى قيصر كتابا من محمد ؟ قال نعم وقد صحبني رفيق الى بصرى ومعه كتاب الى الحارث بن ابي شمر الغساني ، وكنا اربعة فتفرق اثنان منا في عمان وايلة وهما يحملان الكتب الى ملوك تلك الاطراف قال اني انصح لك بالرجوع الى بلادك ، فلقد يكره قيصر ان يبصرك هنـــا ؛ وقد يشجيه ان تسأله امراً لا طاقة له على احتماله ! قال لقد نذرت دمي لذلك السيد الذي بعثني رسولا الى قيصر فلست بمرتد على عقبي حتى يقدر لي الوفاء بنذري ! فقـال

الراهب : ولكن قيصر قد اوفى بنذره لنصرانيته فانتصر على فارس وتبسط في نواحي الدنيا ؛ فليس لصاحبك جلد على تحدي هذا الرجل الذي انساق العالم اليه كالطفل فضحك دحية ضحكة هازئة وراح يشد على يدي الرهب العربي شدة مؤلمة ثم استتلى قائلا :

أهازل انت ؟ قال لا ! قال ان صاحبي لا يخاف سلطانا ولا يرهب حاكما ! وقد قال في ملأ من قومه والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ما قعدت عن رسالتي وكانت حماسة دحية قد بلغت آخر المدى فادرك مالك ان لا سبيل الى رده عن غايته ، وكان قد قرأ في الكتب ان نبياً عربياً يخرج من بلده ليملك في فارس وارض الروم ؛ فالتفت كرة اخرى الى دحية وقال له :

افعل ما انت منتدب الى فعله فاني لست براِدك عن عمل آمنت بصفائه وصدقه ولكني اخاف عليك ان تقتل ، وانا من يضن بدماء ذويه ان تراق ظلماً وعدوانا قل لى متى ازمعت لقاء قيصر قال في هذه الساعة ! قال امستطيع انت ان تؤجل عملك الى الغد ؟ قال اني لمؤجله اذا كان يرضيك تأجيله فابتسم مالك ابتسامة هادئة واردف قائلا :

لقد اردتك على الافساح في الوقت لعلني اتفرغ الى تدبير حيلة تساعدني على انقاذك اذا عرض لك حادث ؟ انظر الى هذه الحجرة المغلقة فان بها رجلا من العرب لاتزال شرطة قيصر تبحث عنه ولولا اني وعدت الرجل باخفاء امره لادنيتك منه وحسرت لك عن دخيلته قال من هو ، وما هو شأنه ؟ فعلت جبين مالك ركدة البية واردف : لعلك تعرفه ؟ فهو عمر بن الخطاب ، خرج من مكة مع ثلاثين رجلا من قريش في تجارة فاعتزل اصحابه في بصرى ثم ذهب الى دمشق يطوف اسواقها ويتفرج على بيعها فلقيه البطريق فلافيوس قائد جيش الرومان في دمشق فرابه امره ثم اخذ بعنقه فذهب عمر ينازعه ثم لان له فدخل به البطريق الى الكنيسة فاذا تراب متراكب بعضه على بعض فدفع اليه مجرفة وفأساً وزنبيلا وقال له انقل

هذا التراب ثم تركه ومضى في سبيله لجُمْ عمر على سلم الكنيسة وجعل يفكر في امره وفيما عسى ان يعرض له اذا هو عصى امر البطريق وكانت الشمس شديدة الحر فآوى عمر الى زاوية منعزلة في الكنيسة كأنه يريد ان يمنع نفسه لذع الهاجرة فاتاه البطريق فلافيوس وعليه الذهب والبرفير وبيده سوط فلما الفاه قد اعتزل التراب قال له ما اراك قد اخرجت شيئاً ثم ضربه على رأسه بسوطه ضربا اليماً اراق دمه واستثار حميته فصاح ثكلتك امك ثم انقض على البطريق انقضاض النسر على فرائسه الصغيرة وانشب المجرفة في رأسه فاذا دماغه قد انتثر على الادمم !

ريع عمر لهذا الحادث، فطوف عينيه في ارجاء الكنيسة كأنه يريد ان يطمئن الى نضوبها من المصلين؛ ثم نظر الى يده فاذا عليها بقية من دم ذلك البطريق تخشى ان يعلم الرومان بامره فيقتلوه . وفي خفة البرق الومض احتوى جثة فلافيوس بين ذراعيه ثم واراها ذلك التراب وخرج هائماً على وجهه حتى اتى بصرى فرفع له دير مارية تخفق بابه وكنت اصلي صلاة الصبح فاحسست شدة خفقه على الباب فعفت صلاتي وجئت الى الباب ففتحته فاذا انا حيال رجل عربي فقلت له ماجاء بك الى هنا فنظر الي فزعا وقال لي ضللت طريقي واضللت اصحابي فاخذت انظر الى يده والى ثوبه فراعني دم يغسل يده وثوبه معاً فقلت له انك تنظر بعيني خائف، ادخل فاصب من الطعام واسترح ونم فدخل وجئته بطعام وشراب ثم جعلت اهدىء من روعه فركد واطمأن وجعل يصعد في البصر فاخذت يده فاذا عليها خطوط والوان فبهرتني الخطوط والالوان بل لقد بهرني وميض في عينيه وذلك بريق لا استطيع له وصفاً ولا ادعي ان لي القدرة على ان اسميه فلما شهدني احدق الى يده قال ما ترى على يدي؟ اني قتلت بطريق دمشق لانه ارادني على امر لا تسيغه العرب وتأباه نفسي فشعرت بثقل حديثه كما شعرت بثقل نظراته فقلت له هون عليك ، فلقد وجدت على يدك صفة الرجل الذي يخرجنا من هذا الدير وينتزع ملك كسرى وقيصر فاغرب في الضحك وقال لي انك قد ذهبت في غير مذهب . فما كان

لمثلي ان يسلب كسرى ايوانه او ينتزع من قيصر صولجانه، قلت لقد صدقتك الحديث وما انا بالرجل الذي يريد مداراتك وتسليتك، ثم سألته ان يكتب لي عهداً بالامان ان ملك الامر في هذه الدنيا واذل كسرى وقيصر فضحك وابى ان يكتب لي ذلك العهد مالم اتعهد له بالحماية ففعلت وكتب لي عهده (١)

لقد كان الراهب يتكلم وعيناه تمران بباب الحجرة التي آوى اليها ذلك القرشي الذي حسر عن اسمه وكان على جبينه شيء من الغم والحزن، وكان اشد ما يرمض هذا الراهب الكندي ويؤلمه ان يخرج دحية وغير دحية من الحجاز الى الشام بدعوة لا يرتاح اليها هراقليوس وهو الطاغية الذي اوغل في مطاردة اعدائه واراق دماء الكثيرين من اتباع المذاهب الثلاثة ولم يكن مالك بالرجل الذي ينسى حوادث امسه، بل لقد كان ذكوراً وكان يعلم اي محنة يلقاها اولئك الذين تبعوا اريوس ونسطوريوس وايتوشيوس، وكان يعلم اي ظل من الرعب يلقيه قيصر على البوادي والحواضر في الشام حتى صار الناس جميعاً يتبرمون بالرومان على شديد عداوتهم للشعوب الاخرى، وحتى فزع النـــاس الى بيوتهم فحبسوا نفوسهم فيها واغلقوا ابوابها تفاديا من الاطلال على قيصر وهو محاط بروعة الفتح وجلال النصر

قتل عمر بن الخطاب البطريق فلافيوس قائد جند الرومان في دمشق، فقامت شرطة قيصر بزعامة تيودور الهائل والي سورية الروماني بالبحث عنه في البوادي واجزل القنصل الروماني ثواب الذين تكفلوا بالعثور على مخبأ الرجل وبعث بعيونه الى وادي القرى. ومع هذا كله فقد رضي مالك ان يفتح باب الدير في وجه الرجل الذي قتل كبير قوادهم وزعيم اجنادهم وهو يعلم ان هذه الحماية التي خلعها على عمر ابن الخطاب قاذفة به الى ويل شديد، على الرغم من اجماع الناس عـــلى مداراته

---

(١) روى هذه الحادثة ابن عساكر في الجزء السادس من تاريخه وقد نقلناها عن النسخة المخطوطة والموجودة في مكتبة المجمع العلمي بدمشق ولما زار عمر الشام بعد الفتح اجتمع الى الراهب مالك الكندي فاجاره واستبقى له ديره وبيعه في بصرى

وعلى الرغم من رفعته وسمو شأنه في احبار النصرانية ! وكان كلما ذكر هذه الحادثة ذكر عمر معها وهكذا كان شأنه في هذه المرة فقد لبث ينظر الى باب الحجرة التي آوى عمر اليها بضع دقائق ، ثم ارتد الى دحية وقال له : سألبث في مكاني هنا حتى ينشر الليل ذوائبه ، وتنام بصرى وينـــام قيصر ، ثم اخرج بضيفي الى الاطراف المجاورة لادله على الطريق التي ينبغي له ان يسلكها للحاق بالبادية ! ... اما انت ففي ميسورك ان تمضي في عملك ، فلست اظن قيصر يسيء اليك مادمت رسولا ، وما دام الرسول في مأمن من الطوارىء ولكن حذار ان يعلم قيصر شيئاً من تفاصيل هذا الذى قصصته عليك فانه ان علم بخبر عمر بن الخطاب عرضني للقتل ... قل لي احريص انت ألا يذاع هذا السر ؟

قال ستراني ذلك الرجل الخليق بودادك الجدير برعايتك فدمعت عينا مالك من فرط الالم واردف قائلا :

ان كان هنالك ما يشجي نفسي ويطيل في غمها فذلك هو ان يطل دم عربي وجعل يمسح دموعه بطرف طيلسانه الاسود ثم شد على يدي دحية مصافحاً وقال له ردك الله سالماً الى وطن تحبه ! فرق دحية بن خليفة للراهب العربي وانحنى عليه مقبلا كتفيه وقد اثرت كلماته في نفسه ثم انثنى الى باب الدير يريد الافلات منه فقال له الراهب أذاهب انت ؟ قال نعم وسأترك عملي الى الغد ، ريثما يتاح لضيفك ان يخرج من سجنه في الدير الى الفضاء الطليق ... الى اللقاء يا اخا كندة ولم يزد على ذلك حرفا بل تسدر بردائه وانقلب يعدو في الطريق الموصلة الى صهاريج بصرى

ووقف الراهب يتأمل من بعيد في حركاته حتى اذا احتوته مقاصير الطرق عاد ينظر الى الحجرة التي آوى اليها ذلك الرجل الذي تخيره الله ليرث ملك قيصر في الشام ومصر ...

ولم يطل مكثه حيال الحجرة . ففتح بابها واطل برأسه وتكلم :

هل انت على استعداد للحاق بقومك فاجابه صوت شديد من داخل الحجرة :

— نعم ...

قال : اذا جن الليل وجدت تحت امرتك رجالا يتكفلون بالذهاب معك الى المشارف القريبة ...

ولما اغسى الليل خرج عمر بن الخطاب من باب الدير فلقيه اربعة من رجال الراهب الكندي على خيولهم ومعهم جـــواد بلا فارس فامتطى قاهر هراقليوس ووارث كسرى صهوة الفرس ورمى شرفات الدير بنظراته فاذا على الطنف المقابل ذلك الراهب الكندي ينظر اليه فلوح عمر بيده كمن يسلم فجاراه الراهب في عمله وبعد قليل شق عمر الطريق الموصلة الى البادية تحت حماية الفرسان الاربعة .

الفصل السادس عشر

في الملعب الروماني

ظلت روح النصرانية في عزلة عن ابنية بصرى وقصورها وملاعبها على الرغم من نزوع الناس الى استمراء ديانة عيسى ومضيهم في الذب عنها وصمودهم لشتى انواع الآلام في سبيل توثيقها . وذلك لان قدماء اليونان قد اقاموا لآلهتهم التماثيل الضخمة على قواعد جيء بها من رواسي بعلبك وانطاكية وملئوا بصرى واسواقها بانصاب تمثل جوبيتير رب الارباب وابولون إله الشعر وديانا إلهة الجمال وافروديت إلهة اللذة ، ولما بسطت الدولة النبطية العربية ظلها على حوران في زمن الحارث الثالث فاتح دمشق لم ينس هؤلاء الذين اقتبسوا عبادتهم من صحراء العرب ان يرفعوا التماثيل والانصاب للات والعزى وذي شرى عن كثب من آلهة قدماء اليونان ، ثم جاء الرومان بعد غلبتهم على النبط ورأوا آلهة اليونان تكاد تختلط بآلهة النبط فحفزهم شعورهم القومي الى رفع الانصاب والتماثيل تكريماً لارباب روما فاصبحت مدن حوران العظيمة ملتقى عبقريات الامم الثلاث في النحت والنقش والتصوير على الحجارة والاصلاد ولما رفعت النصرانية اول معبد لها في بصرى استبقى القياصرة آثار الامم البائدة ولم يفكروا في تدميرها على الرغم من جنوح زعماء النصرانية الى محاربة الوثنيات ، بل لقد تعاقب على القسطنطينية قياصرة عرفوا بشديد غيرتهم على ميراث الماضي فاضافوا الى القديم من مخلفات اليونان والنبط والرومان صروحا ترفع من اقدار بنائها وتسمو بمواهب اصحابها وكان القرن الرابع الذي هيمن على احداثه قياصرة عبقريون من طراز انسطاس وتيودوس وجوليان من ازهى العصور التي اكبرت غرس الوثنيات القديمة وباركت في حصادها على كثرة متناقضات هذا العصر . وتردد شعوبه بين نصرانية روما

ديانة البابا الروماني ، وبين نصرانية بزنطية ديانة البطريرك الارثوذكسي

وقد كان الملعب الروماني في بصرى ملتقى حصاد هــذه العبقريات الثلاث ، اجتمعت فيه رموز تمثل ديانات العالم القديم والعالم الجديد في هذا الملعب الذي بهرت فنونه وروائعه قياصرة الرومـان وامبراطرة اليونان وملوك النبط والذي خلع عليه الغساسنة شيئاً كثيراً من بهاء النصرانية العربية شهد الامبراطور هراقليوس في اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة اثنتين وعشرين وستمائة حفلة رائعة من حفلات السباق التي اعتادت غسان احياءها في مواسم النصر وفي اعياد النصرانية ،

وكان قيصر في صبـــاح هذا اليوم الشديد الفتون بسمائه المصحية وشمسه الدافئة ، وازهاره المتضوعة وناسه الفرحين الجذلين في مقصورة تلاقى فيها الذهب الابريز واللؤلؤ ، وقد جلس الى يمينه بطاريك الكنيسة ، والى يساره بطاريق الجيش واخذ الملك الحارث بن ابي شمر الغساني مقعده في مقصورة قامت على اربعة اعمدة من البرفير تحت قبة من الفسيفساء البزنطية ، تجاورها تمـــاثيل آلهة اليونان في صف مستطيل يقـــابله صف مستطيل قامت على حواشيه تماثيل تفصح عن ديانة النبط والرومان ! وكان جميع هؤلاء الذين زرفوا الى الملعب من دمشق وبصرى وصلخد واذرعات واليرموك والاردن والجولان وفلسطين يختالون بالبرد المطرزة والافواف المزخرفة وعلى صدورهم صلبان حشد صانعوها الذهب الى جانب اليواقيت المختلفة الالوان !

وكان الملعب يشرف على ساحة السباق ، فلما ظهر الفارس الاول في الميدان وتراءى للجماهير اكبر قيصر قعدته على الفرس فتلفت الى تيودور والي سورية الروماني وسأله : من هذا الفارس ؟ فقال له تيودور : هذا هو ميلاس فيلارك الجولان ، وما ان دار الفارس الروماني دورة واحدة حتى خرج الى لقائه فارس آخر على جواد ابيض وكان مقنعاً فسأل قيصر عنه فقال له تيودور هذا هو اكيدر الكندي فيلارك دومة الجندل فضحك هراقليوس ضحكة نمت على ارتيـاحه الى

مشهد هذا الفارس العربي الذي ناضل بحمية في صفوف الرومان ثم اخذ فرسان العرب وفرسان الرومان يتهافتون على ميدان السباق وهم يتصايحون ويهتفون لقيصر الظافر باسلاب ملك الملوك كسرى !

وبينما كان النبلاء من رومان وغساسنة يصفقون في الملعب للمنتصرين في ميدان السباق اذا رجل عربي يخترق الصفوف ويدفع الناس بيديه كأنما هو يريدهم على ان يفتحوا له طريقاً الى الملعب فنهد الجند الى منعه فاصم اذنيه عن استماع اوامر الجند ، وظل يدفع الناس حتى اوشك ان يطل على الملعب فعرض له تيودور والي سورية الروماني واراده على الرجوع الى الصف الذي انبعث منه فصاح الرجل دعني اصل الى قيصر ! دعني اصل الى قيصر ! فانتبه هراقليوس الى صياحه فتلفت اليه وجعل يتفحص وجهه ثم لم يلبث ان عرف فيه ذلك الرجل الذي ابصره يتحدث الى سادن الدير ، فساقته رغبة ملحة في نفسه الى التعرف اليه . فسأل تيودور ان يدعه وشأنه : ففعل وطفق الرجل يدفع الناس عنه ، حتى انفرجت امامه السبل ، وانفرط المتزاحمون عنه وصار في ميسوره ألا يخشى زحاماً فصعد سلم الملعب تعباً مكدوداً ؛ واخذت يده تمثال العزى فارتفق اليه وادار ظهره الى ناحية الجماهير ، واستقبل وجهه مقصورة هراقليوس وقد عرفه من تاجه وزخرف لباسه ومن هذه الحاشية العظيمة المؤلفة من بطاريك الكنيسة وبطاريق الجيش

وكانت ذهلة الرومان عظيمة ولكن واحداً من كل هؤلاء الذين حشدهم قيصر في الملعب لم يجرؤ على مخاطبته ، وذلك لأن ارادة قاهر الدنيا قضت ألا يمس هذا الرجل الذي اقتحم الجماهير ليتحدث اليه وفي تلك الفينة تمثل هراقليوس تلك الليلة التي امضاها على طنف القصر فذكر الرجل ، وذكر وقفته على باب الدير ، ومرت بخاطره صورة ذلك الحديث الطويل الذي القاه العربي على سادن الدير ، وذلك حديث لم يعقل قيصر كثيراً او قليلا منه ، ولكنه ادرك من نبرات الرجل ان بين جنبيه روحا مملوءة بالكبر وان حديثه مـــا كان حديث الرجل المغمور ، وكانت

عظمة الرجل قد ارعشته واخافته في تلك الليلة التي امضاها محزونا ملتاعا · فتجددت مخاوف نفسه في تلك الساعة وتنبهت في روحه طوائف من هواجس مرة ولكنه لم يفطن الى العوامل التي تحرك في سريرته مثل هذه الهواجس، فظل جاهلا مأتاها ومنبعها، ومع هذا كله فقد تكلف قيصر الصبر والجلد واخذ ينظر الى ذلك الرجل المتكيء على التمثال كأنما هو ينزع الى الترفيه عن نفسه؛ فشهد هراقليوس على جبينه تلك الصورة التي عرضت له في الليلة الفائتة فراعه ان يدير عينيه في الجماهير في غير خوف ولا ذعر، من اين توافى هذا العربي! واي الرجال هؤلاء الذين خلفهم على الصهاريج يسقون ابلهم العطشى من الماء العذب الصافي؟ ولماذا كان هذا الرجل يسرع الى باب الدير تحت ذوائب الصبح فتروح الاجراس مجلجلة عصافة كأنما هذا العائد من بلاد قصية مجهولة حبر من احبار النصرانية! او كأنه احد عمال قيصر في هذه البادية المنبسطة ما بين تخوم العراق وتخوم الشام؟

وانه لكذلك يسأل نفسه عن مصدر الرجل ومأتاه اذ طافت بخواطره ابواب صلخد هذه الابواب التي لا تفتح الا ليخرج منها عربي مغمور الصيت فلا يكاد يجوس بصرى حتى تثب مطامحه فيجفو وطناً قديمـــاً ولد في نواحيه، ليذهب الى وطن لا يعرف ذويه ثم ينساه محبوه واهله فلا يلبث ان يطلع عليهم ملكا معصب الجبين بتاج قيصر، او بطريركا يحمل بيده صولجان النصرانية!

اذن فليس بعيداً وقد تفتحت ابواب صلخد ليجتازها هذا الرجل الى بصرى ان يشهد الحاضر ما شهده الماضي وان يخرج من البادية السادرة في الرمـــال قيصر جديد للرومان او بطريرك لبيزنطية!

ومع هذا كله فقد اراد هراقليوس ان يتعرف الى هذا الرجل وان يستمع اليه، فسأله ان يجفو مكانه حيال تمثال العزى ففعل واخترق صفوف الحاشية القيصرية وبطاريق الجيش حتى وقف على باب المقصورة وسرح طرفه في وجوه الجميع ثم قعد على اديم الملعب قعدته الساذجة المتواضعة وراحت عيناه تصافحان قيصر!

وبعد فترة قصيرة تخللها صمت عميق تلفت قيصر الى الملك الحارث بن ابي شمر وقال له : هذا رجل من قومك فهل لك ان تسأله مايريد ، فانه ان كان فقيراً قضينا حاجته وبلغناه سؤله ، وان كان له امر غير هذا نظرنا فيه ؛ فانحى الملك الغساني ناحية دحية بن خليفة الكلبي وقال له ما اسمك يارجل ، واي حاجة لك عند سيد الدنيا فقال له دحية بلهجة مطمئنة ساذجة :

اسمي دحية بن خليفة الكلبي اما حاجتي عند قيصر فقيام بعهد قطعته لصاحبي فلقد ارادني نبي الله ورسوله على لقاء الملك لاسلمه رسالة يدعوه فيها الى الايمان بدعوته

قال ومن هو هذا النبي الذي تتحدث عنه ؟ اجاب : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بعثه الله نبياً الى ملوك الدنيا والى شعوبها . .

وكان دحية يتكلم بلغة عالية فخمة استثارت حمية الملك الغساني فنزع الى اسكانه فلم يفت قيصر هذا الذي يجول في خاطر عامله فسكن من روعه ولطف من حدته وسأله ان ينقل له حديث الرجل فبلغه الحارث الحديث فازمهر جبين سيد الكتائب الظافرة باسلاب كسرى ولكنه لم يفقد الحلم والمصانعة بل مد يده الى دحية وقال له ارني رسالة هذا النبي . فغيب دحية يده في صدره ثم اخرج رسالة محمد ، ودفع بها الى قيصر ، فاخذها هراقليوس واسلمها الى الملك الحارث وقال له اقرأ ، فقرأ سيد غسان رسالة سيد قريش :

من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم

السلام على من اتبع الهدى . اما بعد اسلم تسلم واسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان تتول فان إثم الاكارين عليك (١)

فتلون وجه قيصر وقال أهذا كل ما عند صاحبك ؟ قال نعم ، فرمى هراقليوس قومه بنظرات حائرة ففطن هؤلاء الى حيرته ولم يفتهم ما جاء في هذا الكتاب على بساطته من تهاويل ونذر فراحت ايديهم تتلمس سيوفهم واخذت عيونهم ذلك

---

(١) الطبري ج ٣ ص ١٥٤٦

الرجل الذي قطع البادية الغلفاء ليقول لقيصر الظافر باسلاب العالم والمنتصر على ملك الملوك كسرى تخل عن المجد والقصور والفتح والجيش والحاشية وعن هذا الرونق الذي يصاحب النصرانية وتعال الى ديانة ما كانت لك ولا لآبائك وليست لها صلة بماضي اولئك الذين اورثوك البحر والبر واراقوا على تاجك بهاء الفتح وجلال العبقرية !

وقد كان اشد ما استفز هؤلاء الغطاريف الى الغضب ان سيوفهم لا تزال ندية بدماء الابطال والمساعير ، وان صدورهم مـــازالت تخفق تحت وقر ذلك النشيد الذي خرج على افواههم فاستمع له كسرى وانتباله جحفله الطامي وخميسه العرمرم حتى تقاصرت نفس سيد الجيوش ، فانقلب على عقبيه ، وانقلب جيشه معه ، مطوية اعلامه ، ممزقة مضاربه وخيامه !

وكان قيصر لفرط الجزع قد جعل كتاب الرسول بين فخذيه وخاصرته (١) فقال له تيودور عامله على الشام ! دعني امزق صدر هذا الرجل . . واشار بيده الى دحية وتعالت اصوات قواد الجيوش ؛ القوا به الى النار ذات اللهب !

وفي خفة البرق الومض برقت السيوف . وخطفت الاسنة ، واحمرت العيون ؛ وعاف المتفرجون مقاعدهم ، وتهافتوا كالسيل العرم على الملعب ، وطاف فريق منهم بالعمد المرمرية ، وتسلق فريق الاقواس والحنايا . وخرجت من صدور هؤلاء صيحة واحدة :

ـــ الى المحرقة ! الى المحرقة !

ولكن دحية بن خليفة الكلبي ظل رابط الجأش فلم تزعجه هذه الصيحة ، ولا غيرت لونه هذه الحماسة ، بل لقد تمادى هذا العربي الذي نذر دمه لنبيه ورسوله في الحرص على زهوه وخيلائه فحسر عن صدره واماله الى ناحية فرسان الرومان وغطاريفهم وقال لهم بلهجة المطمئن الوادع :

---

(١) الطبري ج ٣ ص ١٥٤٧

ان كنتم ممن يقتلون الرسل فهاكم صدري فان به لمتسعاً لسيوفكم ورماحكم ! اما نحن فلسنا ممن يريدون بالرسل ضيراً ..

وكان شبابه فتنة لناظريه ، فلما تكلم بتلك اللهجة العالية الفخمة افتتن النـــاس بكبريائه افتتانهم بجمال وجهه وبياض لونه ، وعذوبة نظراته ولم يجرؤ واحد من جميع هؤلآء الذين نهدوا الى قتله على مخالطته بل ظلوا في اماكنهم ينظرون اليه وظلت سيوفهم ورماحهم مصوبة الى ذلك الصدر العريض الذي حسر دحية عنه ليكون موضعاً للجراحات ! وكان قيصر اشدهم اعجابا بمروءة دحية : وأسرعهم الى الافتتان بحديثه فقال لهم دعوه وشأنه فان الرسول لايقتل ! وانه لعار ان يلقي علينا هذا البدوي درساً في المداراة والمصانعة !

فصاح تيودور طاغية الرومان في دمشق :

— انكون تحت يدي العرب ونحن اعظم الناس ملكا واكثرهم رجالا وافضلهم بلداً (١) لا والله ان هذا لن يكون ابداً !

قال هراقليوس : اني لمعطيه — يريد محمداً — الجزية في كل سنة ؛ لعلني اكسر عني شوكته واستريح في حربه بمال اعطيه اياه (٢) فصاح قواده : نحن نعطي العرب الذل والصغار بخرج يأخذونه منا ونحن اكثر الناس عدداً واعظمهم ملكا وامنعهم بلداً ؛ لا والله لا نفعل هذا ابداً (٣) قال هراقليوس اذن فلاصالحه على ان اعطيه ارض سورية ويدعني (٤) فقالوا : نحن نعطيه سورية ؟ وقد عرفت انها سرة الشام والله لا نفعل هذا ابداً (٥)

قال هراقليوس ، اذن اجعله فيلاركا او دوقا (٦) ! فصــاح تيودور ، لا هذا

---

(١) الطبري ج ٣ ص ١٥٤٧

(٢) و(٣) و(٤) و(٥) الطبري ج ٣ ص ١٥٦٨

(٦) فتح العرب للشام للعالم الهولاندي دي غوج وقد روى نقلا عن مؤرخي الرومان ان هراقليوس عرض على الرسول صلى الله عليه وسلم ان يكون عامله على دمشق فرفض

ولا ذاك بل نعطيه حربا طويلة الامد يكثر فيها الايتام والارامل وتضرب الذلة والمسكنة على المدن والدساكر (١)

وكان الحارث بن ابي شمر الغساني اشد هؤلاء البطاريق جنونا واعظمهم حماسة فصاح من ينزع مني ملكي انا سائر اليه (٢)

في تلك الفينة ، بينما سيوف القوم توشك ان تخترق صدر الرجل العربي وبينما هراقليوس يروح في مقصورته جيئة وذهابا بين بطاريق الجيش وبطاريك الكنيسة قدم على الملك الحارث بن ابي شمر حاجبه النعمان بن عاملة من قضاعة فهمس في اذنه همساً لم يرتح اليه فطلع على قيصر وحاشيته حزيناً مغموماً فسأله قيصر ما به فقال : ان رسولا بعث به محمد اليه فلقيه في عمان عامله شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله

وكان قيصر على شجاعته وعنفوانه يرزح تحت وقر سلائقه المتنافرة النــادة فاسخطه قتل الرسول ؛ كما اسخط الحارث ، ولكن دحية بن خليفة الكلبي الذي لم يكن يعلم الى هذه الساعة مصير رفيقه وصاحبه ظل على رباطة جأشه فبدا للناس هانئاً وراح يتلهى بالنظر الى العمد والاقواس ، وراح الناس ينظرون اليه وقد بهرتهم شجاعته وسحرتهم بلاغته الصامتة ! بل ان كثيرين من هؤلاء الذين اشاروا على قيصر بالقائه الى النار عادوا يحدبون عليه وكان اشدهم براً به هؤلاء الامراء الذين جاء بهم قيصر من بلادهم ليمضوا معه الى بيت المقدس ! فلما استبقى هراقليوس دمه احاط هؤلاء به وطفقوا يتحدثون اليه

وكانت ارادة قيصر الرومان توجب ان يرجع دحية الى وطنه سليما معافى ، فسرحه الملك الحارث واذن لبعض رجاله ان يرافقوه الى باب صلخد ، فخرج دحية

---

(١) الطبري

(٢) ارسل سيد قريش الى الملك الحارث بن ابي شمر الغساني صاحب بصرى كتابا مع شجاع بن وهب فقرأه عليه وهو يومئذ في قومه فقال من ينزع مني ملكي انا سائر اليه قال النبي باد ملكه ، الطبري ج ٣ ص ١٥٦٨

من الملعب ولحق بالقوافل القائمة على الصهاريج ، فاختلط برجالهـــا وعاد رجال الحارث الى بصرى ولم ينس قيصر هذه الحادثة التي فجرت حزنه ! ولكنه كان سيد الكتائب الظافرة ، وكان امبراطور الرومان فقصر همه على النسيان . . .

ولما عاد هراقليوس الى القصر بحاشيته ، كان الليل قد غمر بصرى فرمى بنفسه على السرير واراد عينيه على النوم فظلتا مفتوحتين ، وظل شبح ذلك القتيل الذي اراق شرحبيل الغساني دمه في غير ذنب يطالعه فتميد نفسه ميداً ولا يستطيع اقصاء هذا الشبح المضرج بالدم عنه ثم اجهده الارق فنام وحلم حلماً امضه وروعه فجفا فراشه ودعا اليه سادن الدير الكندي فلما ابصره حزيناً اخذته رعدة فقال اني اراك مهموماً ؟ قال اريت في هذه الليلة ان ملك الختان ظاهر ! قال ايها الملك ما نعلم امة تختتن الا اليهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث الى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب اعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم ! قال فهل تختتن امة هذا الرسول الذي جاءني بكتاب من رجل اسمه محمد ! قال نعم فصاح قيصر واذلاه(١) ! لقد ضيعت ملاحمي الماجدة وغامرت بملكي الطويل العريض !

وراح يذرف الدمع تذرافا اليماً ! بينما كانت عينا مالك الكندي ســادن دير ماريه ذات القرطين تنظران الى مسير القوافل العائدة الى بلاد العرب تحت ذوائب الليل في شيء كثير من الحنو والرأفة والحب .

---

(١) الطبري ج ٣

الفصل الثامن عشر

قلب سافو

لما استفاق كريستيا من رقدته في ذلك الصباح الماتع من شهر ايار جعل ينادي سافو بلهجة وادعة مستجبة فلم يبهر الفتاة اللعوب صوت الشاعر الناعم الرقيق فزهد في فراشه وجاء الى شرفة المنزل فاطل منها على الحدور العاشبة فاذا سافو قد اوغلت في جنة فيحاء من القرنفل فبهره انحناؤها على الزهر تجمعه من منابته وتضمه الى صدرها مخافة ان يفلت ، فناداها كرة اخرى :

ماذا تصنعين ياسافو ! فسمعت صوته والتفتت اليه صائحة ! الا عم صباحا ياكريستيا ! لعلك قد رفهت عن نفسك ونسيت حلمك الممض الموجع !

قال لقد سألتك عما تصنعين في هذا الصباح البهي ؟ فضحكت وراحت تدني قرنفلة حمراء من فمها وانثنت قائلة : خفت على الزهر بواكر الصقيع لجفوت فراشي قبل ان تطلع الشمس بوجهها الضاحك على العالم وجئت هذا الوادي اجمع من حدوره بعض صبابتك من زهر القرنفل ... لقد تغايت الطير على المنابت ، وضحك السوسن في فرعة الجبل واخذت الطبيعة التي تحبها ياكريستيا تفتش في الاوراد عن صباغ تريقه على احلامها العذبة فوددت وانا انظر الى سبحها لو ان نفسك تغسل حوباتها في الندي الرقيق من الازاهر قل لي أمنطلق انت الى بيت المقدس في هذا النهار ، فان رفاقك ينتظرون ان تستفيق لتخرج معهم الى مقاصير الطرق وتسمع قيصر بعض اغانيك

قال اني نذرت الا ابرح معتكفي فعبثا ينتظرني الرفاق والصحاب

فرعشت سافو واغيمت نفسها وقالت لكريستيا ! اذن فانت لا تزال شديد الحنين الى تلك السامرية ! . . لقد ظننتك عزوفا عن الحب زلفى لشهوات المجد

واهواء الشرف ، فاذا انت لا تزال ذلك الرجل الذي امات مطامحه النبيلة في سبيل حب لا يرضاه لك هؤلاء الذين اولعوا بشهرتك فودوا لو انها تحلق في كل فضاء !
فهز كريستيا رأسه وقال لها وهو لا يزال على الشرفة !

— هوني عليك فليس الحب ما نعي من الخروج الى مقاصير الطرق ، ولكن المجد الذي تبهرني طيوفه ومعانيه يغريني بالانزواء ! أتذكرين ياسافو ذلك الرجل الذي خفق باب منزلنا قبل ايام فاطللت عليه وفتنك من امره انه يسير في حاشية مماثلة لحاشية قيصر ... ذلك فروة بن عمرو ان كنت قد نسيت اسمه !

فشحب جبين سافو وراحت تغمض عينيها كأنها تتمثل ذلك الرجل وقد طرق بابها وهي في عزلة ممضة من آلامها واحزانها فسألها متى يعود كريستيا فقالت له انها لا تدري متى يعود ، فقال ناشدتك الله ان تخبريه باسمي فاني لابد منقلب اليه !

وكانت تنظر الى عينيه والى وجهه فيفتنها صفاء تينك العينين وجمال ذلك الوجه ولما تحدث كريستيا اليها عن فروة لم تنصت لكلماته ، بل راحت تنصت لقلبها ، وقد انسرح شعرها على كتفها ، ورقت نظراتها ، وخطفت اشعة الشمس على جبينها خفيفة الوهج فلم يفت الشاعر هذا الحزن الذي ابتدرها ساعة ذكر لها اسم فروة ولكنه لم يقل شيئاً بل اعتزم ان يلحق بها الى الاجمة الفيحاء تاركا مكانه على الشرفة فجاز سلالم المغنى الظليل في خفة البرق منسلا بين كثيف الشجر وبعد لحظات تلاقى الاخوان في صعيد واحد فجعل كريستيا يسترق نظراتها ويتأمل في شحوب وجهها ويقرأ خطوطه والوانه فلم يفته معنى هذا التبدل الذي غشيها وادرك مصدره ومنبعه فقال لها :

يخيل الي ان امر هذا الفتى عاد يهمك ؟

فلم تجب وراحت عيناها تنظران الى الاجمة بينما يداها تشدان على زهرات القرنفل وبينما قلبها لا يزال يخفق فانثنى كريستيا قائلا :

— تكلمي فما الذي اذكرك هذا الفتى ؟ هل قال لك شيئاً غير الذي قصصته علي

فلم تنبس فقال لها :

— لعلك صرت تحبينه ؟ فصاحت :

— كريستيا كريستيا ، لماذا تسألني هذه الاسئلة التي لا املك عليها جوابا ...

— اتحبينه كثيراً ... وهو ... أقال لك انه يحبك ! ربي أمن الممكن ان يولد هذا الحب في لحظات قلائل ...

— كريستيا !

لا تجزعي فاني ما ابغضت فروة بن عمرو ، بل لقد احببت فيه مروءة وعنفوانا فهو فتى شريف نبيل ، وهو الى ذلك سيد البلقاء وامير ايلة .. انك لتحاكين في جمالك واشراقك هذه الازاهر ، ولكن لجمالك روعة لا يعرفها القرنفل فبينما تذبل اشعة الشمس هذا الزهر الجني السائغ اذا جمالك يتجدد ويضيء ... وربما ابصرك فروة في الخميلة فبهره لمعانك واشراقك ؟

— كريستيا ! انك لتجيد صوغ الكلام البارع ولكن على احاديثك نغمة الم ...

— كلا . اقسم لك انني ما كرهت ان تحبي هذا الرجل الذي لا يدانيه في كبريائه وعنفوانه قيصر الرومان ... أتحبينه ؟

فرفعت يدها المثقلة بالزهر الى عينها كأنما هي تنزع الى اخفاء وجهها فلا تبين لكريستيا على قسماته تلك الشمس التي اضاءت قلبها ففطن الشاعر الى هذه النوازع التي تجيش في نفسها فقال لها :

ليس في وسعك ان تخفي هذا الحب الى امد ، فما قليل يصدر فروة الى هذه النواحي اماما فسأفرغ اقصى الجهد لانتزع من قلبه سره الدفين ، على انني لست بكاره ان يحبك مثل هذا الرجل الذي ستضطرين الى استجداء حمايته في الايام الاتية ... انه الرجل الذي ابحث عنه ... وهو كذلك رسول العناية الذي نترقب مسفره في الليل الشديد العبوس ! .. أتحبينه ؟

فانكفأ لونها وهمست قائلة :

ـ احبه ! احبه ... اليس الحب ينقل النفس العائشة في السحب الباردة الى افق دافيء من الرجاء المعسول ، والامل الجميل ... وانت اما احببت وقبست من هذا الحب دفء نفسك ، وحرارة قلبك ! .. لقد كنت اشعر بيأس شديد في كل ليلة لا يعرض لي فيها طيف ذلك الفتى الذي جئت تحدثني عنه وكنت انزل الى الحدور وارتاد المنابت لاسترق خطاه في النواحي المجاورة فلا اسمع لوطئه حساً فاعود الى غرفتي ويغمرني ليل شديد التعبيس من يأس وهم ... قال :

ـ هذا هو الحب الذي تعلمته من السامرية

لقد حرك الحب الحياة في قلب سافو فترك الابتسامة على شفتيها واماالها حديث كريستيا الى فرح اكيد فصاحت :

اكاد لا اصدق ما سمعته ، اذن فانت تستسيغ ان احب وتستمريء ان افتح قلبي لعطر جديد لم يعرفه من قبل وما دمت قد اردتني على هذا الحب يا كريستيا وما دام فروة هذا الفتى الجميل لا يخيفك ولا يرعشك فاني مـا عدت اخفي عنك امراً من امور قلبي فلقد طغى الحب على نفسي في ذات ليلة وكنت لا تزال ترتاد جبال طبريا البواذخ فعفت هذا المثوى ورحت الى ضفاف الاردن افتش في مائه الرقراق عن خيال ذلك الفتى الذي رأيته يسقي جواده من ماء النهر الدافق الهـادر وكانت انفاس المساء تهب لينة ناعمة على جبيني فهزني العبق الشديد العنيف الى ذلك الفتى الذي علق خياله بنفسي حتى لقد بلغ بي الحب مبلغاً لا اسميه لك ولا استطيع ان اتمثله . وكل ما استطيع قوله هو انني كنت مأخوذة بذلك الشذا واني جريت في اثر الفارس ابحث عن ظله على ضفة النهر ، وفي الحدور ، وفي الربا البعيدة ! بينما النسمات الخفاف اللطاف ترعش على صفحات الماء في بحيرة طبريا . وبينما اغاني الملاح تلقي في اذني ارق نشيد عن لقاءات الحب !

وماذا اقول لك بعد هذا يا كريستيا ؟ ظل الملاح يغني في قاربه وظل صوته يستفيض على حواشي الافق رقيقاً ناعماً ، وظلت الوان الطفل تريق فتونهـا على

المشاهد وظلت عيناي سابحتين في هذه الروائع حتى زهدت في زرقة السماء وزرقة الماء ورحت اتمثل نفسي بين ذراعي ذلك الفتى الساحر . بل لقد رأيتني انظر الى عينيه ، ورأيته ينظر الى عيني ، فكأني حشدت العالم الذي احبه في نظراته ، وكأنه قد حشد العـــالم الذي يحبه في نظراتي ، ثم دنا مني فدنوت منه ، ثم اسمعني صوته فاسمعته صوتي ، ثم اختلط جرسي بجرسه ، كما اختلط جرسه بجرسي وكما اختلط حسه بحسي ثم تألف من تساوق الفاظي والفـاظه لغة واحدة ثم تمثلته يضمني الى صدره وعيناه تومضان الى المشاهد كأنه يقول لي : هذه الحقول الفينـانة ، وهذه السماء المصحية وهذا الخرير اللذ ، وهذه الاسراب الحائمة على الينبوع . وهذا النجم الساحر وهذه البحيرة ، في هذا العالم الذي ترين عزلة قلبي وقلبك ! اواه يا كريستيا ايتحقق حلمي هذا فارى اليه كما ارى اليك ونعيش معاً في عالم مؤلف من هـــذه الفواتن ؟ ولما عدت بعد طوافي الناصب الى المثوى خفت ان اتوغل فيه ، وخيل الي ان ذلك الفارس الذي استهوتني كبرياؤه عاد يخفق بابه ...

ولم تستطع سافو ان تمضي في حديثها ، فلقد سمعت في تلك الفينة ، خفقاً شديداً وسمع كريستيا ذلك الخفق الشديد . فوقف ينظر الى باب الحديقة ووقفت سـافو ترقب حركاته ثم اشتد الخفق وتلا ذلك صدى تكسر العشب اليــــابس واستمع الشقيقان الى صهيل الخيل وهمس الفرسان فصاحت سافو :

ــ لقد وفى الرجل بنذره ! فهو يفيء الى سربك ليتحدث اليك ! .. ناشدتك الله يا كريستيا ان تفتح الباب ! فصاح كـريستيا صيحة اخافت تلك الفتاة الضعيفة الفاترة وقال لها :

ــ ستصبحين عما قليل اميرة ايلة ! .. فحدقت اليه وهي لا تفقه هذا الذي اراد فاردف !

ــ قلت لك انك ستصبحين اميرة ايلة ، الا تحبين المجد ؟ الا يستهويك ان تمضي بك هذا الزواج الى صبابتك منه ! تذكري قسمك القديم ! تذكري اي كلمة خرجت من شفتيك في تلك الليلة التي شيعنا فيها الى القبر جثة امنا الرقيقة الحادبة !

قالت : ما نسيت ابداً ماضي وما زلت اذكر كلمة استفاضت على شفتي ، ففي تلك الليلة الصاردة الغائمة خرجت انا وانت وامي المغيبة في النعش الى المقبرة وكان ينتظرنا هناك رفاق لم يمنعهم الودق المنهمر عن واجب الصداقة فلما انحدر حفار القبور بالنعش الى الرمس واخذ يهيل التراب لم يزعجني صليل الحجارة على خشب التابوت ولا اخافني ذلك الضوء الحزين الذي اراقه القمر على جبين الهالكة الشاحب وانما اخافتني كلماتك فاني مازلت اذكر كيف اخذتني بين ذراعيك فتوهم صحبك انك مكفكف دمعي ومخفف حزني ، فتغاضوا عن استماع همسك ، وفي تلك الاثناء قلت لي كانت لأمنا رغبات وطمحات وكان اسمى هذه الرغبات والطمحات ألا يغمض لها جفن قبل ان تثأر بدم القتيل من قاتله فاذا كان بروقك ألا يضل مطمح لامك فبادليني شعوري واقسمي معي على الثأر بدم القتيل الغالي فما ابيت قسما اردتني عليه وقلت لك سامضي الى الوفاء بنذري على الرغم من انني امرأة ...

فابتسم كريستيا ابتسامة حزن وغم وقال لها :

— بحثت كثيراً عن الساعد المقتول الذي لا يمل ان يوالي الخفق على باب قيصر فوجدته وافرحة النفس عند فروة بن عمرو ... فصاحت سافو :

لو سمعك اصحابك لرأوا فيك خلق الثائر لاخلق الشاعر ، انك مخيف يا كريستيا ! انك مخيف ...

قال : لقد اطل هراقليوس دم ابي ؛ فاشجى الدم الطليل امي فماتت من القهر والغم ، من اجل هذا منعت هراقليوس اشعاري ... قفي مكانك فاني منطلق الى فروة وسافتح له الباب وستسمعين من امره عجباً ،

وفي لمحة قصيرة تبدل خلق كريستيا واستحال الشاعر الرقيق الوديع الذي فتش عن السحر في نظرات السامرية الى رجل يلهب شعوره البغض ويحرك اهواءه الثأر

ثم اخذ يعدو الى ناحية الباب الذي اشتد الخفق عليه ، بينما سافو تنظر بعينيها الذاهلتين الى يديها الفارغتين من الزهر فقد انساها حديث كريستيا القرنفل الذي جمعته في الصباح فانفلت من يديها وراح متناثراً على الاديم بجانب مسيل الماء

الفصل التاسع عشر

فروة بن عمرو

قال كريستيا وهو يفتح باب الخميلة امام فروة بن عمرو الجذامي . سامحني ايها المولى فلقد اخرني سهدي في الليلة الماضية عن فتح الباب

وكان فروة لا يزال على صهوة فرسه وقد اخذت يده تعبث بشعر ذلك الحيوان الابيض فلما سمع كلمات كريستيا القى نظرة خفيفة على رفاقه فتفرقوا في الاجمة المجاورة ثم التفت الى كريستيا وحدق في صورته طويلا واردف :

اظنك عرفتني ؟ فقال الشاعر :

— سيد ايلة الشجاع وعامل قيصر على البلقاء وسيناء ؟

فاكفهر جبين فروة وقال مستكبراً :

سيد ايلة نعم ' ولكنني لست عامل قيصر . قل لي أمنطلق انت الى اورشليم ؟

قال لا ! قال اذن في ميسورك ان تقبلني في منزلك ولو الى بضع لحظات قال هذا هو بيتي افتح لك ابوابه لقاء ما لقيته منك من رأفة ورفق وموادعة ! ...

— اذن فانت ما زلت تذكر ...

— نعم اني مازلت اذكر جميل صنيعك فلقد ضاعفت في المثوبة واجزلت في الاجر وحملتني من هداياك وعطاياك ما لا استطيع نسيانه !

— ولكنني ما جئت لأحدثك عما اعطيت !

— اذن ؟ ...

قال اني جئت لأكمل حديثاً شرعت في قصه عليك ثم لم اتممه فهل انت حاضر لاستماعه الى النهاية ؟

— نعم

— ادخل بي الى حجرتك ، واحرص على ألا يسمع حديثنا احـــد ! قل لي ايسا كنك قريب في منزلك ؟

— ان منزلي خلي إلا من فتاة صغيرة هي اختي

فشحب وجه فروة ، ولكنه تجلد ومضى قائلا :

— لقد رأيت هذه الفتاة وتحدثت اليها ؛ امض بي الى حجرتك واعلم ان رجالي يقيمون على حراسة الطرق ؛ اراك في ذهلة فهل روعك امري ؟ ام اخافك اني هبطت دارك في حاشية من الفرسان ؛ اقسم لك ان اضعف هؤلاء الذين رأيت لا يخاف قيصر ولا يهاب كسرى ...

ولكن كريستيا لم يجب بل شق طريقه الى مثواه الصغير فترجل فروة عن فرسه وسرحه في الغيضة ، ومشى الى جانب الشاعر حتى دخل به الى حجرة تطل على الاردن وكانت سافو في خلال ذلك تنظر من الشرفة الى الطرق المجاورة وتتأمل في حركات الفرسان الذين صحبوا فروة ولم يدخلوا معه الى بيت الشاعر

ولما جلس فروة على مقعد في الحجرة حيال كريستيا قال له :

— اني محدثك قبل كل شيء عن هذه الفتاة التي تعيش معك فانتفض كريستيـا وشعر بخطورة الاحاديث ولكنه تجلد وتابع فروة حديثه قائلا :

— اصدقني الحديث . فهل هذه الفتاة التي تسميها سافو اختك ؟

— ايعنيك امرها ايها المولى ؟

— نعم !

— نعم انها اختي فهل سمعت عنها حديثاً لم يعجبك ؟

— كلا ولكني رأيت صورتها وسمعت صوتها فهزتني الصورة كما هزني الصوت

— اذن فانت تحبها ايها المولى ...

— نعم اني احبها وقد اصبح امرها شاغلي ... انت تعيش في هذه البلاد عيشة حالية بالبؤس وما من ثروة في يدك تدفع عنك مكروهاً ؛ وليس في وسع تماثيلك

البـاردة الداهلةان تدنيك من شهرة تطمح اليها ، او تقربك من رجاء تحب تحقيقه ، وقد علمت من احاديثك ومن احاديث الناس عنك انك تفتش عن المجد ولكن المجد ياصاحبي لا يصدر عن ولعك بنحت الحجارة ، وقرض الشعر !

— ماذا اصنع اذن ؟

— انت في حاجة الى من يجعلك تحت كنفه فاذا عثرت على الرجل الذي يحميك كانت لك القدرة المواتية على رعاية مطامحك وانمائهـا وبلغت سؤلك من المجد ، اتدري ان هذا العصر الذي تعيش فيه لا يسوغ لامريء ان يرفع رأسه لانه عصر هراقليوس لا اقل ولا اكثر !

قال : ولكن من عسى ان يكون ذلك الرجل الذي يتولاني برعايته ، من يكون هذا الرجل الذي لا يدانيه قيصر في عنفوانه وكبريائه ؟

فقرع فروة بيده على صدره وصاح :

— أنا هو ذلك الرجل الذي تسأل عنه ! فاذا زوجتني اختك كان لهذه الفتـاة الامركة من شاطيء ايله الى الاردن وبلغت انت ما تحب من الشهرة والمجد

شعر كريستيا وهو يستمع لحديث فروة انه يوشك ان يحقق حلمه الواسع ، ألم يقل كريستيا لسافو منذ لحظات ان من ارضى الاماني الى نفسه ان يراها سيدة ايلة واميرة البلقاء

ومع ان فرحته جاوزت المدى فقد حرص ألا تبدر منه بادرة تفضح شعوره فظل ساكنا حتى امض سكوته فروة فقال له :

— الا يسرك ان اكون صهرك ؟

— ولكن سافو فقيرة . وهي على شديد فقرها امرأة مجهولةمنك ومن عالمك

قال ان فقرها لا يهمني كثيراً فانها ستصبح اميرة ايلة وسيدة البحر والبر من تيماء الى سيناء ومتى ذاع امرها وعرف الناس انها صارت تحت كنفي لم يمنعوهـا الوقار والحب والاجلال ... قل لي اراض انت عن زواجي بها ؟

وكان فروة يتكلم بحماسة ففطن كريستيا الى الجد في حديثه فقال :

لقد رضيت ايها المولى ...

فابتسم فروة ابتسامة نمت عن فرحه وقال : لأنادينهـــا من هذا اليوم باحب الاسماء الى نفسي !

ــ وهذا الاسم ؟

ــ عفراء ! ذلك اسم كان لأمي البـارة الشفيقة فاحببته لزوجي ... فاين هي عفراء ومالي لا اراها ! . . . ؟

لقد كان كريستيا شريفاً وكان رفاقه يحبونه من اجل حرصه على احسن السلائق فلما انتبه الى اثر الحب في حديث فروة ، ولمس صراحته واخلاصه شق عليه ألا يعرف الرجل النبيل الذي حبس نفسه على حمايته شيئاً من الماضي فاحب ان يحسر عنه رجاة ألا يفوته قليل او كثير منه ، فالتفت الى فروة وقال له بلهجة هادئة :

ــ اني ليذهلني ألا تسألني عن هذه الفتاة ، وألا يهزك شيء الى ما ضيها . .

قال :

اني ابن حاضري الذي اعيش فيه فما ابالي ان تكون فتـاتك من اسرة وضيعة وليس بضائري ان اجهل ماضيا لا ينبغي لغير سافو ان تشترك فيه !

ــ ولـكني رجل شريف ومن حق الرجل الشريف ألا يخدع فارساً مثلك ! بل ان من حقي ان اقول لك الحقيقة مهما كانت قاسية ومؤلمة !

ــ قل ما تعلم عن الماضي ...

ــ ان لهذه الفتاة التي تحب اسما غير هذا الاسم الذي يعرفه الناس ! اتدري ان اسمها سافو !

ــ هذا امر لا يعنيني كثيراً وقد قلت لك ان الاسم الذي اردنه لها انما هو اسم احبه وارعاه لأنه اسم امي ! . ان اسم عفراء اعذب من اسم سـافو وبعد فهل عندك شيء جديد غير هذا ؟

— اني اعرف مروءتك واعرف فضلك في الناس . واعرف اي قلب تحمله بين جنبيك واي هاجس نبيل يمر بخلدك ، وهذاكله ينزع بي الى الجهر امامك بما اعلمه انا وبما لا تعلمه انت أفتدري ان هذه الفتاة التي اردتها ضجيعة فراشك ليست من اصل وضيع ؟ ايها الفيلارك سيد ايلة الشجاع ان ســـافو عفواً ان اختي هذه قد تحدرت من اب عاش في جيله عيشة ممضة ثم انتهى الى نهاية ممضة حتى لقد ضرب الناس الامثال بسوء طالعه وصاروا يتحامون ذكره ، اتعرف اي اب هذا الذي احببت ابنته ؟

وبغتة خيم ليل من الشك على نفس فروة فاخذ يدي الشاعر في يديه وقال له ! من هو ؟ واي الناس هذا الرجل الذي هو ابوك وابوها معاً ؟

قال : اتعدني ألا تذكر اسمه نزلة اخرى ؟

— اعدك واقسم لك على وفائي بالوعد !

فصاح كريستيا صيحة الالم ! ربي بارك في قولي وعملي ونزه لسانيحتى لايخرج اسم ابي على شفتي كما تخرج اللعنة !

فرعش فروة وانثنى قائلا :

— لقد اخفتني فمن اي الناس انت حتى يخيفك ان تذكر اسم ابيك

فرق صوت الشاعر من الم وحزن وراح يصب في اذن الفتى العربي اسم ابيه فاكفهر وجه فروة وظهرت في عينيه ومضات تنم على شيء كثير من الخوف والالم ولكن نظراته ظلت مترعة بالرحمة والشفقة ثم جعل يتخافت بصوته :

— ان اسم ابيك يارجل ليس مما يحبه قيصر والبطريرك ولا رجال القصر في بزنطية

— من اجل ابي اردتك ايها الرجل النبيل ان تفكر في ارثك من الزواج ... انه ارث ضخم لاتستطيع ايلة ولا البلقاء ان تضطلع بوقره . ارث عافت القسطنطينية حمله وكرهت ان تنظر اليه . ارث ما اظن انسانا في هذه الدنيـا يسكن اليه . ارث عناصره البغض والزراية والنفور واللعنة . لقد ابيت حمله وابت اختي حمله ، ورضيت

اختي ورضيت ألا نكون اصحابه ولولا ضعفي وضعف هذه الفتاة التي تعيش معي ما تخليت عنه ولحرصت سافو عليه اشد الحرص بل لولا هذا الارث وهو مزيج من العار والذل لكان في ميسوري وميسور هذه الطفلة الغالية ان نطلع على الناس كما يطلع الفجر وكما يطلع الزهر

فصاح فروة :

ــ ولكني سأحب هذا الاسم كثيراً ، لأن عدوه هو عدوي !

ــ اذن فانت تكره ذلك الرجل ؟ ولم يستطع ان يمضي في حديثه لأن لسانه قد جمد على شفتيه ، ولأن الدموع وحدها قد كشفت عن ألمه بعد ان غسلت عينيه فقال فروة بلغة الرجل الساكن الوادع :

ــ نعم اني اكره هراقليوس ، فهو عدوي وعدو وطني وعدو قومي ، أندري مافعله تيودور شقيق قيصر وعامله على دمشق ؟ انك لا تعلم شيئاً من امر هذا الرجل الذي عاد مزهواً بسلطان اخيه ، حتى حمله زهوه على أن يعبث بميراثي من ابائي ! فان لي في سلع قصراً اورثني اياه ملوك من قومي تعاقبوا على سلع ومعان والاردن وحوران ، احب تيودور ان ينازعني فيه فابيته عليه . فاحفظه رفضي فنزع نزعة الرجل الرعديد وذلك لأن تيودور لم يكن يعرف في حياته صفة الرجل الشجاع ! انظر الى حصادي منه :

خرجت مع قيصر الى قتال الفرس فلما عدت باسلاب كسرى خرج شيوخ قومي الى مقاصير الطرق وقد جزوا نواصيهم فارمضني ان تجز هذه النواصي في يوم من ايام كبريائي وسألت الناس ما خطبكم فقالوا : ادخل وانظر ، فدخلت القصر العتيق القديم فاذا تلك التماثيل التي رفعها آبائي على ابواب القصر تخليداً لمآثرهم قد تداعت الى الحضيض فما ان صافحت عيناي هذا المشهد حتى فهمت هذا العار الذي لحق بشيوخ قضاعة وجذام وطي وادركت لماذا استساغ هؤلاء الشيوخ الذين افنوا اعمارهم الاولى في المعارك الماجدة ان تجز نواصيهم ، لقد كان تيودور صاحب

هذه الفعلة فهو لم يستطع ان ينزل غضبه بالاحياء فانزله بالذين غمرتهم سدفة العفاء ومنذ ذلك اليوم اقسمت لأنتقمن من تيودور ولو احتواه المعبد المقدس في ايلياء !

لقد قال تيودور لرفاقه انه لا ينبغي لعربي ان يرفع نصباً بجانب نصب قيصر ! وقلت انا لرفاقي انه لا ينبغي لقيصر ان يرفع نصبه في مكان ارتفع فيه نصب لجدي! ومع ذلك فقد مضى تيودور في عمله ، فاقام على الراية المطلة على القصر تمثالا لقيصر المنتصر على كسرى ، فروعني عمله واحفظني ان ينحت تمثال الطاغية من حجارة الوطن المروع المستعبد ! بل لقد روعني ان يمر شيوخ قومي بسلع في الصباح والمساء فيطالعهم تمثال الرجل الذي اظل شبحه الراعب ارض الوطن ! قل لي اتستطيع انت ايها النحات البارع ان تجعل من تمثال قيصر تمثالا لجدي ...

فصاح كريستيا : نعم اني لمستطيع ان استعيض عن هذا التمثال الدال على العبودية بتمثال يدل على الحرية !

فحدق فروة في عيني كريستيا فاذا هما قد عادتا مشبوبتين مضطرمتين فراقته هذه الحماسة البالغة ، ولذ له ان يرى على جبين الشاعر صورة الرجل الصليب الشديد فقال له:

— قل لي متى تذهب معي الى سلع ! ؟

قال في هذه اللحظة اذا شئت ! فقال سيد ايلة :

— اني افضل ان تشرع في عملك بعد ايام على اني ارغب ألا يفوتك معنى ذلك التمثال الذي احب ان يرقى الراية التي عليها تمثال هراقليوس ! فلقد يستطيع ذكاؤك ان يخلع على الحجارة ذلك المعنى الجليل الرائع ! ...

في ذات عشية دخل الملك الحارث الثالث النبطي الى حجرته يريد عينيه على اغفاءة هانئة فما استطاع الى ذلك سبيلا . وذلك لأن هاجساً مقدساً كان يمر بنفسه فيثيرها ويمنعها ان تهدأ وتسكن : وكان هذا الهاجس النبيل يحفز الملك العربي الى دمشق ، الى المدينة التي اذلها الرومان والاغريق ! فجفا فراشه وانطلق الى الروابي المجاورة لعله يستريح من ذلك الهاجس ، ولكن خيال المدينة العظيمة ظل يستثيره

ويضرم حماسته فعاد الى معسكره واستنفر فرسانه واوادهم على الذهاب الى دمشق . فما تردد واحد منهم في اللحاق به لانقاذ المدينة الخالدة من عسف الرومان . ثم بلغ دمشق بعد معركة اضاع فيها الرومان الشرف والمجد واقام معبداً للات والعزى بجانب معبد جوبيتير ! ثم مضى في زحفه الى جبال التترين (١) فاستخذت لهوترامى بجيشه اللجب على السهول الفيحاء بين بيروت وجبيل وابى ان يؤوب الى دمشق قبل ان ينهض تمثاله على سيف البحر في بيروت (٢) ثم وهب هذه المقاطعة الجميلة لأخيه مالك (٣) وضرب النقود باسمه تخليداً لذكرى انتصاراته الباهرةفيشواطىء سورية (٤)

ولما رجع الى سلع ليموت في الارض التي احتضنت عظام ابائه اوصى النحات رئبال ان يصنع له تمثالا من حجارة الوطن ، وقد كان هذا التمثال مرتفعاً على قاعدة ضخمة من اصلاد جيء بها من جبال مواب السمراء ، ومثل النصب الحارث النبطي ممتطياً صهوة جواده ويده تشير الى ناحية دمشق (٥)

لقد اباد الرومان واخلافهم بعد قرن عرب النبط ولكنهم لم يستطيعوا ازاحة هذا التمثال عن مستقره ثم ورثت تدمر اسلاب هذا الماضي الرائع ، ثم ذهبت تدمر وادرجت في رمال العفاء ولكن التمثال ظل مستبقياً روعته وظلت يد الملك الحارث تومض الى دمشق فلا يراه عربي الا تلظت حميته واحتدمت حماسته ومضى يفكر في دمشق ! وجاء عصر هراقليوس وهو العصر الذي نعيش فيه فجرؤ تيودور على تحطيم التمثال لأنه لا يريد ان يرتفع في الارض التي تخضع لقيصر تمثال يهيب بالناس الى تذكر ما فرط من ايامهم الماجدة ! انك لتحسن عملا يا كريستيا اذا اعدت التمثال الى سيرته الاولى فلا يشعر الذين هزتهم روائع الماضي بانفصالهم عن هذه الروائع : ويظل شبح الملك الحارث على ذموله وركوده حاديا بالناس

---

(١) جبال ايترين هي جبال لبنان

(٢)و(٣)و(٤)و(٥) تاريخ بطرا والنبط لكامرر ج ١ ص ١٥٥

جميعاً الى ايثار دمشق ، أفقادر انت على تمثيل هذا المعنى ؟

قال كريستيا بلغة هادئة :

— نعم اني لقادر على تمثيل ما اردت !

ولكن عيني الشاعر المثال كانتا تتأملان في صورة فروة بن عمرو ، وكانت هذه الصورة قد مثلت له معنى جديداً اخافه وارعشه فغمرته موجة من ذهول وجنون ففطن الجذامي الى امره فقال له :

اني اراك تنظر الى وجهي بعينين قلقتين فماذا رأيت على هذا الوجه ؟

ولم يكن في ميسور الشاعر ان يخفي هذا الهاجس الذي طاف بنفسه فقال له :

— نعم اني رأيت شيئاً جديداً على وجهك ! ولكنه شيء جميل ومخيف معا !

قال : فماذا رأيت !

— رأيت في صورتك روعة الصورة التي تمثل السيد المسيح في آلامه ! فهل انت مجيبي الى سؤلي ؛ قال فما هو سؤلك !

— قال :

— اني احب ان اصنع تمثالا للسيد المسيح على صورتك ! فرعش فروة وانثنى قائلا

— انها لفعلة خطرة ...

— ولكنه الفن ، فاني نذرت للمسيح تمثالا وما احب ان يفوت هذا التمثال جمال وجهك فانتفض فروة انتفاضة الصقر وقال :

ولكنك رهيب ايها الفتى كريستيا ! فاي حافز حفزك الى اختيار الالم رمزاً لفنك وعهدي برجال الفنون يخلعون على حصاد ايديهم الجمال والزهو والفرح فصاح كريستيا

— هذا هو فني وقد صيغ من ثلاثة عناصر عنصر سافو ، وعنصري انا ، وعنصرك انت ، سافو تمثل الألم ، وانا امثل البغض ، وانت تمثل الموت !

فقبض فروة على يدي كريستيا وشد عليها شداً مؤلماً وقال له :

— من علمك هذا الفن الشاحب ؟ فصاح الشاعر المثال :

– المي وهو ارثي من الماضي ...

– فاطرق فروة رأسه اطراقة البنة وهمس قائلا :

– لقد رضيت بفنك ! فليس بضـــائري ان يكون عنصري فيه عنصر الموت ولكني احب ان يجيء التمثال الذي اردتك على عمله كما احب واشتهي واحب ان تظل يد الحارث النبطي ممدودة الى ناحية دمشق ! والآن اين هي عفراء ! ناشدتك الله ان تهيب بها الي فاني احب ان يشهد الناس عرسنا في كنيسة اورشليم وسيكون قيصر والعالم الروماني كله من شهود هذا العرس !

وكاد كريستيا يجن من الفرح فانطلق الى ناحية الشرفة وجعل يصيح :

سافو ! سافو ! ... هلمي الي فلقد عثرت على حلمك ، انه لحلم رائع ، حلم يسع الدنيا ولا يضيق عن فتونها وجمالها وجعل صوته يخرج من فمه مجلجلا كالصليل فخرق سمع الفتاة وهي لاتزال على الشرفة تتمثل هذا الفتى العربي الذي ملأ حياتها دعة وصفواً وحباً فبرحت الشرفة وجاءت اليه تحث خطاها فلما حاذته ورأت جبينه المشرق واستمعت لضحكه العابث قالت له :

– ما الذي ابهجك يا كريستيا وفجر فمك بالضحك وقد كنت الى امسك الدابر شديد التعبيس ؟ ففتح لها ذراعيه وانثنى قائلا :

– تعالي الى ذراعي يا اخية فلقد جاء ذلك اليوم الذي املنا انتظاره في غير جداء ! وانبثق في غيهب حياتنـــا فجر جديد ، هو فجر المجد الذي افنيت عمري في البحث عن ضيائه !

قالت – لماذا عدت عن حزنك انت الذي لم يعرف الفرح في حياته ؟ !

قال لقد وعدتك بميراث ضخم من المجد . وقلت لك انك ستصبحين سيدة ايلة واميرة البلقاء فحققت الايام وعدي . وجاء امير ايلة في حاشية من فرســـانه ليحملك الى قصره في سلع ، وحيث قد ادبر هذا الليل الشديد الذي غمر حياتك واطل على نفسك ضوء عظيم السنى والسناء فقد وجب عليك ان تطرحي اسم

سافو لتطلعي على الناس باسم جديد ! ... فشحب وجه سافو ونازعها اجفال شديد فقالت :

ـ اكاد الا اصدق هذا الذي تقصه علي !

ـ اني ما تعودت الكذب ياغالية

فاستحيت سافو ولم تنبس فقال لها :

ـ انه ينتظر ان توافيه ...

ـ هو ؟ ..

ـ نعم فروة بن عمرو الجذامي فيلارك البلقاء

ـ أقال لك انه يحبني ؟

ـ لقد جن بك جنونا مخوفا ! واقسم ليدعون الى حفلة العرس كل هذا العالم الروماني ! تعالي ؛ تعالي ؛ فان الرجل ينتظر اطلالك عليه

وكانت ضعيفة في الاصل · فاورثها الحب الذي استفاق في صدرها ضعفاً جديداً . فما عاد في ميسورها ان تنافح فلحقت بكريستيا الى الحجرة فلما حاذت بابها فكرت في الرجوع الى الطنف ففطن كريستيا الىحيائها فاخذها بين ذراعيه ودخل بها الى الحجرة وهي تكاد تتداعى من الخوف والحياء ، ومن الحب الشديد المرهق ؛ وكان فروة بن عمرو قد اسرع الى الباب فلما ابصرها بين ذراعي كريستيا لم يفته انها مستحية فقال لها بلغة هادئة ناعمة :

ـ اقتربي مني ولا يذهلك امري فاني ماتخيرتك زوجا إلا لأن الله قد اختارني لك . اني احبك كثيراً ، افلا تحبينني انت ؟

فنظرت اليه نظرة متفحصة فاذا على جبينه روعة الشباب الضاحك ، واذا قلبها عاد يخفق فقالت له :

ـ سيدي الشجاع اني احبك !

فابتسم ابتسامة الآمل وقال لها :

— لقد نذرت ان احشد في موكب عرسك عظماء الرومان وعظماء العرب ؛ وسيكون ذلك بعد ايام

ثم اخذ يدها فاذا هي في برودة الصقيع فتوهمها خائفة فقال لها :

قري عينا فاني سأحمل الى سلع حيث تعيشين في قصور آبائي كل شموس الدنيا فيعود الدفء الى نفسك ويضحك فمك للحب والقبل ، ثم التفت الى كريستيا وقال له:

— سأراك بعد ايام في سيناء في دير هيلانة عند صفرونيوس الصالح فهو الرجل الذي اصطفيته ليبارك هذا الزواج ، اسامع انت وصاتي ؟

فتبسم كريستيا وانثنى قائلا :

— نعم سنتلاقى جميعاً عند صفرونيوس ؛ فقال فروة وهو يشد يد الشاعر الى لقاء قريب ثم انحنى على جبين سافو فقبله في كثير من الرأفة والحنو وقال لها :

— لقد كان اسم امي عفراء وقد علقته حتى لقد حملني ولعي به على ان اصطفيه لك فيا عفراء الحبيبة الى لقاء قريب في بيعة السيد المسيح فاغمضت عينها وراحت هامسة :

— الى لقاء قريب

وكان الحب قد اذهلها عن الاشياء والصور فلم تتنبه الى خروج فروة بن عمرو من الحجرة ولا الى لحاق كريستيا به الى جنة المثوى ولكنها استفاقت من ذهلتها العميقة على صهيل الخيل وصدى تكسر السلاح فاسرعت الى الشرفة فاذا عيناها تصافحان فروة وهو يمتطي جواده وقد ارعش الهواء رداءه المذهب وخطفت اشعة الشمس على سلاحه وتاجه الصغير فبهرها اللمعان والضياء ثم رأت فروة يلتحق بحاشيته ورأت كريستيا يعود الى المثوى ثم تطاولت فاذا فروة يتوغل في مقاصير الطرق بين بواسق الشجر ففهما ان يواري الشجر خياله وودت لو ان هذا الخيال يطالعها الى الابد ولما عاد كريستيا اليها قالت له :

— ماذا قال لك ؟ فصاح الشاعر :

قال لي انه يحبك ، وانه يكره هراقليوس ؛ فاصفر وجهها من الرعب ولم تجب.

الفصل العشرون

الربيع العشرون

في المساء الرقيق الناعم دخل كريستيا الى محرابه المقدس حيث الانصاب والدمى والتماثيل وحيث التصاوير الملونة تحسر عن اجمل وثنية عرفها العالم القديم، وحيث تجتمع فنون هذه الوثنية، الى جانب فنون النصرانية. وكان ينبغي للشاعر وقد بلغ سن العشرين في هذه الليلة ان يعيد هذه الذكرى وان يرفه عن نفسه ويتذوق لذة التأمل في صورة من صورة فيدياس او في رائعة من روائع بركليس، او في صورة هو مبدعها وصانعها؛ وكانت احب هذه الصور الى نفس الشاعر صورة لفيدياس تمثل الحب طفلا عاريا وقد ارخى قدميه الى مغيض ماء، وغورت الشمس فوق رأسه وتغايت الطير من حوله فابتسم الحب الطفل للماء الدافق الهـــادر وصفق بيديه الصغيرتين للشمس الغائرة وللطير الساجع، وللأفق المضيء المصحي، ومع ان كلفه بهذه الصورة التي تمثل ولعه بالسامرية، كان فوق كلفه بغيرها من ذكر الماضي فقد كان يشوقه ان يطوف عينيه بكل ما اشتملت عليه الحجرة من ودائع ومخلفات تتصل بالغابر البعيد من ايامه والقديم التليد من ذكرياته

ولم تكن هذه الصورة وحدها مثاراً لشجونه، بل كانت هذه الدار التي يعيش فيها ملتقى حظوظه واوهامه، ومستقر هواجسه واحلامه: فكان لا يقطع تفكيره في الصور الذاهلة الساكنة، الا ليفكر في سرحة الدار. وفي مغيض المـــاء وفي الازاهر الباسمة التي يرعشها النسيم الخفيف الرقيق، وفي الاماكن التي تركها نديه بوسوسة القبل ولذة العناق والتي لا تزال تحمل شذا لياليه الطوال..

فتح كريستيا النافذة المطلة على جنة البيت. فتراءت له الاماكن الوارفة الظل واستمع لهدير الماء في الاردن، ثم سرح طرفه في الصور والتماثيل، فاجتمعت،

لديه ذكرياته ، ووصل ما بين حاضره وغابره ، ثم استفاض على جبينه نور بهي فجعل يتحدث الى نفسه وعيناه تنظران تارة الى الصور ، وتارة الى جنة البيت .

« ما رأيت انسانا اصاب من التماع الحظ مثل ما اصبت ! فلقد نبهني قدري اللامع الى الفرح . فطربت وغنيت لان ذكرياتي حتى البعيدة منها مازالت ترتبط باشياء خالدة ومقدسة معاً ! بلى انها لمرتبطة بالاشجار والازهار والضفاف ، ثم ببعض النغمات العذاب ، انها اجتمعت لدي في هذا المساء فلا يفارقني خيالها في هذا النوار الضاحك على السفوح وفي الحدور وفي كل خطوة اخطوها الى منابت البنفسج والقرنفل ، بل انها لذكر باقية خالدة مازالت تطل علي حتى في حومان الفراشة وطوافها بالندي الرقيق من الازاهر .

انا سعيد ، ومغتبط بهذا كله اذ يخيل الي ان ماضي بدأ يزهر ويورق . كلما ازهر العام واورق ، وكلما ازهر الربيع واورق ، هذه النسرينة الراعشة على السفح هي كل عالمي الذي احب بل هي ماضي يشخص الي من خلال البراعم المفتحة بنظرات خضلة ندية !

ايتها الاوراد الساذجة الشاحبة لكم قصصت عليك في الليالي المواضي اشياء مبهمة وسارة ، لقد كنت في ذلك الغابر الذي انصرم انحني عليك في رفق وبر ، فخيل الي ويدي تعبث باوراقك انني عدت الى طفولتي اللاهية العابثة ، وانني سدت العالم كله ذلك لأن الطفولة لا تعرف العبودية ، ولا تؤمن بالسيادة . ولأن رغباتها وطمحاتها وشهواتها ولدت حرة طليقة فلم يستعبدها الرياء ولا الملق ...

ولكن كريستيا الذي اخذ ينظر الى معبد الماضي الدارس في كثير من اللهفة والحب والعبادة لم يستطع ان يمضي الى النهاية في حديثه عن الامل الباسم ، والحلم المتورد ، فغشيته وهو ينظر الى ماضيه اشباح حاضره ، فاستعاض عن النغم الباسم بالنغم الجاهم واخذ يهمس همساً اليماً ...

لا . لا . لاتصدقي ايتها الاوراد همس قلبي الكاذب فان هنالك حقيقة ممضة موجعة

وتلك هي حقيقة هذه الحياة التي احياها والتي تحفزني الى البغض والثأر . لقد جاء زمن كنت فيه ايتها الاوراد مسلاة نفسي العاثرة وملهاة مشاعري الثائرة . وكنت ابتسم لك لما رأيت العصافير تنهال عليك مغردة منشدة ثم طائرة الى الافق المديد حاملة الى الماحلين امثالي عزاء وسلوى ...

اواه ! لم يبق لي من اشعاري الضاحكات واماني العذاب غير صلاة هامسة في نفسي احملها من المكان القريب الى المكان البعيد واسمعها شاطيء البحيرة عند سفوح طبريا او اردها عند الضفاف الساجية المطمئنة ! او القي بها الى الاودية ليسمعها العدم الموحش والسكون المطاق ...

ولما اراد كريستيا عزوفا عن النافذة ليستأنف طوافه بالحجارة لقيته سافو حيال صورة لفيدياس وكان يخالها نائمة فروعها انتفاجئه وهو يصلي صلاته القاسية فقال لها

— كنت احسبك نائمة ؛ فهل سمعت صوتي لجفوت فراشك وجئت تبحثين عني

فنظرت سافو اليه نظرة حزن والم وقالت له :

— لقد اخافتني صلاتك كما اخافتني هذه الاشباح الذاهلة البـــاردة . أهذا كل ما اوحى به اليك فنك ؟

— سافو ! ..

— كريستيا !

— صفحاً فقد كنت اظنك تسبحين في هدوء احلامك لجئت اصب صلاتي في مياه النهر . ولكنهـا صلاة مخوفة وهي الى ذلك لا تليق بهذه الارض المقدسة التي اصغت الى صلاة الناصري

اتدرين ايتها الغالية انني جزت في هذه الليلة العشرين ربيعاً ؟ لقد اورثنا الماضي ذكريات كثيرة . ولكن هذا الميراث على اغباره وقطوبه لم يمنعنـا ان ننظر الى جنات الاردن كعالم لا ينازعنا فيه منازع فكنا نلهو ونستمتع على السفوح والحدور ونذهب لنبحث عن الظلال في الربا البعيدة ثم نفيء الى هـــذا البيت فاخلو الى

اغاني واشعـــاري وتحاين الى صلاتك ! وكنت ارى الطفولة سـاذجة بسيطة وكنت تلذين صفاءها واشراقها ومع ان ارثنا من الماضي هو ذلك الارث الذي تعرفين فقد كنا لا نحب ان نكبر مخافة ان يكبر هذا الارث معنـا ولـكن الطفولة جسر لا بد من اجتيازه الى العمر المفكر الصامت ؛ الى العمر الذي يجفو اللبـاس الزاهي ليلبس اللباس الجاهم ...

— لقد روعني ان تبلغ العشرين ربيعاً في هذا المساء !

— ألم اقل لأمي وهي تحتضر ان الطفولة لا تفهم البغض ولا تستسيغه وان الشباب وحده هو الذي يفهم البغض ويستسيغه وهو وحده صـــاحب الحق في القصاص ! لقد كبرت وكبر البغض معي وحيث قد كبرت وكبر البغض معي . فقد صار لزاماً علي ان اشد على عنق القاتل ، بلى لاشدن على عنق هراقليوس ولو كان في عرين الاسد ؟

— كريستيا ! لقد بدأ العمر الذي نخافه ...

— سيمر هراقليوس بطبريا في طريقه الى بيت المقدس ، وســأراه ، وسترينه انت في محفة من الذهب يلتف بها بطاريق الجيش وبطاريك الكنيسة ويظله علم خفق على مدائن كسرى وســأسمع وستسمعين دعاء الناس لقيصر العـائد باسلاب ملك الملوك ، وسأنظر وستنظرين الى فرح يخاطف على جبينه ، والى كبر في عينيه ، فيهزني ويهزك مشهد القتيل الشهيد . ويميدني ويميدك خيال امرأة برح بها الحزن فماتت في الارض الاجنبية : ...

— ولـكن قيصر زعيم الخميس العرمرم وصاحب الراية التي لم تدنس ، والمستظل بظل الصليب الـكبير ؟ ... وانت ، انت لا جيش لك تقوده الى مواطن النصر . ولا راية ترفعها على سور المدينة الذليلة الخانعة ، وليس في وسعك ان تستظل بالصليب المقدس فـكيف تمني النفس بقتله ! بل كيف تستطيع ان تصل الى محفته وحول هذه المحفة رجال من طراز تيودور واركاديوس وفلافيوس ...

— ولكن فروة بن عمرو الجذامي لا يسير في غير موكب ، ولا ينقل خطاه الا اذا ظللته الرايات الخافقة ، وقد قال لي انه مشاركي في بغضي وانه لا يحجم ان يغمس خنجره في صدر هراقليوس

فصاحت سافو :

— اذن فهذا العرس الذي اردتني عليه سيقبر زهوه وفرحه والوانه من دماء قيصر

— نعم ، بهذا قضى ابوك القتيل الشهيد ، وبهذا قضت امك التعسة ، وبهذا قضى في

— أيعلم فروة اسم ابيك ؟

— لقد ذكرت له اسمه فما ربع له قلب ، بل لقد رأيته ساعة القيت على مسمعه ذلك الاسم قد ارتد رقيقاً رحيما ورأيت في عينيه دمعة مارأيت مثلها في عيني صديق

— اذن فقد اردته على ان يموت ساعة ابتسم فمه للحياة وللحب ...

— سافو ! تذكري الماضي

— ماذا عساني ان اذكر من الماضي يا كريستيا ! دعني ناشدتك الله من هذه الذكر النائمة وهب شبابي للمرح والحب !

— لم اسمع ما تقولين ياغالية !

قالت : اني اتوسل اليك ان تهب لي زوجي البريء فلا تلقي به الى اللجج العابسة نعم اتوسل اليك ان تهب لي زوجي وان تهبني للحب والمرح والدعة ..

فضحك كريستيا ضحكة متشنجة واردف :

اتظنينني قاسياً حتى انتزع هذا الفتى الذي تحبين من صدرك والقي به الى اللجج من قال لك انني لا اهبك للحب والمرح !

— كريستيا !

وحاولت ان تتكلم فعصاها الدمع وحبس لسانها الشجن . فانساق كريستيـــا لبكائها وقال لها بصوت خفيض ساكن !

— اتبكين ياسافو ! ... الا فاعلمي انني وهبتك للحب وللمرح ، في ميسورك

ان تفتحي قلبك للرجل الذي احببت وفي ميسور الرجـل الذي احبك ان يشرب الرحيق من شفتيك ! ... ولكن دعيني وذكرياتي ؛ دعيني ناشدتك الله انتزع من هذه الذكريات صورة يهمني ويهمك ان انظر اليها لأنها وديعة مقدسة ولأننا كنا نحرص عليها حرصنا اليوم على الحياة

انظري الى هذه الصورة ، تأملي في الوانها وفي خطوطها المضيئة اللامعة ثم قولي لي ماذا رأيت ؟ اذا كنت لا تستطيعين ان تنظري الى هذه الصورة فاني زعيم بوصفها لك !

هنالك على الذروة المطلة على البحر قصر فخم ، تمتد على اطرافه خمائل ريا بعطر القرنفل والورد . وهنالك بيعة كبيرة تجاور القصر ، وهنالك طفلان يلعبان بالحصى ويتراشقان بالزهر في الخمائل الريا بعطر القرنفل في الصباح والمساء ! لقد كان قلباهما بريئين . وكانت خواطرهما صافية هادئة ، وكانت احلامهما بيضاء كالثلج . وكانا لا يخرجان من القصر الا الى الكنيسة العظيمة ، ثم يعودان الى جنة القصر بعد الصلاة ليلعبا بالحصى او ليتراشقا بالازاهر ! وكانت عيون الحرس والجنـد والحـاشية الكبيرة ترعى هذين الصغيرين ولكنهما لم يكونا قادرين على فهم هذه الرعاية وكان كل ما يهمهما من هذا العالم ان يوغلا في الضحك وان يجمعا الازاهر ويركضا وراء الطيور الصغيرة في غابة القصر !

في ذات صباح خرج الصغيران من ذلك القصر الى الكنيسة المجـاورة مع الوصائف فصليا صلاة الناس جميعاً ، وهتفا بالدعاء لقيصر الذي يسود العالم باسم الناصري ! ثم رجعا الى الغابة واخذا يطاردان صغار الطير وعيون الحرس والوصائف ترقبهما عن بعد ! ثم توغل الصغيران في الغابة فحجبتهما بواسق الشجر عن عيون الحرس ، ثم اجتازا الغابة الى شاطىء البحر وجعلا ينظران الى الفلك والى السفن والى جيش عظيم من الناس احتشد على الشاطىء

لم يكن في وسع احدهما ان يفهم البواعث التي حفزت الناس الى الخروج من

بيوتهم الى الشواطي. فعكفا على اللعب وفتحا نفسيهما لاهواء الطفولة ' . .

في تلك الاثناء تراكض الناس الى القصر فاحاطوا به من كل جانب ثم توغلوا في جنانه وخمائله وايديهم تشد على الفؤوس والرماح ، واصواتهم تهز الافق !

وكانوا يصيحون : الموت للطاغية ! الموت للطاغية ! . . .

ثم ركب هؤلآء الاسوار والشرفات والاطناف ، وتدفق سيلهم على الابراج والابواب وقد لحق بهم الرعاع والشذاذ وقطاع الطرق واللصوص !

وكان الصغيران يلهوان على الشاطيء فلما عرض لهما هذا المشهد تولتهما رعدة عنيفة فارتدا الى الغابة وهما يبكيان ولا يدريان سبب البكاء ! وكانت الغابة واسعة كالأفق، عظيمة كالشاطيء فلم يستطع الطفلان الاهتداء الى القصر فجعلا يناديان الحرس

اين انت يا كاسياس ! اين انت يا فيليب ! لماذا لاتسرع الينا ايها الفتى ميناس!

وعلى هذه الصورة طفق الصغيران يناديان رجال الحاشية والغابة الفيحاء تبتلع صوت الطفولة . فلا يسمعه احد من الحرس ! فلما يئسا من الحاشية ومن الوصائف جعلا يناديان ابويهما فصاحت الطفلة ، ذلك لأن احد الطفلين كان طفلة في ربيعها السابع ' اين انت يا ابتاه ؟ لماذا لا تسمعين صوتي يا امي ! ... وصاح الطفل وكان غلاماً في ربيعه التاسع ، ابي ! امي ! ولما استيقنا من الخيبة هتفا باسمي ذينك الابوين اين انت يا موريس ؛ اين انت يا تيوفانو اتذكرين يا سافو هذه الحادثة جيداً : كان اسم ذلك الوالد موريس وكان اسم الوالدة تيوفانو ... لقد كان مقام قيصر في الشالسيه وكان مصلاه في اياصوفيا ، اضرم الرعاع وقطاع السبل النار في جوانب القصر وامتد اللهب على حواشي الغابة فانحسرت الطرق امام الطفلين وشهدا النار تأكل الابراج والشرفات واستمعا الى صليلها الراعب ثم لم يفتهما طريق القصر فاوغلا فيها

في تلك الاثناء اطل كاسياس المربي من بعيد فلما عرفه الصغيران نهدا اليه باكيين وقال الفتى : اين كنت يا كاسياس فصاح ذلك الشيخ الشجاع حذار ان تتكلم فاني اخاف ان يسمعك القتلة فقال الفتى وقد تجون جبينه من الرعب ؛ اين ابي ! اين هي

امي ؛ ولكن ذلك الشيخ لم يتكلم بل راح يلقي نظرة رثاء وتوجع عـلى القصر ، ثم احنى ظهره وقال للصغيرين تسلقا كتفي ولا تتكلما ! ففعلا ...

وبعد قليل خرج كاسياس من الغابة بالصغيرين الى الشاطيء المقفر فاذا هنالك زورق ؛ واذا بعض رفاق كاسياس يملئون الزورق ، فصاح بهم ذلك الشيخ الشجاع لقد أنجيت الاميرين الصغيرين من الحريق ، ومن الموت ؛ ثم قذف بالطفلين الى الزورق فتلقاهما رفاقه ثم لحق بهم وقال : الى جزيرة برنكبو ... الى منزل اسرتي بجانب المعبد الدارس ! فصاح جميع من احتواهم الزورق ، وقيصر ؟ فتنهد كاسياس وقال : لقد نجا مع كريسبيوس الشاعر فاطمأنت نفوس هؤلاء الذين غامروا بالحياة زلفى لقيصر وصاح احدهم وتيوفانو ؟ فقال كاسياس انها تحت حماية البطريق بوليوس رئيس الحرس ، ولم يستطع ان يطيل في وصف الكارثة التي هزت بزنطية في ذلك الصباح فقال لصحبه انطلقوا الى برنكبو فما قليل يوافينا الرفاق اليها ومعهم موريس وتيوفانو واولادهما الخمسة ...

وبينما كان الزورق الذي امتطى كاسياس غاربه يضع حمله على شـاطيء برنكبو كان الامبراطور موريس تيبار واولاده الكبار يصعدون الى قرية منعزلة بجوار نيكوموديا وكان فوكاس ذلك الثائر المشوه والجندي المخوف الذي هـاجم القصر بسرب من الرعاع راكعاً تحت قدمي البطريرك قرياقوس الذي البسه تاج القياصرة تحت قباب كنيسة القديس حنا (١)

وفي ذات صباح خرج موريس من مثواه في القرية المنعزلة ليصلي في معبدهـا ففطن الى امره رجال كان قد ارادهم على اللحاق به فشدوا وثاقه وجاءوا به الى شاطيء اثروب وفي عشية باردة من عشيات شهر تشرين الثاني جيء بقيصر الرومان

(١) بدأ حكم فوكاس في تشرين الثـاني « نوفمبر » سنة اثنتين وستمائة وفي ذلك اليوم لبس التاج في حفل عظيم وفاقا للتقاليد البيزنطية ، البسه اياه البطريرك قرياقوس في كنيسة القديس يوحنا بالقسطنطينية ودخل المدينة من الباب الذهبي فسار فيها بين صفوف من العمد والناس يهللون له . «المؤلف»

موثق اليدين الى الشاطيء المقابل لدار ملكه فرأى القصر وشهد كنيسة اياصوفيا والبحر والشاطيء والجنات الحاليات بالنارنج فرق واستدمع ولكنه ظل رابط الجأش وقابل تعاسته بفلسفة عالية (١) ولكن شممه لم يهز قلوب اعدائه فاوغلوا في تنكيده وتعذيبه وقتلوا بنيه الخمسة تحت عيونه فصبغت دماؤهم الذكية نفس ذلك الرجل النبيل الذي تحمل آلامه في كثير من الكبر فرفع يديه الى السماء صائحاً « انه لا يخيب من علق بعدلك واستراح الى حدبك ورأفتك ، ثم قدم رأسه الذي وخطه الشيب الى الجلاد عن كثب من الوف المتفرجين ولما انتهى جلادوه من فعلتهم رموا به وبنيه الخمسة الى البحر ، وحمل رأسه مع رءوس بنيه الى فوكاس وهو في معسكره في ميدان ابودمون في بزنطية . وفي تلك الليلة نفسها قتل كريسبيوس شاعر قيصر على مشهد من الرعاع واللصوص ، فذهب شهيد الوفاء وطارت روحه الى السماء تشكو الى الله فوكاس وقسوته !

لقد حدث هذا كله بينما كانت تلك الامبراطورة التعسة تنتظر مع البطريق يوليوس معاد ذلك الزوج التعس ، وكانت كلما سمعت حفيف غصن في الغابة المجاورة لبيت يوليوس او خرق سمعها هدير الموج على الشاطيء تجفو مثواها المنعزل وتقف على الشرفة لتتعرف الى تلك الاصوات التي سمعتها وهي تحسبها اصوات الرجال القلائل الذين حرصوا على وفائهم لقيصر ولكن هذه التعسة التي املت في رجعة زوجها واولادها لم تكن تدري ألا معاد للذين غيبتهم سدفة الموت ، ولما علم البطريق بالحادث الرائع حرص ألا يذيعه ولكنه جمع حقائبه وقال للامبراطورة في ذات عشيه ان الامبراطور قد افلت من مطارديه وانه يعيش في قرية بجوار رافين على سيف البحر مع كريسبيوس وكان كاذبا ولكن الكذب كان وسيلة هذا الرجل النبيل الى تسكين آلام المرأة التي خسرت في زمن واحد اولادها الخمسة وزوجها الامين

---

(١) كتاب جزر الامراء لغوستاف سيشلمبرجر ص ٩

ولما لحق كاسياس بالبطريق يوليوس الى رافين وشهدت المرأة التعسة ذينك الصغيرين اللذين لم يستطع فوكاس وصولا اليهما وسألت عن بنها الخمسة وعن زوجها الذي تنتظر رجعاه لم يستطع كاسياس ان يمنع عينيه من البكاء ، فخسر عن الحقيقة وباح للمرأة بما لم يستطع يوليوس الشجاع ان يبوح به فراحت غاشية وعلى صدرها ذانك الطفلان

لقد عشنا معاً باسافو تحت حماية يوليوس وكاسياس في تلك القرية المنفردة بجوار رافين فدرست على كاسياس المربي فن التصوير والنحت ، وعلمني قسيس القرية فوتيوس ادب الاغريق ؛ واقرأني ما حرمته الكنيسة . من اشعار سفوكوليس واريستوفان ، وكانت امك خير الامهات ايتها التعسة !

وكنا ونحن في رافين نرقب ما يعمله اولئك الذين برح بهم ظلم الطاغية فوكاس وجميع هؤلاء من اصحاب موريس ورفاقه ومن رجال حاشيته ، وكان هراقليوس لا يزال والياً على افريقية يحكم البلاد باسم موريس ، فلما علم بتلك الخاتمة البشعة التي صار اليها موريس صاحب الفضل عليه ، احفظه ان يموت مولاه واولاده الخمسة تلك الميتة البشعة واقسم ليثأرن بالقتيل وقال امام الذين ظلوا امناء لقيصر انه لا يريد الامر لنفسه ولا يبغيه لولده ولا لاحد من ذويه ، ثم خرج من افريقية باسطول ضخم حشد فيه جميع الجنود الذين رفضوا ان يدينوا لفوكاس ! وجاء الى سالونيك فجعل معسكره فيها وبعث باصدقائه ورسله الى المدن ليبحثوا عن تيوفانو وولديها الصغيرين ؛ واقصى همه ان تطمئن المرأة التي خسرت رجلها واولادها الى مصائر ولديها والى مصيرها هي نفسها ، فوافاه الرسل بالنبأ الصحيح ودلوه على القرية التي هاجرت الامبراطورة تيوفانو اليها مع تلك الحاشية الصغيرة المؤلفة من البطريق يوليوس وكاسياس الحكيم المربي وفوتيوس الراهب فسار هراقليوس بنفسه الى رافين وجاس خلال القرية المنعزلة ورأى ذلك المنزل الحقير المتواضع الذي آوت اليه امبراطورة الرومان فرق وبكى واقسم امامها لينزعن فوكاس من فراشه ويرمي بجثته الى الكلاب والخنازير ، ثم اقترب من الطفل وركع امامه وحياه بتحية القياصرة وقال له انت ملكي ومولاي وسيكون لك قصر الشالسيه ، وكنيسة

ايا صوفيا : والرداء الارجواني والتاج الذي ازهى به القياصرة على ملوك الدنيا
اطمأنت التعسة تيوفانو الى حديث هراقليوس ووثقت بوفائه فتنكرته باسمها وهي المرأة التي لم يترك لها الجلاد غير قلب يفيض بالحزن وغير الذكر القاتمة الجاهمة وانطلق هراقليوس الى بزنطية ، ولكنه لم يذهب وحده بل ذهب معـــه البطريق يوليوس ليقود في القسطنطينية اتباع موريس وانصاره ؛ ولبثت تيوفانو في رافين مع ولديها عن كثب من قسيس القرية فوتيوس ومن ذلك الشيخ الشجاع كاسياس
لقد كانت تريدني وريثاً لقيصر فما ادخرت وسعاً في ارواء نفسي بشمم الذين تقدموا ابي من ملوك حكموا العالم وجعلت تقص علي فتوح ابي في فارس وارمينيا ثقة منها ان هذه الاقاصيص تثير رجولتي وتبتعث حماسي وتجعل مني ذلك الرجل الذي لا يتعبه المجد مهما تكن سبيله قاسية ، وكان قسيس القرية يريدني على حيـــاة هادئة ناعمة فحشد في رأسي خيال الشعراء والهب حماستي في حديثه عنهم ، فاخفقت الامبراطورة في الذي ارادته ، ونجح الراهب في الذي اراده : فاذا نفسي تمور بهواجس الشعراء واحلامهم واذا هي تعاف احاديث امي عن الملاحم والوقائع وعن الحياه الزاخرة بذكريات المجد في قصور بزنطية
لقد كان كسرى حليفاً لأبي فلما بلغه موته على تلك الصورة البشعة حزن حزناً شديداً فخرج بجيشه اللجب الى الشـــام فاوغل فيه وواصل زحفه حتى تم له فتح انطاكية وحتى ضرب خيامه على الشاطيء المحاذي لبزنطية (١) في تلك الاثنـاء تم

---

(١) تذرع كسرى بالانتقام لموريس من قاتله ففتح ارمينيا وارسل قسماً من جيشه الى الجنوب ففتح الشام يريد بذلك ان يفتح القسطنطينية وقد كان سيره بطيئاً فلم يكد يفتح انطاكية حتى نادى هراقليوس بنفسه امبراطوراً على الرومان ولو صح ان الباعث لكسرى على اجتياح الامبراطورية البيزنطية انما هو الانتقام من فوكاس لكان موت هذا الطاغية نهاية للنضال ولكن ملك الملوك كان يحلم بالاستيلاء على الامبراطورية الشرقية ولم يكن خياله بعيد التحقيق فقد كانت جيوشه اكثر عدداً واتم عدة وكان قواده لا كفاء لهم في جيوش الرومـــان وقد كاد حلمه يتحقق اذ رابطت جيوشه حيال القسطنطينية واقامت معسكراتها وكان شعارها المصطنع في هذه الحرب « موريس » «المؤلف»

لهراقليوس والي افريقية ما اراده فثارت مصر وشعارها اللون الاخضر على فوكاس فاستغل هراقليوس هذه الثورة وامدها باساطيله . وثار انصار موريس في بزنطية بزعامة بوليوس الذي ذهب اليها مستخفياً ليجمع الانصار وكان شعاره اللون الازرق (١) شعار ابي ولما علم فوكاس وصاحب ماله ليونوتيس السوري ألا سبيل لهما الى الخلاص من هذه الجائحة اخذا كل ما في خزائن الدولة من الاموال والقيا بها الى مياه الخليج الذهبي فطوتها اللجج وبينما كانت اساطيل هراقليوس تهاجم القسطنطينية كان انصار الامبراطور موريس الذين يقودهم بوليوس يهتفون باسم قيصر الجديد ، اسمي انا الذي حبست نفسي على الشعر والتصوير والنحت في رافين ، وفي ذات ليلة تسلق انصار ابي اسوار القصر واخذت اساطيل هراقليوس المجتمعة من افريقيه ومصر وسالانيك تصب النار على المدينة فانفض انصار الطاغية عنه منذ اطلت الاعلام الزرقاء على الابراج وكان فوكاس في تلك الاثناء يخرج من دهليز في القصر الى كنيسة اياصوفيا مع ذلك السوري ليونوتيس فلحق بهما بوليوس ذلك الرجل الذي ظل على وفائه لموريس ومعه رجال ابي وجاء بهما الى ميدان السباق وعرضهما على الجماهير تحت عاصفة هائجة من اللعنات ! وكان الشعب يصيح ويهتف باسمي « ليعش كريستيا ! ليعش كريستيا » ثم اقتاد بوليوس فوكاس الى الفاتح هراقليوس وهو يومئذ في كنيسة الرسول توماس وقد ارعد الافق من فرط جنون البغض الذي استولى على الشعب الروماني (٢) في تلك الساعة الهائلة قرأ هراقليوس على فوكاس كتاب ذنوبه وقال له أهذا هو سبيل حكمك ؟ فقال له ذلك المشوه الدميم الخلقة وهل انت من يحكم خيراً من هذا ؟

فلم يطق هراقليوس كبرياء فوكاس فامر بقتله . فقطعت يداه اولا ثم بترت ذراعاه وشوهت خلقته ؛ ثم قطع رأسه وطيف به على قضيب في ميدان السباق ; واحرق في المكان الذي رمى به الطاغية فيه رأس ابي ورءوس اخوتي الخمسة وجيء بتمثال

(١) و(٢) كتاب فتح العرب لمصر لبتلر

فوكاس لحمل في موكب من الزارية والحقد والعبث ، حمله اناس يلبسون ملابس الرهبان وفي ايديهم الشموع مسرجة ثم القوا به وبصاحب ماله السوري ليونوتيس الى النار فا كل اللهب التمثال كما اكل جثة الخائن صاحب ماله !

وفي ذات ليلة وكان هراقليوس وجنده قد استراحوا من الجزرة في خيام منصوبة على شواطيء الخليج الذهبي دخل البطريق يوليوس على الزعيم المنتصر مع عشرة من ذوي الاعلام الزرقاء فقال له بلغة الرجل الذي اتم واجبه الاول ان بزنطية تنتظر على احر من الجمر قيصرها الجديد وقد تدفق الشعب على ميدان السباق بجوار مجلس الشيوخ وكنيسة اياصوفيا وجعل يهتف لقيصر ويسأل لماذا لا يتوج في كنيســة الرســـل ! ثم رفع صوته قليلا واردف : ان كريستيوس قيصر في رافين مع امه تيوفانو واخته سافو ورافين غير بعيدة فني ميسورك ان تنطلق اليه وتعرض عليه ولاء الشعب وتأتي به الى دار ملكه !

لم ينبس هراقليوس ولكن وجهه الذي اراق الانتصار على قسماته شيئاً من الرواء ما لبث ان تجهم فنظر الى يوليوس نظرة لم يسترح اليها ذلك الرجل الشجاع الذي كان يفكر في تلك الاثناء في الوفاء بنذره وللمرة الاولى استيقن يوليوس انه قد افرط في ثقته بهراقليوس وانه لم يحسن صنعاً في مجيئه الى خيامه مع عشرة من صحابه وفطن التعس الى انه كان ينبغي له ألا يخـــالط الذئب في مكمنه بين الوف الذئاب ومع ذلك ابت عليه كبرياؤه ان يفيء الى رجاله كما يفيء الرجل العاثر الجد فقال لهراقليوس : ما عساك ان تفعل ؟ وفيم هذا السكوت فلم يشأ هراقليوس ان يتكلم ولكنه حسر عن خيامه فاذا رجاله يخرجون اليه فحدثهم عن امر يوليوس وقال لهم وهو يومض اليه بيده : لقد جاء يسلبني النصر الذي ادركته بفضل سيوفكم فماذا تقولون ؟ فصاحوا صيحة الرجل الواحد ليمت يوليوس ثم احاطوا بالرجل الشجاع وغرسوا اسنتهم في صدره فسقط الرجل الشهيد تحت قدمي هراقليوس واغمض عينيه الى الابد !

لم ترع هذه المأساة قلب هراقليوس فاذن لصحابه في القاء جسد يوليوس الى البحر ففعلوا وطوت اللجج الثائرة في ذلك المساء الشاحب فكرة مقدسة استبسل اصحاب الاعلام الزرقاء في الدفاع عنها ، ثم تهافت ذئاب الطاغية على رفاق يوليوس المشرفة ينزعون الى ايذائهم فقاتلوا في كثير من الشمم حتى قتل تسعة منهم وسقط عاشرهم جريحاً فتوهم هراقليوس موتهم جميعاً فامر بالقائهم الى البحر العبوس المكفهر فابتلعت اللجج صحاب يوليوس التعس وافلت العاشر وكان افلاته لابد منه ليذهب في غده الى رافين ويحمل الى الامبراطورة تيوفانو نبأ هذه الكارثة التي انتهت بموت يوليوس وموت رفاقه التسعة !

وفي صباح اليوم التالي نادى الجند بهراقليوس سيداً على بزنطية وامبراطوراً للرومان فدخل المغتصب الى قصر الشالسيه دخول القياصرة ، وعند المساء البسه البطريرك التاج تحت قباب كنيسة الصالح استفن ، وكان اول عمل اقدم عليه قاتل يوليوس ايذانه لذئابه في المضي الى رافين وتسويغه قتل تيوفانو وولديها

وبعد ايام حط ذلك الرجل الذي افلت من الموت رحاله برافين فهبط القرية تحت غسق الليل وحام حول منزل تيوفانو من غير ان يجرؤ على خفق بابه وكان الليل بارداً وقد خرج كاسياس الى الغابة ليجمع الحطب فلما عاد الى المنزل الفى الرجل يدور حول البيت فرابه امره وهم بقتله لولا صيحة ابتدره بها الرجل فامتنع كاسياس عن فعلته وحدق في الرجل فعرفه من شعاره الازرق فهدأ واطمأن وقال له : ما اسمك قال اسمي بونيفاس ، افلست كاسياس مربي القصر في عهد الامبراطور موريس ؟ قال بلى ؟ قال ناشدتك الله ألا تؤجل امرك الى الغد فان هراقليوس قد عبث بالامانة وهدر دم يوليوس ولبس لباس قيصر في كنيسة الصالح استفن

وكان كاسياس ينصت لاحاديثه ، ولكن هذه الاحاديث الشجية لم تبدل سلائقه وغرائزه فخرص عليها رجاة ان تعينه على الصمود المكاره ولما دخل بونيفاس مع كاسياس الى الحجرة كان الطفلان يحلمان وكانت تيوفانو في غرفتها تصلي امام

صورة العذراء. فقص عليها كاسياس احاديث بونيفاس فتلقتها في كثير من الشجاعة والرزانة ومضت في صلاتها وسألت العذراء ان تمن على طفلها بالحياة !

وفي الصباح اقلتنا جميعاً سفينة صيد الى شواطيء ايطاليا فغابت عنا رافين الى الابد . وكانت هجرتنا الى فلورنسا ولكن الحياة لم تبتسم لنا تحت سماء ايطاليــــا المصحية فقد شعرت امي التي برح بها الالم بحاجتها الى ارض جديدة تنسيها مأساة حياتها وتغمر صدرها بنور من العزاء لطيف وكانت خيالة الارض المقدسة التي انبتت ذلك الناصري المجيد تستجيش حماستها وتحفزها الى مياه الاردن حيث غسل العالم الماضي ذنوبه وآثامه بمائه المقدس فلم يمنعها كاسياس صبابتها فمضى بنـا الى الارض المقدسة وانزلنـــا هذا المنزل الذي جمعنا وجمع آلامنا ومصائبنا كما جمع آمالنا واحلامنا !

مات التعس كاسياس من الحزن قبل ان تموت امي بثلاث ليـال ولما شعرت تيوفانو بالنهاية دعتنا اليها ونظرت الى شبابي نظرة الآمل ولكنها لم تكن تستريح الى عكوفي على نحت الحجارة وقرض الشعر فقالت لي ان الشعر لا يليق بالملوك فـاذا بلغت العشرين فاجفه واهجره وفتش لك عن حياة تليق بمن كان ابنـــا لموريس . وكانت في كل ليلة تجمعنا اليها لتحدثنا عن المجد وعن الفتوح وكانت عينـاها ابداً ناظرتين الى الماضي وكانت تتمثل وهي بين يدي الموت اعمدة اياصوفيا ورخام الشالسيه ولم تشأ ان تغمض عينيها قبل ان تطمئن الى صدوفي عن الشعر والنحت على الحجارة فاقسمت لاسفحن دم هراقليوس ؛ وماتت امي وامك ياسافو وهي مطمئنة الى قسمي !

لقد نسي هراقليوس ونسي العالم موريس واسرة موريس ومـــاتت تيوفانو غريبة في الارض الاجنبية كما يموت السوقة والرعاع ، وعشت انا وعشت بجانبي كما يعيش هؤلاء المغمورون المكدودون ، وسأموت وستموتين كما يموت هؤلاء ! فلا يحزن العالم لموتنا لاننا ضعفاء وفقراء ولأن العالم يكره الضعف ويحب

القوة ولأنه الى ذلك يعاف النظر الى الصورة التي علاها الصدأ ولا يأنس الا الى الصور الماجدة البارعة ...

اي غنم قبسته من عناصر حياتي ؟ لقد كانت هذه الحياة كثيرة العناصر ، وكان احبها الى نفسي عنصر الحب وعنصر الشعر . ولكن عنصر الحب قد قتل في الرجل النابه الرجولة والمروءة . واطفأ عنصر الشعر في روحه اضواء المجد . فاستعاض عن زهوه واشراقه بظلمة اليأس . ولما وجدتني لا استطيع النهوض بفروض الزعامة ، ورأيتني لا املك من حماسة القواد ما يجعلني كفؤاً لقيادة الخميس العرمرم رحت الى الحجارة والاصلاد اخلع عليها صور رجال الماضي ، فاتسق لي تجديد ابطال الزمن الخالي فما انفرط على حياتي الهادئة عامان حتى زخرت حجرتي بالتماثيل والصور ، ولكن تماثيلي وتصاويري ليست مما يروق الكنيسة لانها تحسر عن وثنية الاغريق فتحاماها الناس خشية ان تمتد اليهم يد البطريرك سرجيوس وهكذا بقي هذا العالم الذاهل الذي تحتويه حجرتي يخصني انا وحدي ، وبقي الاحياء من الناس على شديد نفورهم منه ، فانت ترين من هذا كله ان حياتي ليست مما يروق وانني مكره عــلى البحث عن حياة جديدة ، وان عالمي الذي يجمل به ان يردد اناشيدي ويتحدث عن مجدي ليس هنا على شاطىء الاردن عن كثب من الارض المقدسة وانما هو هنالك في قصور الشالسيه الملكية ، وتحت قباب اياصوفيا الذهبية ، لقد بلغت العشرين فمن حق شبابي علي ألا اميته برداً وقراً ، ومن حق شبابي علي ان اهب له عنصراً جديداً عنصر المجد الذي لا يفنى ! ... الى قصور الشالسيه ياغالية ! الى معبد اياصوفيا ايتها الصغيرة سافو ! ...

...

لم تستطع سافو العانية ان تخنق في صدر كريستيا موجه الحماسة الطاغية ولم تكن لها القدرة الكافية على نسيان هذا الماضي الذي جاء كريستيا يقص عليها ماغبر من مآسيه وصروفه وكانت لا تجهل تلك اليمين التي حلفها امام تيوفانو فقالت له :

— ولكنني اخاف عليك هراقليوس فانه محاط بالجيوش ، وليس في وسعك ان تقود جيشاً ...

— لقد قالت لي امي وقال لي كاسياس ايضاً حذار ان ترد خنجرك عن صدره ولو كان يصلي في الكنيسة ! ...

فجمعت التعسة يديها الى صدرها وقالت هامسة :

— اتقتله ؟

— نعم

— وكيف ؟

— سترين كيف اقتله ! انه سيجتاز طبريا بعد حين وسيتابع طريقه الى الناصرة فيصلي في مهد السيد فاذا رأيته جثم مصلياً على الارض شددت على عنقه ! ...

ثم ضحك ضحكة الرجل المجنون واطل من عينيه شعور نفسه بالالم فقالت له :

— لن تفعل ! ...

— ولماذا تريدينني على ألا افعل ؟ ..

— انسيت ان قيصر لا يصلي وحده ، وانه اذا ركع امام المهد ركع معه الوف من الغطاريف ؟ .

— وفروة ! انسيت فروة ، انسيت فروة بن عمرو ؟

— يا لجنونك ! يا لجنونك ! ...

— لقد قال لي فروة انه قادر على خنقه وان لديه جيشاً لا يرده عن غايته جيش قيصر ، أتسمعين؟ اسمعي ! ... انهم يهتفون لهراقليوس هتافا شديداً فما اضل هؤلاء الحمقى ! ... اسمعي انهم يهتفون للمغتصب الذي هدر دمي ودمك . افلا تهزك اناشيدهم يخيل الي انني اسمع صوت مارسيليوس ! بلى هذا هو صوت مارسيليوس ، اظنه قد جاء هذه المرة ليسألني الخروج الى قيصر باناشيدي واغاني . ما اشد فتنتك ياصاحبي القديم ! بل ما اشد ذهولك عن الحقيقة ! .. ألم اقل لك انني القيت

باشعاري وقصائدي الى النهر واني حطمت قيثارتي الى الابد ! ... اسمعي ! هذا هو صوت اركاديوس ، وهذا هو صوت صاحب آخر ! ما اوفر تعسك ايتها الصداقة التي ينسيها زخرف المجد الكاذب واجبها الاصيل . لو كان مـــارسيليوس وصحبه عقلاء لصدفوا عن النغم الماتع ولاستعاضوا عنه بطبول الحرب والقتال ...

— كريستيا ، من علمك هذا كله ؟ ناشدتك الله ان تتجنب الكلم البـارع فانه مصدر محنة لا تستطيع له صبراً ...

وكانت احاديث كريستيا عن الماضي ، وعن البغض والثأر قد روعتها فنظرت الى الحياة نظرة معتمة ، ولم تستروح الى مستقبل هذا الحب الذي شعرت به قبل ليال . ولما تراكضت اناشيد الناس الى سمعها وحدثها كريستيـا عن مارسيليوس لمست كارثة حياتها بيدها فرعشت رعشة باردة واخضلجبينها بعرق شديد واخذت تنظر ذات اليمين وذات اليسار كأنها تبحث عن معاذ يمنعها هــذا الهاجس الذي تسرب الى نفسها فافعمها بجنون الشك في هذا الحاضر الذي تعيش فيه ، وجنون الخوف من مستقبل لا تعلم خوافيه ، وكان كريستيا في خلال سبحهـا قد نهد الى النافذة المطلة على الغابة لينصت الى تلك الاصوات الصاخبة الثائرة فلم ير حزنسافو ولم يقدر له ان ينظر اليها وهي سادرة غاشية . ومع ان اناشيد مارسيليوس قد حفزته الى البحث عن صاحبه بين وجوه الجماهير فان شعور البغض الذي حرك حياته الراكدة في هذا المساء ظل يغمر نفسه فكره الاناشيد ، وفي تلك الاثناء اضاءت المصابيح والمشاعل حواشي الغابة فرأى كريستيا على نورها الغامر وجوه الاصدقاء والرفاق ولاح له مارسيليوس وهو يمشي الى جانب اركاديوس ، ورأى موجة من الجماهير تغمر الغابة وقد انحى الجميع ناحية البيت المنعزل ...

لقد هم اكثر من مرة ان ينقلب الى حجرته ؛ ليمنع عينيه مشهداً لا يحبه ولا يتطامن اليه ولكن صوت مارسيليوس العاصف ثناه عن فعلته ، فجمد في موقفه وظلت عيناه تنظران الى رفيقه والى هؤلاء الذين تدفقوا على الغـابة تدفق السيل

المنهمر ثم مضى مارسيليوس في زحفه ويده على قيثارته تستجيش اوتارها فيخرج منها نغم ماتع طرب له رفاق مارسيليوس ولم يطرب له كريستيا الحاقد !

وكان الاردن يفصل بين منزل الشاعر وبين الغابة . فربض مارسيليوس على الضفة وجعل ينادي كريستيا . فما هز نداؤه قلب هذا الفتى الذي استفاق البغض في صدره ساعة استفاقت الاناشيد في صدور هؤلآء الذين يعيدون ذكرى انتصار النصرانية على وثنية فارس ثم استأنف مارسيليوس نداءه فاستفاض صوته على نواحي الافق الوادع فكان الصدى رهيباً مخوفا

ــ كريستيا : كريستيا ، اين انت يا اخا طفولتي ؟

ولكن ذكرى الطفولة التي يحبها كريستيا ويكرمها لم تهزه الى مارسيليوس فحرص على صمته وحرص مارسيليوس على صياحه ؟

ــ اين انت ياكريستيا ؟ ولماذا لا تخرج الينا في هذا الليل ؟ أفاتك ان قيصر يوشك ان يدخل طبريا دخول الظافر ؟

وفي تلك الاثناء انحسرت السحب في الافق واستفاض ضياء القمر على منزل الشاعر فشهد مارسيليوس الطنوف والشرفات والاورقة . والابواب ثم شهد خيال كريستيا فلم تفته حقيقته فصاح :

ــ أهذا انت ؟ لقد اذهلني والله وقوفك على الشرفة وقفة الشبح فهل اشجاك امر فاخرسك وخلع عليك ذهول الموت !

وكان صوت مارسيليوس رقيقاً حلواً فحرك جرسه اهواء كريستيا فصاح :

ــ الا عم مساء يا مارسيليوس ! ولم يزد على ذلك حرفا فقال مارسيليوس :

ــ انحدر الينا فاني محدثك بنبأ قد ينزع بك الى نسيان همومك واطراح شجونك ! أفندري ياأخا طفولتي ان قيصر يوشك ان يدخل المدينة . هلم الينا واسمعنا اناشيدك اوضع لنا شعراً جديداً نردده جميعاً في تمجيد هذا اليوم وتخليده ! ...

فقال كريستيا بصوت مجاجل سمعه رفاق مارسيليوس :

ــ ألم اقل لك يا مارسيليوس في تلك العشية الفارطة ان اشعاري قد جمدت على شفتي وان ربيع حياتي قد استحال الى خريف وجيع ! ... انظر الى وجهي ملياً ، فماذا ترى على هذا الوجه الذي كان يمور بضياء الفتوة ؟ ألست ترى اثراً لشتـــاء الاحزان البارد ! لقد نذرت الا اقول شعراً بعد هذا اليوم ، وآليت ألا ابرح معتكفي حتى تغيبني ظلمة القبر ، وسأترك لاصدقائي في هذه الخميلة الظليلة النامية رمسي الشاحب يحجونه كلما حفزتهم اجراس المناسك الى الذكر الماضية اما انت فسيقدر لك في مستقبل غير بعيد ان تزور رمسي بجانب السرحة النامية ، وستقول وانت تنظر الى حجارة هذا الرمس افاء الله على كريستيا الرحمة فلقد ملأ هذه الاماكن بالندى الرقيق من الظلال ...

اواه ! كيف يجرؤ هذا الفتى الذي لا وطن له ان يقول لرفاقه ابن يترك رفاته !

ــ عهدي بك ايها الشاعر تحب الشموس اللامعة ، حبك للحياة الطـــافحة بذكريات المجد ، فاي كارثة اثيمة حفزتك الى شتاء بارد ، بل اي شجن بليغ جعلك تأنس الى ظلمة الرمس الراعبة ! هلم الينا واسمعنا الرقيق العذب من اناشيدك ، فلقد ينسيك النغم ، هذا الالم ، وقد ترى في شمس الانتصار ذلك السنى الذي تحتاجه حياتك

ــ مارسيليوس ناشدتك الله ان تعفيني من الغناء في هذه الليلة ! ...

ــ أتريدني على اختراق النهر ؟ سأفعل وما انا من تعوقه اللجـــة الثائرة عن بلوغ معتكفك !

وفي خطفة البرق خاض مارسيليوس اللجة فاذا هو بعد لحظات على الضفة المقابلة حيث منزل كريستيا يسبح في عالم من المخاضر وقد ظل رفاقه في اماكنهم ينظرون الى هذا المشهد ولا يفقهون من امره شيئاً ! وكان كريستيا ينظر الى فعلة مارسيليوس من الشرفة فلما رآه قد اقتحم النهر صدف عن الشرفة يريد ان يلحق به عند باب الخميلة ولكن كريستيـــا لم يلبث أن نكص على عقبيه ، فقد روعه ان يرى سافو في غشية اثيمة فتهافت عليها يريد ان يرفه عنها ثم اراق الماء على جبينها فاستفاقت

وجعلت تنظر اليه في ذهلة عنيفة فقال لها ويده تدغدغ شعرها المرسل وفهي عن نفسك فاني اخاف ان يراك مارسيليوس الذي اقتحم النهر غير مكترث لموجـــه الدافق ، فلم تجب ولكنها جمعت نفسها وطفقت تنظر الى البـاب كأن حديث كريستيا عن مارسيليوس قد نبهها الى حاضرها ولما دخل مارسيليوس الى الحجرة لم تفته هذه الحيرة التي ملكت كريستيا وسافو معاً ولكنه تجلد وزوف الى ناحية الشاعر وراح قابضاً على يده وانثنى قائلا :

— أ كان حصادك من بنياميناكل هذا الالم الذي يبين على وجهك ؟

وكان ينبغي لكريستيا ان يقول الحقيقة في هذه المرة حتى لا ترمض الشكوك نفس صديقه فقال له بلغة عذبة :

— كان للحب خيال في نفسي فنزعته والقيت به الى الماضي

— اذن ففيم لا تخرج من هذه العزلة لى رفاق ينتظرون ان توافيهم لتسمعهم اشعارك واناشيدك ؟

— كان للشعر خيال في نفسي فنزعته والقيت به الى الماضي

— أمثلك يتكلم عن الحب والشعر بلغة اليأس الشاحبة ؟ اما كنت تخرج من منزلك في البكور والعشي لتتحدث عن حبك الى الاودية والجبال وتسمع اشعارك واغانيك شمس النهار الضاحكة . .

— لقد كان هذا شأني في ايامي المواضي ، فاما اليوم فلا شأن لي مع الحب والشعر

— الا تحب المجد ؟ . .

— المجد ؟ . . اتحدثني عن المجد يا مارسيليوس ؟

— نعم اني محدثك عن المجد الذي يستهوي الشاعر النابه ، فلولا هذا الزخرف المقدس الذي يبين على المجد لم يستقم شعر لهوميروس هذا الذي تحبه وتؤثره على شعراء الدنيا !

— نعم اني احب المجد كما قلت ولا يزال طيفه الرائع يمر بنفسي فيثيرها ويحفزها

ويترعها باحب الرغبات . واعذب الشهوات ؛ ولكن المجد الذي احبــه والذي يستميلني اليه . ليس مجد هراقليوس ! أسامع انت ؛ ليس المجد الذي علقت بهواحبته مجد هراقليوس ! ناشدتك الله ان تجنبني الاحاديث عن الرجل الذي لا احبه !

ـــ أتكره قيصر ؟ ...

ـــ لم اقل لك انني اكره قيصر . ولكنني لا احبه، ولا احب ان اقول شعراً في انتصاره

ـــ أهذا كل ما لديك في هذه الليلة ؟

ـــ نعم يا مارسيليوس !

وكان الالم قد برح به فنظر الى رفيقه نظرة اودعها كل ما في قلبه من شجون ماضيه ثم احنى رأسه ليواري دمع عينيه فقطن مارسيليوس الى بكائه فرق للصداقة التي الفت بين روحه وروح كريستيا واغرته هذه الصداقة العذبة الحلوة بالطواف لحظة قصيرة في معبد الماضي الدارس فذكر مسيره في ذات ليلة مع الشاعر في غابة فيحاء تكاثف على حواشيها النارنج والرمان وتدلت بواسق الخوخ واللوز علــى رأسيهما في فروع طويلة يميلها نسيم الحر الخفيف . وكان كريستيا يغني شعراً حماسياً من اشعار هوميروس فلما توسط الغابة وترات له ازهار القرنفل بجانب الينبوع عن كثب من المقعد الحجري الذي اعتــاد ان يجلس اليه شحب وجهه واحتبس منطقه وجمد الشعر على فمه فنظر اليه مارسيليوس وقال له مابك ياصــاحبي وفيم سكوتك ؟ ولماذا هذا الشحوب الذي حجب ضياء نفسك فاشار كريستيا بيده الى المعبد وقال واسفاه لقد كان هذا المكان المقدس احب الاماكن الى نفس امي وكانت امي البارة الرحيمة تجلس على المقعد الحجري لتحدثني عن ابي ..

لقد جاءت هذه الذكرى التي استعرضها مارسيليوس في هذه الليلة توقظ احساسه وشعوره ؛ بل لقد حسرت هذه الذكرى عن اشياء خفية لم يكن مارسيليوس يفهم معناها فادرك تلك الصلة التي تربط آلام كريستيا الحاضرة بآلامه الغابرة وحمه

الشعور بهذه الحقيقة التي ظل يجهل امرها الى هذه الليلة على الصدوف عن الحافه الشديد فقال للشاعر هب لي من لدنك صفحـــاً فاني آليت على نفسي ألا احملك مالا تستطيع حمله ؛ فالبث في منزلك وامنع اشعارك عن الناس . وكفكف دموعك وافتح قلبك للفرح فانه لا يهيج نفسي ولا يطربها غير حومانك على المخاصر في جنات تجري من تحتها الانهار ! .. انت تكره هراقليوس فليس يضيرني ان تشتد في كرهك له وتعاف النظر اليه وهو في عنفوان سلطانه وليس يؤذيني ان تحتقر مجده وكبرياءه ! وتريد ان تظل اشعارك مقصورة على الحب والليـالي المضيئة والينبوع الدافق الهادر ، والقبلة المشبوبة ، فلست بمانعك ما تحب ! ...

سيسألني اركاديوس ماذا فعلت عند كريستيا ، ولماذا لم يخرج الشاعر النابه من عزلته ليشترك معنا في مباهج هذه الليلة ، وسأقول له ولجميع هؤلاء الذين يحبون كريستيا انك غير مفارق فراشك لانك مدنف ولانك مريض ؛ افلا يسرك ان اقول لهم هذا القول فتستسيغه افهامهم وتقبله عقولهم ...

فصاح كريستيا :

مارسيليوس ليتك تعلم اي عيشة امضيها في معتكفي في هذه الغابة المنفردة بين كتبي وتماثيلي وذكريات ماضي ؟ انظر ماحولي فلا تلذني المشاهد واتضاحك فلا استطيع الضحك واحاول النسيان فينأى عني ، ثم اعود الى قلبي وقد حشدت فيه عالماً من ذكر الماضي فانصت له فيؤلمني جيشانه ، ويشجيني خفقانه فهو لايعرف الموادعة ولا يستحب الهدوء .. وماذا اقول لك عن قلبي ، بل ماذا اسميه لك ، انه قلب مجنون يجيش في صدر ملتاع حزين ؛ انني اكره هراقليوس . واكره هذا المجد الذي يرنق بهاءه على جبينه ويخلع رداءه على سلطانه ...

انا اعلم ماذا سيقوله الناس عن هراقليوس ! سيقولون انه روماني في مطامعه ، نصراني في منازعه ، وانه الى جانب رومانيته ونصرانيته قد خلص الوطن ، ليقول الناس عنه مايحبون قوله ، امـا انا فلست اصدق شيئاً من اقوالهم . فقد قلت ولا

ازال اقول ان الطبيعة قد خلقت هراقليوس ظالماً عاتياً ؛ وما كان للظالم العاتي ان يكرم الوطن ، قد تحسبني مغالياً في كرهي الرجل الذي انتصر على كسرى وطهر ارض الوطن من رجس الغزوة الاجنبية ولكن صدقني يا مارسيليوس ان الطاغية لا يستحق اكرام الوطن ، ولو ان الطبيعة كانت عادلة لحطمت سيفه هـــذا الذي راح مزهواً به ومنعته من عطف الوطن وحدبه ...

°°°

صاح اركاديوس الذي آثر البقاء في الجماهير على اللحاق بمارسيليوس : « ليعش قيصر » فرددت هتافه جوانب الغابة وحمل النسيم الخفيف اللطيف هذا الهتاف المتحمس الى اذني كريستيـــا فتمايد من الغضب والخوف والتفت الى مارسيليوس الذي كان يهم بتوديعه وقال له :

— أسمعت هتاف اركاديوس ؟

قال نعم . وهو هتاف لا تحبه نفسك . على انه يؤذن بدخول قيصر المدينة وصاحت الجماهير صيحة الرجل الواحد :

— الموت لليهود ! الموت لليهود ..

فاضطرب كريستيا وقال لمارسيليوس : اتسمع ماذا يقول هؤلآء السكارى ؟

فظهرت على جبين مارسيليوس غيمة حزن عميق وانثنى قائلا :

— لقد قرأ الناس في هذا الصباح على جدران المناسك والبيع رسالة تيودور عامل قيصر على الشام الى الشعب الروماني . اما ما احتوته هذه الرسالة فرجاء الى الناس بتقتيل اليهود وتذبيحهم وطرح جثثهم تحت قدمي هراقليوس ، وذلك لأن هؤلآء قد اساءوا الى الوطن والى النصرانية بانحيازهم الى صفوف الفرس واحراقهم المعابد والبيع المقدسة في ايلياء وايغالهم في تقتيل الشيوخ والاطفال والنساء ! ...

وصاحت الجماهير في الغابة :

— الى قصر السامرية .. الى قصر بنيامينا الساحرة عدوة النصرانية

وكان الصياح شديداً فسمعه كريستيا وطغت على نفسه موجة من ألم واشمئزاز ونظر الى مارسيليوس نظرة متشنجة ثم شد على يده واردف :

— أتسمع ! انهم يريدون شراً بتلك المرأة الضعيفة التي احببتها اشد الحب ؟ فكيف تفسر هذا الهتاف ؟ ألا تؤمن معي بان اركاديوس يتآمر علي وعلى من احب اي مارسيليوس لقد سكت طويلا وصبرت طويلا ولكني جفوت سكوتي واطرحت صبري وآليت ان احمي المرأة التي بادلتني حبي وقاسمتني هوي ولو تعرض لها قيصر ناشدتك الله يا مارسيليوس ان تنصح اركاديوس بالرجوع عن فكرته فاني اشفق عليه ان يذهب فريسة بغضه ! بلى اني لحريص على استبقاء مودته اذا شاطرني الحرص على مودتي ، قل له ناشدتك الله ان يتنكب الجريمة تفاديا من الوقوع في شرورها انطلق اليه وجنبه هذا الامر ! .

وجعل كريستيا يزجي الاحاديث بلغة متحمسة ، ولهجة عالية ، ثم تلون وجهه حتى اشبه بهرة الشفق وبرقت عيناه فرأى مارسيليوس وميضهما فاخافه الوميض فراح مطوقا كريستيا بذراعيه صائحاً : لقد روعني قبس في عينيك فاي رجل انت؟

وكان الحزن قد هد قوى الشاعر هداً فاستخذى لوساوس نفسه وهواجس حسه وتمثل اركاديوس زاحفاً الى قصر بنيامينا على شاطىء البحيرة ومن ورائه سرب من اعدائه وقد لوحوا للقصر بالمشاعل يريدون احراق المرأة التي احبها ؛ ثم تمثل اركاديوس يفتش عن بنيامينا في نواحي القصر فلا يجدها ، فتعلم التعسة بامره فيميدها ان يبحث عنها فتفزع الى دهليز في القصر مخافة ان تأكلها النار الحاصدة فلا تمر بها ساعات قلائل حتى يحترق القصر وتتداعى ابراجه على الدهليز فتموت التعسة تحت انقاضه شر موتة !

لقد مرت بخاطر الشاعر هذه الهواجس المتلبدة بسحب نفسه في مثل خفة الوميض فوارى عينيه بكفه حتى لا يرى هذا المشهد الهائل وجعل يهذي وتدفق من فمه سيل من الكلم الغامض ؛ ثم لم يلبث التعس ان قبض بيده على يدي مارسيليوس وقال له:

لقد قتلها اركاديوس ! قتلها الرجل الذي لا يرحم ! ... قتلها عدوي زلني لقيصر بل زلني لبغضه وموجدته ! لأقتلنه بها يامارسيليوس . ولاسفحن دمه ولو كان في حاشية قيصر

وفي تلك الاثناء تفرق صحب اركاديوس في نواحي الغابة فابصرهم كريستيا من الشرفة وهم ينتحون ناحية الطرق المؤدية الى طبريا صائحين هاتفين :

— الموت لليهود ! الموت لليهود !

وكان صياح الجماعات شديداً لحمل الليل الساجي ترجيعه الى النواحي البعيدة فطار صواب مارسيليوس وتلفت الى صاحبه فاذا يد كريستيا لا تزال قابضة على يده فقال له دعني انطلق فاني اخاف ان يجرؤ اركاديوس على قتل المرأة التي تحب! أفلا تثق بي انا صديقك ؟ اذن دعني انطلق الى اركاديوس لامنعه فعلته ، قال :

اني منطلق معك . فصاح مارسيليوس ناشدتك الله ألا تفعل !

— ولكن بنيامينا في حاجة الى حمايتي ! ...

— ابق هنا ولا تفارق منزلك فاني اخاف ان يقتل الحزن سافو وهي بعد لا تزال في موعة العمر وليس في ميسورها ان تصمد للعاصفة ...

ولما ذكر مارسيليوس اسم سافو رقت نفس كريستيا رقة الهمة وشعر بحاجة سافو الى ذراعيه فهدأت هواجسه وسكنت وساوسه فقال لمارسيليوس :

اذهب ، اذهب ، ناشدتك الله ان تمنع اركاديوس من دخول القصر ، فاني تركت في احدى مقاصيره كتابا حافلا بارق اشعاري واعذبها ولست اريد ان يمس اركاديوس كتابي الذي اودعته ذكرياتي السعيدة الهانئة ! اذهب يا صديقي اذهب

فتهافت مارسيليوس على كتف كريستيا وجعل يقبله في كثير من الحرارة ثم صاح :

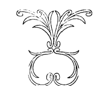
— الى لقاء قريب يا اخا طفولتي !

وانفلت يعدو في طريق الخيلة فتسلق سورها . وانقلب الى شاطئ الاردن واخترق لجته الثائرة الى الضفة المقابلة وكريستيا ينظر اليه من الشرفة . وبعد قليل

لحق مارسيليوس بذلك الموكب الثائر وهو يصيح :

— أين انت يا اركاديوس ؟ أسامعي انت ياصاحي ؟ ...

وكانت اناشيد اركاديوس قد ملأت نواحي الغابة وقد اخذ رجاله يرددونها باصوات تنخلع لها القلوب فوقف كريستقيا على الشرفة ينظر الى هذا المشهد بعينين ذاهلتين وقلب كسير وشعور يفيض بالالم ، وقد هم اكثر من مرة ان يلحق بمارسيليوس ولكن حرصه على سعـــادة سافو ثناه عن هذا الامر فظل ينظر الى انوار المشاعل حتى تضاءلت الاناشيد في الابعاد الشاسعة فعاد الى حجرة سافو فاذا الفتاة ترعش من الرعب فقال لها انها لليلة مخوفة ، ولكني نذرت ألا افارقك فيها ثم طوقها بذراعيه .



الفصل الحادي والعشرون

المأســاة

لما اطل قيصر على الميدان الروماني في طبريا خرجت الى لقائه من نواحي بلاد الجليل عصائب من الفتيان والشيوخ والنساء ولحق بموكبه الفخم عيون الرومان واشرافهم وكان جميع هؤلاء الذين لفظتهم الضواحي المجاورة قد قرءوا رسالة عامل قيصر على طبريا ، تلك الرسالة التي سوغ فيها البطريرك القسطنطيني سرجيوس تذبيح اليهود وتقتيلهم لغدرهم بالنصارى وتضافرهم مع الفرس على احراق الكنائس والبيع في بيت المقدس ولما تراءى خيال قيصر للجماهير لم يستطع واحد من كل هؤلآء الذين احمسهم كبر قيصر وزهوه ان يمنع قلبه الشعور بالبغض فصاحوا صيحة الرجل الواحد :

الى مساكن اليهود ، الى مساكن الاعداء القدماء

وكانت وفود اليهودية قد توافت الى الميدان الروماني لتحي قيصر الرومان وتسأله الصفح فرق قيصر لمشهد الشيوخ والنساء وخاطب الوفود بلغة نمت على تسامحه واغضائه ولكن هذه اللغة العذبة الرقيقة التي تحدث بها هراقليوس الى الشيوخ اليهودية ظلت غامضة فلم تفهمها جموع الدهماء (١) ولم يستسغها رجال الكنيسة الذين بطش اليهود بهم في خلال عشر سنوات بل ان هذه اللغة الرقيقة الحلوة التي استفاضت على شفتي قاهر الدنيا لم تتسرب الى قلوب الدهماء فراح هؤلآء يصيحون :

ـــ الى مساكن اليهود ! الى مساكن الاعداء القدماء

وفي خفة البرق تفرق الشعب الثائر في انحاء المدينة متوغلا في الاحياء حاملا الى الضعفاء والضارعين والمكدودين من اليهود الموت والنار وكان اركاديوس

---

(١) تاريخ فتح العرب لمصر لجورج بتلر

الفتى الروماني المتحمس يقود هذه الطلائع الطاغية الثائرة ويدلها على المنـــازل والقصور الفخمة التي يعيش فيها عيون اليهود وسرواتهم وعلى فمه ضحكة متشنجة لو رآها كريستيا لمادت نفسه من قهر وغم ولم يكن مارسيليوس قد لحق به بعد ليمنعه هذه الاسواء ويحمل اليه رجاء صديقه كريستيا بالصدوف عن إيذاء بنيامينا ، وربما كان من نكد طالع تلك المرأة التي احبها الشاعر ان يتأخر مارسيليوس عن اللحاق باركاديوس فقد كانت السامرية الحسنـــاء في قصرها بعيدة عن الاصدقاء والرفاق وكانت قد قرأت رسالة البطريرك سرجيوس فاشجاها صياح الدهماء عن كثب من حديقة القصر وروعها ان تلتفت ذات اليمين وذات الشمال فلا تجد صديقاً يتولى حمايتها ويمنع عنها هذه الغزوة التي حشد لها اركاديوس جميع انواع البغض والحسد والزراية والعبث

وكانت لا تستطيع ان تبقى في حجرتها طويلا بين ذكريات ماضيها وذكريات هذا الحاضر ولعل اشد ما آلم نفسها في تلك الاثناء ألا تبصر في القصر انيســـاً فلقد جفاها اصدقاؤها على كثرة عديدهم . واعرض عنها حتى اولئك الذين كانوا يفتشون في شفتيها عن العطر والشعر ويسألونها ليلة طويلة حافلة بوسوســـة النغم ووسوسة القبل ، اما الوصائف فقد جفون مغناها ورحن الى عشاقهن يحتمين بهم من ثورة اركاديوس وكان عسيراً على بنيامينـــا ان تبقى في حجرتها طويلا بعد خلاء الدار من شفق الحب وشفق الانوار ، فجاءت الى الشرفة ووقفت تنظر الى النار التي اشعلها اتباع اركاديوس في البيوت المجاورة وقد سال لعابهـا الاحمر على الشرفات والابواب والحجارة وخرج اصحاب البيوت بملابس النوم الى الشوارع جافلين مروعين فاستقبلتهم الأسنة وحصدتهم السيوف وضاعت توسلاتهم في اناشيد الدهماء وصيحات الغوغاء

وقد فكرت التعسة اكثر من مرة في الافلات من هذه المشاهد فنظرت من شرفة القصر الباذخة الى الارض كأنها تريد ان تتعرف الى المسافة بينهما فلا يعوقها

عائق عن الفرار ولكن بنيامينا لم تكن لها القدرة الكافية على الوثوب من الشرفة الى الادیم فترددت امام المسافة السحيقة وراحت عيناها تنظران الى النـــار وقد طغت سيولها على البيوت والمنازل والدارات ونشرت ليلا من الرعب والذهول في نفوس الذين كانوا الى امسهم الدار يغطون في النوم من غير ان يفكروا في غد مليء بالتعذيب والتنكيد والتغريب وكان صليل النـار الزاحفة الى الطنوف والشرفات والحنايا يشبه ثورة البحار العظيمة في شتاء حافل بالرعود والصواعق وكان طبيعياً وبنيامينا لم تألف في حياتها غير الاصغاء الى النغمات العذاب ان يخيفها هذا الصليل الراكض بل كان طبيعياً ان تغمرها ذهلة عظيمة وان تنظر الى هذه المشاهد بعينين جامدتين يابستين وكم تمنت التعسة لو ان الموت الذي استساغته في هذه الساعة الروعاء يدهمها وهي على الشرفة فتستخذي له وتلتي باحلامها وجسمها اليه وذلك لأن الموت على هذه الصورة افضل بكثير من موت تتقدمه آلام لا تستطيع هذه المرأة الضعيفة ان تضطلع بها !

ولما طافت بعينيها خيالات الهاربين من هؤلآء المناكيد الذين افلتوا من النـار اخذت تتفحص وجوههم الماحلة كأنها تريد ان تتعرف الى الاصدقاء والاحبة وشد ما كانت فرحتها حينما عرض لها بين وجوه الهاربين وجه احبت صاحبه في ماضيات ايامها فوق كل حب ، وذلك هو وجه ابيها نفتالي ذلك الرجل الذي عاد من منفاه في ذات ليلة ليتسرق الاحاديث عن الطفلة التي تركها في ارض الوطن ، فلما عرف أي عيشة تعيشها تلك الطفلة الغـــالية ازمع رجوعا الى المنفى السحيق وانه ليودع تلك الارض التي احبها ولقي في سبيلها مالقيه من اعنات وارهاق اذا هو يستقبل المـــأ جديداً كانت حياته الشهيدة في حاجة اليه لتستكمل فروض الاستشهاد

وكانت سحنته المشوهة تلقي الرعب في النفوس الشديدة الصلبة ومع هذا كله فان الذين اخرجتهم النار من ديارهم في هذا الصباح لم يفطنوا الى سحنته ولم يهتموا لهذه القروح التي صوحت شبابه واذوت نضارته . فظلوا على شرودهم وتيههم وظل

هو يضرب الارض بعصاه وعيناه تنظران الى بيت بنيامينا ، والى هذا الزهر اليانع الذي راح متدلياً على حياط البيت !

لقد همست التعسة ! هذا هو ابي ؟

ولم تزد على ذلك شيئاً فلقد مرت بها خيالة الماضي وذكرت آلام‌ابيها فتأوهت وهزت رأسها من فرط الألم وانثنت قائلة :

— لا شك انه لعنني ! بلى لقد لعنني ابي . وهذا هو حصادي من‌لعنة خرجت من شفتين لم تنفتحا للضحك منذ سنوات ، وكادت اكثر من مرة تصيح به ! الى اين انت ذاهب ؟ هلم الي وقاسمني حظوظي . ولكنها لم تقل شيئاً مما كانت تحب ان تقوله . وظل نفتالي يتدفق في سيره وظلت هي تنظر اليه حتى رأته قد عرس حيال باب الحديقة فرعشت وتجلت لها في دقائق معدودة بشاعة المأساة ! فليس من شك ان نفتالي قد ذكر ابنته في هذا الصباح وازمع ان يراها قبل ان تحصده النار ليقول لها : لقد لعنتك وهذه هي لعنتي تستحيل الى لهب ، وستموتين شر ميتة ايتها المرأة التي ازرت بابيها !

وكان باب الحديقة مفتوحا على مصراعيه فاجتازه نفتالي متنكباً جموع الهاربين ثم صعد السلالم وجاس خلال القصر وهو يصيح :

اين انت يابنية ؟

وانفلت الصوت رقيقاً حلواً فتطامنت التعسة الى لهجته‌وزال‌بعض هذا الخوف الذي علق بنفسها فاعرضت عن الشرفة منتحية ناحية القصر وفي تلك الاثناء تعالى الى سمعها صوت اركاديوس وهو يصيح :

— ايها الرفاق ، هذا هو بيت السامرية ، هذا هو بيت المرأة التي سرقت نهى الشاعر كريستيا ؛ فليتقدم اشجعكم الى هذا المنزل اللعين ويبحث عن المرأة الزانية في غرفه ومقاصيره ..

ثم لم تسمع غير صوت نفتالي :

— اين انت يابنية ! بنيامينا ! بنيامينا

وحجبت رقة هذا الصوت قسوة ذلك النداء الذي هتف به اركاديوس فاصغت، بنيامينا الى صوت ابيها واخذت تصيح :

— اين انت يا ابي !...

ولكن الصوت ظل خافتاً فلم يسمعه نفتالي فاستأنف صياحه :

— بنيامينا ! بنيامينا

وكان لامعدى للمنفي الطريد عن الطواف بالغرف المفتوحة لعله يعثر على صبابته ويده لا تفارق عصاه ، ولما تراءت له الغرف فارغة شاحبة اخضلت عيناه بالدمع وخرجت من صدره الجريح صيحة الثمة :

رباه ! أمن الممكن ان يظفر اركاديوس بفريسته قبل وصولي الى هذه الدار ، وراحت يده تجس صدره كأنه يفتش في ذلك الصدر الخـــافق ابداً الملتاع ابداً عن امنية من اقدس امانيه ، فعثرت تلك اليد الراعشة بدمية صغيرة تمثل السيد المسيح على الصليب فنظر اليها نظرة ضارعه وانثني قائلا :

— لقد رافقتني ايها السيد الى منفاي السحيق على شواطيء البحر الميت ومسحت آلامي واعدتني انسانا جديداً فهلا رافقتني في مطافي الجديد ! ثم تناول تلك الدمية المقدسة بيده وقربها من شفتيه المقروحتين وطفق يحدق في سلم من المرمر يدفع الى الطنوف الخارجية وقد فكر في اقتحامه رجاة ان يعثر على ابنته الغـالية : ولما هم بفعلته اذا خيال بنيامينا يطالعه فارتد الى الوراء وقد روعه ان يرى الى ابنته في الغلالة الرقيقة وفي عينيها السحورين شيء كثير من آلام نفسها !

وكان على شجاعته غير مستطيع ان يصمد لكارثة جديدة فاحنى رأسه وهمس قائلا

— اهذا هو خيالك ؟ فصاحت :

— ابي ! وصاح التعس :

— ابنتي ! ثم راح مطوقهـــا بذراعيه فاستخذت له وطفقت تشم ريحه وتلثم

شعوره وهي تهمس :

ــ لقد تجاوزت في لعنتك المدى فاصفح عني وباركني ... فقال لها متلهفاً دميعاً !

ــ كلا اني لم العنك يا بنية بل لقد وجدت لضعفك مبرراً فعفوت ! تعالي الى صدري ! تعالي الى صدري

صاح اركاديوس في الخارج ! حطموا الابواب ايها الرفاق ! .. فشحب وجه بنيامينا وقالت لابيها :

ــ أسامع انت نداء اركاديوس ! قال : لقد سمعت ماهو اشد هولا من هذا ، ففي صباح هذا اليوم بينما كنت اشق طريقي الى البحر الميت ، رأيت اركاديوس معتلياً احدى المصاطب في الميدان الروماني ، وقد رفع يده واومض بها الى ناحية هذا القصر وقال لصحبه :

ــ اني نذرت لبنيامينا موتاً لم يحلم به كريستيا الماجن الساخر ! وستسألون اي موت هذا الذي نذرت ، الا فاعلموا انني آليت لاميتنها ثلاث ميتات ، اصب في عينيها القار ، فلا تبصر ، ثم اجيء بها الى هذا الميدان فاقطع يديها ورجليها وارمي بها الى الكلاب ، ثم انصب المحرقة وارمي بجسدها المشوه الى النار ! هذا هو نذري فايكم يستطيع الوفاء به فصاحت ضواري اركاديوس !

ــ كلنا يستطيع الوفاء بنذرك !

وكنت عن كثب من اركاديوس فتركته يعبث بجثث موتاه وجئت ابحث عنك وفاء بنذري فلقد نذر اركاديوس ان يميتك ونذر نفتالي ان يهب لك الحياة

ــ ابي ولكن جند اركاديوس كثير !

ــ لا تخافي ، فاني ، ماخشيت جند اركاديوس ، ولا فرقت من بطشه ، لأن النبي قد هذبني وهذب سريرتي وافعمها بالايمان هذا الايمان السليم الصحيح الذي اراقه على نفسي ابن العذراء مريم أفلا تؤمنين ايماني يا بنية ؟ لو كان امامي متسع من رجاء لحدثتك عن السيد المسيح وقصصت عليك كيف غسل حوبات قدري

العاثر ولكن اني لي مارجوت فان ضواري اركاديوس قد حسرت عن انيابها فهي تأبى الا ان تبتلع فرائسها ، بنيامينا ، بنيامينا ، لقد تلاقينا في النهاية ولكن في الوطن الذليل الخانع ، قولي يا بنية اتجيدين التسلق على كتفي ؟

— ابي ! ... قال :

— حدقي الى وجهي ولا يخيفنك انه وجه اجتاحته القروح فاني مازلت احمل بين جنبي قلباً سليما وفي ميسوري ان احملك على كتفي واهرب بك الى الملجأ الامين

— ولكن اركاديوس يوشك ان يخترق الباب ؟

— دعي اركاديوس وشأنه فاني محدثك عن الخلاص، فهل تستطيعين ان تتسلق كتفي

فنظرت الى دمائه السائلة على حواشي لباسه ، ثم نظرت الى عينيه الفارغتين الا من نور ضئيل . ونظرت الى صدره المفتوح فبدت لهـــا جراحاته . ونظرت الى جبينه المصوح ، نظرت الى هذا كله فسألت نفسها كيف تستطيع هذه الجثة الغارقة في الوحل والدم ان تطير بها الى الآفاق البعيدة . ولم يفت نفتـالي معنى هذا القلق الذي ساور فتاته فقال لها :

— اذن فانت لاتؤمنين ايماني ؟ اني اخاف ان يحرك اليأس في صدرك موجة الالحاد ولست امرأً يحب الالحاد ويطمئن اليه ، لأنه ينزع الامل من القلب ولأنه يحجب ضياء الله !

ولم تشأ بنيامينا ان تتكلم فصاح نفتالي :

— أ كافرة انت ؟ بالتعسك . فانك لن تحصدي من كفرك بالله غير الألم ... وداعا اذن ، وداعا

— ابي ! ابي من قال لك انني ملحدة ؟ وانني لا اعرف الله ؟

وكان قد انحى ناحية الباب يريد الخروج منه فمشت اليه راجية باكيه وقالت له :

— افعل ما تريد ان تفعل فوالله اني لمؤمنة ولكنني نظرت الى جراحات على صدرك والى دم يراق على جسدك فخفت ألا تقوى على الذهاب بي الى ما اسميته

انت ملجأ امينا ! فصاح نفتالي :

— اسمعي صوت اركاديوس ! ذلك صوت لا احبه . انه ليخرج من صدره مليئاً بالدم والصديد ، فلا يكاد يمس شفتيه حتى تنبعث منه رائحة الموت ... هلمي وتسلقي كتفي !

وكان شبح اركاديوس قد تمثل لها بصورته الراعبة ، ففضلت ان تصحب اباها الى المكان السحيق البعيد على ان تموت تلك الميتات التي اصطفاها اركاديوس لها وتحدث عنها الى رفاقه فقالت لابيها :

— افعل ما تريد ان تفعل ؟

فوطأ نفتالي كتفيه وقال لها : هذا مكانك ! فاحرصي ألا يفوتك

فتسلقت كتفيه وهي ترعش من الرعب ولما استوى على قدميه لم تفتها صلابة الرجل المنفي وادركت ان اباها لا يزال ذلك الرجل الصليب الشديد على كثرة شجونه وآلامه ومع هذا فقد خطر لها ان تسأله الى اين يمضي بها ! وكيف يستطيع افلاتا من ضواري اركاديوس وابواب القصر محصورة وشواطيء البحيرة تطفح بزوارق الجند ! والميادين تزخر بجموع الدهماء فقال لها :

— سترين عملي بعد حين !

وجعل ينظر الى الغرف والمقاصير والاروقة ثم هز رأسه وقال لها وبيده تشير الى باب صغير ، من هنا يبتديء العالم الذي سأحملك اليه !...

وكان الباب الذي اومض بيده اليه يتصل بسراديب القصر وممراته التي لا ترى مجازه وانحدر بحمله الخفيف الى سلم ذي سبع عشرة درجة . ثم توغل في سيره فاذا هو سادر في ظلمة الدياميس فروعها هذا الليل المديد فقالت له :

— لكأني بك تعرف القصر من ذلك اليوم البعيد الذي بناه فيه بناته فلم يحب وواصل سيره في ذلك التيه الفاحم غير مكترث للرطوبة ولا حافل بالهواء الفاسد والروائح الكريهة ولكنه كان يصلي صلاته التي لم تفارقه لحظة واحدة في منفاه

وكان النور الوحيد الذي يضيء له الطريق ذلك النور الذي بدا له رائعاً فتاناً منذ تمثل الناصري الطفل يغسل قدميه على شاطيء الاردن ! بلى لقد كان نور المسيح وحده دليله في هذا التيه الشديد التعبيس ...

***

دخل اركاديوس ورجاله الى القصر وهم يصيحون صياح الذئاب :

— موتا لبنيامينا ! موتا لبنيامينا ...

ولكن القصر الذي استمع في الماضي الى وسوسة القبل ممزوجة بلذيذ النغم لم يجب وظلت جدره وحناياه واقواسه غارقة في صمت شجي مذيب وكان اركاديوس قد اذن رجاله في البحث عن بنيامينا في الحجرات والمقاصير فتفرق هؤلاء في كل ناحية من نواحي القصر ؛ وراحوا يرتعون في زواياه ، ووقف زعيمهم الظامىء ينظر الى مآتيهم عن كثب ، وقد روعه ان يجوسوا خلال الغرف وان يخرجوا منها وايديهم خلاء الا من اسلاب غالية وودائع ثمينة تركتها بنيامينا في القصر ولم تفكر في الاحتفاظ بها مخافة ان يعوقها حرصها على هذه النفائس عن النجاة بنفسها من عذاب حقيق وموت لا شك فيه ومع ان رجاله لم يحصدوا حصادهم من البحث عن السامرية فقد ابى عليهم الا ان يمضوا في تقصي اثارها . فانتشر بعض هؤلاء على سطوح القصر وراح فريق منهم الى ناحية الطنوف ثم انقلبوا الى الحديقة وجاسوا خلال الاشجار الواشجة وطافوا بالاماكن التي مازالت ندية خضـلة باعراف زكية خلفتها عشبات الحب الماضية وكان اركاديوس لا يزال ينتظر معادهم اليه في حجرة اعتادت بنيامينا ان تسمر فيها مع عشاقها الكثيرين ، وفي هذه الحجرة رأى اركاديوس صوراً من صنع كريستيا فجعل يتأمل في خطوطها والوانها وقد امضه ان ترمز هذه الصور البارعة الى ولع الشاعر بالسامرية فقد كانت واحدة من هذه الصور تمثل كريستيا جاثياً عند قدمي الحبيبة الغالية وقد ترك قيثـاره على الاديم وراح يتأمل في جبينها المضيء كأنما هو يبحث في جمال وجهها وصفاء نفسها عن

سحر جديد يريقه على شعره ويصبغ به اغانيه وقد كان طبيعياً ان تستثير هـــذه الصورة غيرة اركاديوس وان يفكر في تحطيمها ولكنه لم يجرؤ على هذه الفعلة ، بل ظل ينظر الى الصورة بعينين مملوءتين بجنون الغيرة ، وجنون الحسد ، وقد جحد الصداقة وانـكر الصديق

ولما عاد رجاله اليه لم تعجبه هذه الرجعة الخائبة ، فرمى بالصورة الى الارض ووطئها بقدميه وطفق يجيل نظراته الحائرة في وجوه هؤلآء الذين سايروه في مناكره زلفى له وتقربا منه فاخافتهم نظراته وارعش قلوبهم انهم رأوه حزينا ملتاعا وانهم قرءوا على وجهه يأس الرجل الاحمق ثم لم يلبث اركاديوس ان فطن الى ضعفه فتجلد واذن لرجاله في احراق القصر فما تخلف واحد عن مداراته في ميوله وتبارى الجميع في قضاء لباناته وتحقيق شهواته وراحت ايديهم تصب الزيوت على الجدر وعلى الطنافس الثمينة ، ثم اراقوا اضواء مشاعلهم على الزيوت وخرجوا جميعاً الى حديقة القصر يستمعون الى صليل النار وقد سال لعابها الاحمر على حواشي القصر حتى تسرب الى النوافذ والشرفات والطنوف المطلة على افق البحيرة وكان اركاديوس في تلك الاثناء عن كثب من المقعد الحجري الذي اعتادت بنيامينـا ان تفيء اليه مع كريستيا فجعل يستمع الى صدى تكسر الاخشاب وتداعي الشرفات والتواء الاقواس فلم يبهجه ان يتداعى القصر وبنيامينا بعيدة عنه ! بل ان هذه المأساة على شحوبهـا وظلامها لم تطفىء ميوله الثائرة فود لو ان هذا القصر تداعى على المرأة التي ما احبها لحظة واحدة والتي لم يفتها هذا البغض الذي يجنه لها فبـادلته اياه واحتقرت ميوله ونزعاته !

ولما امتدت السنة اللهيب الى اطراف الحديقة ، ونشرت ليلا راعباً على الظلال والافياء ازمع اركاديوس فراق القصر بعد سقوط جدرانه والتواء اركانه فخرج منه برجاله كما يخرج الجند من مدينة لم يجرؤوا على فتحها فصب عليها نيرانه تشفياً من سكانها وناسها !

وكانت شـوارع طبريا تجيش بالقتلة واللصوص فلحق اركاديوس بجموعهم واختلط بهم يريدهم جميعاً على ان يكونوا جنده الزاحف الى مساكن الابرياء،وكانت روح البغض قد تملكت هؤلاء فلم يسلم من مآسيهم ومنا كرهم الا الذين تفرقوا في الجبال والاوديه ولم يستطع قيصر ان يطفئ هذه الثورة اللاهبـــة التي قوضت صروح الحياة في بلدكان ينبغي له ان ينعم بالموادعة لمكانه المبجل عند الله وعند ذلك الناصري الرحيم الذي اراد الناس جميعاً على المداراة والحب والصداقة وخلق لهم دنيا مليئة بالرفق والرحمة !

وكان هراقليوس في ذلك الصباح المصبوغ يصلي صلاته المتواضعة في كنيسة الرسل بين بطاريقه وبطاركته ، بل لقدكان احبار الكنيسة يصلون في هذا الصباح صلاتين اثنتين ، صلاة شكر لله على تطهيره الارض المقدسة من رجس الوثنيـــة الفارسية ، وصلاة اخرى ارادوا بهـــا ان يهبوا البركة والصفح لكل هؤلاء الذين صبغوا ايديهم بدماء اليهودية !

وفي المساء استأنف قيصر سيره الى بيت المقدس ليشهد الى جانب خميسه العرمرم ذلك المهرجان الذي اعده تكريماً لرفع الصليب في البيعة الكبرى .

الفصل الثاني والعشرون

قلب الشـــاعر

صل الناقوس في بيعة طبريا الكبرى ، فساوقته نواقيس القرى المنتشرة عـلى ضفاف البحيرة في الصليل ، وجفا الناس مضاجعهم وراحوا الى المصاطب ينظرون الى سحاب مركوم من دخان بلون الشفق ؛ وقد روعهم ان يروا بقايا القصور المنيفة تتداعى على الحضيض واذهلهم انهم رأوا اشلاء الابرياء محمولة على السنة الوهج الى الآفاق البعيدة وكان اتعس هؤلاء الذين هزتهم الاجراس العاصفة الى الخروج من غرفهم الى الشرفات والمصاطب كريستيـــا الشاعر الذي وثق بوفاء مارسيليوس واطمأن الى صداقة اركاديوس وكان لا يبرح على الشرفة ينظر الى خيال مارسيليوس السادر في الغابات والاحراج فسألته سافو ان يرجع الى غرفته ويشترك معها في الصلاة فابى وفضل ان يبقى في عزلته حتى ينقلب مارسيليوس اليه بنبأ يثلج صدره ولما دارت رحى المعارك في الميـــادين ؛ وصب الرعاع والدهماء سيول النار على المنازل والدارات والقصور لم تفته بشاعة المأساة وعلم ان اركاديوس مضى في عمله في غير وازع ، وان مارسيليوس تباطأ في اللحاق به ولم يستطع منعه من جريمته ، وللمرة الاولى شعر كريستيا بانه تمادى في وثوقه بالصداقة ، التي ارادها على حماية بنيامينا وكان ينبغي له ان يخرج بنفسه الى الشوارع ليحمي المرأة التي يحب ويهوى ، وكان قصر السامرية يبين له من خلال الاشجار فسرح طرفه في حواشيه واطرافه ورأى خيال بنيامينا على احدى شرفاته في الغلالة الرقيقة فاستثاره مشهدها وطفق يناديها عن بعد :

بنيامينا ! بنيامينا

ولكن صوته الهادر لم يتجاوز الغابة الصغيرة المحيطة بمثواه بل لقد ضاع هذا

الصوت العاصف في جرجرة المياه السائلة في بطاح الاردن ، ولم يحرك خيال بنيامينا ومع هذا فقد ظل يناديها باحب الاسماء اليه ؛ ثم تولاه يأس شديد وجعلي يبكي ، وسمعت سافو بكاءه فجفت صلاتها وجاءت اليه تهدىء روعه فما هــدأ له روع ، وفي تلك الاثناء توارى شبح بنيامينا عن الشرفة فخفق قلبه والتفت الى سافو التي لم تشأ فراقه وقال لها :

— الا ترين الى ما ارى ؟ ... كانت هنا على الشرفة ، ثم لم تلبث ان توارت ؟

وكانت سافو طفلة ساذجة فعسر عليها ان تجد تلك الكلمات التي تخفف اوجاعه وآلامه ثم حدث بعد احتجاب بنيامينا ان استطال الحريق على القصر وان رأى كريستيا انصار اركاديوس يتسلقون الشرفات والطنوف والابواب وفي ايديهــم المشاعل فجن جنونا تخوفا وطفق يهذي ويصيح :

— لقد اماتها اركاديوس شر ميتة ! يالتعاستك يابنيامينا ! هجرك احبــاؤك وتركك من كان ينبغي له ان يدفع عنك غائلة السوء

وراح الافق يهتز لاصوات النواقيس ، فضاعفت هذه الاصداء المخوفة في يأسه وجنونه فشد بيديه على عنقه يريد ان يميت نفسه خنقاً فالقت سافو بنفسها بين ذراعيه وصاحت به :

— انك لن تفعل ! أهذا هو المجد الذي تبحث عنه ؟ أمثلك يفر في اول معاركه

— دعيني افعل

— أنسيت نذرك للرجل الذي خطب يدي !

— ولكن بنيامينا لا تستحق هذه الميتة البشعة !

— وقيصر ؟ أنسيت هراقليوس ؟

— كلا اني ما نسيت الطاغية ومازلت افكر في ثاراتي ، لقد اراد هراقليوس ان يخلع على موكبه الظافر شفقاً يماثل شفق طيلسانه الملكي فاستباح حمى النــاس وهدر دماء ابريائهم ولم يعف عن قتل النساء زلفى لشهواته ...

— من اجل هراقليوس سألتك الا تفعل . اسمع . انهم يغنون في شوارع طبريا ويهتفون لقيصر بينما اركاديوس وانصاره يطلون الدم البري. عن كثب من البيع والمحاريب

وكانت سافو تستزيد من احاديثها عن قيصر فتهزه هذه الاحاديث الى الماضي ويذكر مأساة حياته ثم لايلبث مشهد الحريق وامتداد اللهب على البحيرة ، ان يبتعثه على نسيان آلامها الغابرة فلا يفكر في غير امر واحد ، هو ان يمضي الى منزل بنيامينا ليفتش عن جثتها بين الانقاض ويعود بها ليدفنها في جنة مثواه ، ولما عرض فكرته هذه على سافو ريعت الفتاة الساذجة وقالت لهانك لن تذهب ؛ ناشدتك الله ألا تتركني وحدي فاني اخاف ان يغشاني مثل هذا الليل الفاحم الذي غشي بنيامينا ... قل لي من يغمض عيني اذا انا مت بعيدة عنك ؟

— ولكني احب ان اغمض بيدي عيني بنيامينا ! لقد كان في عينيها كثير من السحر وكنت افيء الى هذا السحر فاريقه على اعوامي الماحلة الناضبة فتورق وتعود ندية خضلة ... وكنت اذا ما خلوت افزع الى الشعر فاحاوله فيعصاني ثم لا يلبث عطر بنيامينا ان يتسرب الى نفسي فتتحرك شفتي بالنغم وتخرج اشعاري بيضاء كالصباح عذبة كمياه الاردن ، دعيني انطلق اليها فاني ليعاودني خجل مذيب اذا انا تهيبت ان امضي الى المرأة التي احب لاغمض عينها ، قالت سافو .

اتسمح لي بالذهاب معك ؟

— انت ؟

نعم انا ؟ فهل تمنعك كبرياؤك من اصطحابي

قال ، ولكني افضل ان تظل نفسك الساذجة طيبة العرف فلا يفسدها مشهد الموت الفاجع ...

وظلت تستثير حميته بلغتها المعسولة الرقيقة امداً ليس بالقصير لعله يجيبها الى ما ارادت فما لان لها وابى الا ان يمضي في سبيله واخذ يقول لها :

احببت بنيامينا حبــاً خالط لحمي ودمي واحبتني حباً خالط لحمها ودمهــا ! وكنت اصوغ من حبها لي عالماً لذيذ الرؤى كما كانت تصوغ من حبها لي حلماً بهي السنى وكنت اول من عرفها الى التعاسة والالم ، وكانت اول من نبه شعوري الى الفرح ! ماذا عساني ان اقول لك عن بنيامينا ! انها فعلت من اجلي كثيراً وبذلت في سبيلي كثيراً ، كانت اشعاري بليدة جافة . وكان العالم يضحك منها ، بل لقد كان الذين احببتهم في عمري الاول يستمعون الي ثم كانوا يضحكون علي ويقولون لي في غير مصانعة ولا مداراة أمثالك يقرض الشعر ؟ وكانوا يسألونني ان اكون والشعر على جفاء ثقة منهم انني ذلك الخامل الذاهل ، فما ان خفق قلبي لمحيا بنيامينا الصبيح ورحت مطوقها بذراعي على رمال البحيرة حتى رأيت عرف انفاسهــا الطيب يضيء سدفة نفسي فاذا انا بعد اللقاءة الاولى اجيد انتقاء اللفظ واجيد المغنى واجيد النغم واذا كل ما كان في امسي ماحلا جديبا يعود في يومي ممرعا خصيباً واذا جميع هذه الالوان التي اراقها الله على الجبال والانهــار والبحيرات والربا تلبس شعري . واذا اولئك الذين ارادوني في ماضيات الايام على جفاء الشعر يرتاحون الى اناشيدي ويرون في ذلك الشاعر النابه الذي تسلل اليه ميراث هوميروس ! بل ان تصاويري الشاحبة وتماثيلي الذاهلة عادت تفيض بالحياة وتزخر بالحركة حتى لقد خالها الذين نظروا اليها في معتكفي انها خلق جديد له ما للخالق القــديم من رواء وفتنة وحياة . ومنذ ذلك اليوم اصبح الرفاق يقولون لي كلمــا اطللت عليهم ؟ لقد تجاوزت في مجدك ذلك المدى الذي انتهى اليه مجد فيدياس

فانت ترين من ذلك ان شبابي كان مقضياً عليه ان يبقى ماحلا لولا ان اخصب الحب نواحيه ؛ ولولا ان اراقت بنيامينا طيب انفاسها عليه ، وانت ترين من ذلك ان ذلك الحب قد وثق مطامحي . ونبه احلامي وكان دليلي الى المجد ، من اجــل هذا كله كان لا ندحة لكريستيــا الذي بدأ حياته خاملا مغموراً عن الوفاء لتلك الانسانة التي دلته على طريق الشهرة وازجت اليه تحايا العالم واعجابه ، دعيني انطلق

دعيني امض في سبيلي فانه لمزر بشأنك ايها الشاعر النابه ان تطفىء بيديك تلك الشعلة المقدسة التي اضاءت ايامك ونضرت احلامك ، ماذا عساني ان اقول لك بعد هذا ؟ اني لمصدقك الحديث عنها ، ولست اغلو اذا قلت لك ان في هاته العشيات التي امضيتها على السفح او في الحدور قبساً من روحها ، بل ان فصول حياتي كانت تقبس امراعها وضحكها من ربيع تضاحك على شفتيها ! …

دعيني انطلق ! دعيني انطلق ناشدتك الله ياسافو . .

وجعل يبكي كما يبكي الطفل فهاجها صريره وطفقت تخالسه النظر فاذا هو يوشك ان يتداعى فقالت له اذهب !

فنظر اليها نظرة راجية كأنما هو ينزع الى التوثق من رضائها عن ذهابه فلم يغرب عنها ما اراد ، فانثنت قائلة :

— لقد رضيت بذهابك الى القصر ، ولكن حذار ان يتدرك اركاديوس بسوء!

فاطرق اطراقة اليمة ومرت بخواطره القلقة الحائرة خيالة ذلك الفتى فروة بن عمرو الجذامي ، فتمنى لو كان مشاركه في طوافه وهو يعلم ان فروة لا يفرق من اركاديوس ولا يميد من قيصر !

ولما استطال به تفكيره وامتدت هواجسه خشي ان يتصاغر ويعدل عن طوافه بقصر بنيامينا فتسدر بردائه وقال لسافو !

— ابقي في حجرتك فاني سأعود اليك . . ثم انحنى على جبينها المضيء ومضى يلثمه في كثير من الحب والرأفة والاخلاص ' وبعد قليل كان كريستيا يشق الاردن فوقفت سافو تنظر اليه من مصطبة المنزل حتى غيبته بواسق النارنج في الحرجة الفيحاء .

الفصل الثالث والعشرون

الاشعة والظلال

لما استطال اركاديوس على القصر بذلك الجيش الراعب من الدهماء وحصدت النار الابراج والنوافذ والشرفات كان نفتالي يوغل في سيره في ظلمة الدياميس غير حافل بحمله ولا مكترث للرطوبة المؤذية ، وكانت بذامينا التي ركبت ظهره تنصت في تلك الاثناء الى صياح اركاديوس فيخيفها انه يتدرب الى اذنها ممزوجا بصليل النار وهتاف الاشرار ، بل لقد كان يشجيها ان تنهار الجدران والاقواس فوقهذه الدياميس التي اقتحمها رجل كانت، الى العشية الفائتة تدفع خياله ؛ مخافة ان يخالط احلامها الوادعة الصافية . ومع هذا كله فقد حرصت على الصمت فلم تتكلم ولم تفتح فمها بهمس وهي تعلم ان كلمة تخرج من شفتيها قد تدفع بها الى مساق لا تحبه وكانت تفضل ان تموت تحت الانقاض على ان تسلم نفسها الى اركاديوس ، ذلك الرجل القاسي الذي لا يتردد عن طرح جسدها الى ضواريه !

وطغت على نفسها موجة من هواجس عنيفة ووساوس اليمة فطفقت تتساءل في نفسها عن اشياء لبثت غامضة مبهمة ولم يقو ذكاؤها على اختراقها ، وكان اول سؤال القته على خلدها المضطرب هو هذا ؟ من اين جاء ابي ؟ ثم مضت تقول : كيف علم ابي بهذه الكارثة ؟ بل اي قدرة خفية حسرت له عن خفايا هذا الصرح الذي امضيت فيه ايامي واعوامي من غير ان يكون لي علم بخفاياه ؟ ولما عجزت عن تفسير هذه الامور الغامضة حفزها الضعف الى التفكير في القوة التي تسيطر على الاشياء والناس والطبيعة ، وذكرت ايمان ابيها المطلق بالله ووثقت بان الله وحده هو الذي حقق هذه المعجزة التي لم تدرك من امرها شيئاً ! وهو الذي اوحى الى ابيها ان اخرج من منفاك السحيق القصي وافعل مالا يستطيع احد غيرك فعله !

وكان نفتالي في خلال ذلك يمعنا في سيره ، ولكنه ظل صامتاً ولم يشأ ان يتكلم مخافة ان يتعالى همسه فيسمعه اركاديوس او يسمعه احد اتباعه وقد عثر اكثر من مرة باكوام من الحجارة وكاد يسقط بحمله على الارض لولا انه تجـلد وثبت ! ولولا انه كان يشعر بحنانه الابوي هذا الحنان الذي تجدد في نفسه ساعة التقى الموت يوشك ان يخلع ظله الفاحم على منزل فتاته

وكانت الرطوبة شديدة والروائح الخبيثة تهب باردة على جبين بنيامينا فشعرت بالم شديد في رأسها وخيل اليها ان الارض تميد بها ميداً ثم تطاغى هذا الالم وامتد الى جسمها الرقيق الضعيف فهزه هزاً فحدقت عينها في عرض الدياس وطولهرجاة ان تبصر قبساً من شعاع فنأى هذا القبس الذي احبته وتطاول الدياس حتى خيل اليها انها تسير في دنيا باردة لا نهاية لها ! وكانت يداها ممسكتين بعنق ابيها فوهنتا وشعر نفتالي بوهنهما وخيل اليه ان تينك اليدين الناعمتين تكادان تنفرطان حول عنقه فتدفق في سيره رجاة ان يبلغ خاتمة المطـــاف وما زال يمعن في سيره حتى اعجزه الركض واتعبه الايغال في الظلمة الفاحمة فوقف والتفت الى بنيامينا هامساً :

— اتشكين تعباً يابنية ؟

فأوهت من فرط الالم ولم تجب ، وكانت يداها باردتين كالصقيع فشعر نفتالي بلذع البرد على عنقه فانثنى قائلا :

— انك لترعشين من البرد ؟ فقالت هامسة :

— نعم ويكاد هذا البرد الشديد الذي احسه يميتني ! افلا تشم هـــذه الروائح الخبيثة يا ابي ؟ قال نعم ... قالت :

— متى تنتهي دنياك الباردة المظلمة وتبتديء تلك الدنيا الضاحكة لنور الشمس قل متى نرى البحيرة والشواطيء المـائجة الزاخرة ! لقد صرت افضل ان يغمد اركاديوس نصله في صدري على هذا السفر البعيد الذي اردتني عليه يا ابي ! قال :

— صبرا يا بنية فان منفاك سينتهي بعد قليل ! وستضحكين للشمس وللحيـاة

التي تريقها على العالم ولكن منفاي لن ينتهي ...

قال هذا واستأنف طوافه ، غير ناصب ولا مكدود ، ولكن بنيامينا لم تعد لها قدرة على ركوب كتفيه ، فلقد هاجمتها الرطوبة ، وهاجمتها الرياح الخبيثة ، وهاجمها الظلام ، وهاجمها الخوف : فطفقت تسعل ، واشتد بها السعال ، فكاد صدرها يطفر الى شفتيها ، فصاحت :

— ابي ابي ! متى تنتهي دنياك هذه ؟

فضحك نفتالي ضحكة متشنجة فاخافها ضحكه وخيل اليها ان اباها عاد مجنونا من هذا الطواف الصارد ، وتمنت لو ان الموت الذي فرقت منه وهي في القصر على سريرها عن كثب من الاضواء والازهار يزجها في هذا التيه الابدي ويخلصها من آلام لا تستطيع لها حملا ؛

وانها لتفكر في الموت اذا نفتالي يصيح صيحة عظيمة :

ما اجملك يانور السماء !

ولم يكن هذا المنفي البائس العاثر الجد كاذبا فلقد لاح له في تلك الاثناء نور ضئيل فتدفق في سيره يريد ان يتصل بمصدر هذا القبس الذي لطف من يأسه وخفف من شجوه ، وشعرت بنيامينا بفرح هذه النفس الهزيلة الضاوية فنسيت بعض هذا الالم الشديد الذي تعاورها وارادت نفسها على الصبر لتستبقي شجاعة ابيها فلا يهن ولا يضعف عن اللحاق بمصدر ذلك النور البهي !

وما زال ذلك القبس الخفيف يتسع وينمو ويفيض ، وما زال نفتالي يوسع الخطى حتى شعرت بنيامينا بانكماش ذلك الافق القارس العابس ، وحتى شعرت بافق جديد لا برودة فيه فطربت ولكن هذا الطرب الذي احسته وتلك الفرحة الجديدة التي ملأت نفسها وذلك الرجاء العذب الذي تسلل الى حياتها كل هذه الاشياء التي تستسيغها النفوس الضارعة لم يقدر لها ان تخلد ، فتداعت كالهشيم وبست الابتسامة على شفتي ابنة نفتالي ذلك بان النور الذي هتف له صدرها القريح قد غمر

نفسها ممزوجا بالاناشيد ولما اصغت الى هذه الاناشيد لم يفها شيء من معناها فلقد تردد اسم هراقليوس اكثر من مرة على افواه العازفين والمنشدين فصاحت :

— متى تنتهي آلامي يا الهي !

وكان نفتالي قد بلغ في طوافه مصدر ذلك النور فاذا هو قد خرج الى الفضاء الرقيق الناعم ، واذا هو في قلب غابة فيحاء فاستطار لبه لاهتزاز الورق وتمايد الغصون فضحك للزهر اليانع ورق لنور الشمس الساطع ! حتى لقد همت به النفس الراجية الى الغناء لولا انه ذكر حمله ، ولولا ان ابنته كانت تسعل فيطفر قلبها الى شفتيها مصبوغا بالنجيع

ولما القى حمله على الارض العاشبة طفق يصلي صلاته الشجية لذلك الناصري الذي هدهد آلامه في المنفى البعيد القصي ، والذي ابى الا ان يرافقه الى شواطيء الاردن بعد غربة التية لقي فيها نفتالي من الالم والعذاب مالا يستطيع غير نفتالي ان يضطلع به

وكان التعب الشديد العنيف ، وبرد الدماس القارس ، والالم الذي لاصورة له ولا رسم واليأس البليغ كل هذه الشجون ، قد القت ليلها العبوس على صدر بنيامينا ، فاستلقت على العشب واغمضت عينها كأنما هي تنزع الى حلم بهي يحرك حياتها الراكدة ويغمر ايامها باضواء الامل والحب

ولم يشأ نفتالي ان يبقى غريباً عن هذا المشهد فجلس على العشب النامي عن كثب من ابنته السادرة الحالمه وطفق ينظر الى عمل الحياة في ذلك الجسد الخامد واشعة الشمس تطفو على جبين بنيامينا الشاحب فتصبغه بصباغ شديد الفتون ، ثم ظللت هذه الاشعة المقدسة شفتيها الباردتين فعادتا مضطرمتين مشبوبتين ، ثم امتدت الى جسمها وغمرته بالحياة فاذا هو يستفيق واذا هو يتحرك ، ولما اهتزت اشجار الغابة الفيحاء وتفاوح عبير القرنفل والياسمين والورد وراح غامراً الافق تمايد جسد بنيامينا ، ورعشت شفتاها فصاح نفتالي صيحة اودعها حنان قلبه :

— لقد نجت ! لقد نجت ! اي آ لامي جنبيني في هذا الفجر الضحيـــان طيفك الراعب ودعيني استمتع بهذا المشهد البهي ...

ونظر نظرة رقيقة الى الشمس والى الظلال الباسمة وانثنى قائلا : كانت حرارتك ايتها الشمس تؤذيني في سواحل البحر الميت ، وكنت لا اتطامن الى اشعتك . ولا احب مشهدك بل لقد كان خيالك الذى ظل يلاحقني يظلم نفسي فاميد واحاول ألا يقع طرفي على بهائك . ذلك بان اشعتك في ذلك المنفى البعيد السحيق كانت تحمل الي سموم البادية الغلفاء ، وكنت افتش عن الظل وعن النمير العذب ؛ فيجفوني ظل احببته وينأى عني ماء املته ! ولكنك ايتها الشمس في اطلالك علي في هذه الغابة العابقة بعطر النارنج وطيب القرنفل قد ايقظت اهوائي وحركت حياتي وحملت الي ذلك الظل الذي احببته الى جانب ذلك الماء الذي امليته . لقد كان نفتالي يهمس هـــذا الهمس وهو ينظر الى عمل الحياة في جسد بنيامينا . فاذا تلك الذاهلة الغاشية تستفيق واذا عيناها قد عادتا مفتوحتين واذا اول كلماتها بعد افلاتها من ذلك التيه الراعب ابي ! ابي ! ... اين انا ؟ ...

فثرت عينا نفتالي وتهافت عليها حانياً حادباً وقال لها :

— ابنتي ابنتي ! انت هنا في الغابة الفيحاء على مقربة من مغيض الماء .

ولما ردت اليها عافيتها وعاودها رجاء حلو عذب نسيت آلامها وشجونهـا بل لقد نسيت اركاديوس وطواغيته . وامحت في عينها صورة ذلك الحريق الطـامي الذي التهم القصر واباد خضراءه وانبثق في صدرها خيال كريستيـا على حين غرة فنادته لأول مرة بأسمه العذب :

— كريستيا ، كريستيا ! اين انت ؟

ولم يفت نفتالي ذلك اللفظ السائغ الذي انبعث من شفتها الحمراوين . فادرك من صفائه رقة نفسها ، وشدة ولعها بذلك الفتى الذي ابصره في ذات عشية يتحدث اليها عن الحب وعن اللقاءات واللذة في حديقة القصر ورأى ألا معدى له عن

نسيان ذكرياته الماضية فقال لها :

— أكان هذا الرجل الذي اسميته كريستيا باراً بك يابنية ؟

فقالت له مستحيية :

— ليتك تعرفه يا ابي ! لقد كان شديد البر بي وكان يحبني حباً شديداً ! أتدري انني جد جزعة عليه ، وانني اخاف ان يتدره اركاديوس بسوء ...

— اتعرفين مسكنه يابنية ؟

فنظرت بنياميتا اليه متفحصة كأنها تريد ان تطل وهي تنظر الى ضياء عينيه على غيب نفسه فلما شهدت صفاء جبينه وطلاقة وجهه اهتزت طربا وقالت له :

— ان منزله غير بعيد من هذه الغابة يا ابي ! قال ،

سأحملك اليه بعد قليل ! أتريدين لحاقا به ؟

فسكتت وكان سكوتها عميقاً مؤثراً ، فلقد جدد الحديث عن كريستيا في هذه الليلة ذكرياتها الماضية فاستعذبت السبح في لجة الماضي ولكن هذا الغرق اللذيذ الذي ارادت نفسها عليه لم يكن طويلا ، فلقد قطع تصوراتها الهائمة عزيف الابواق وصدى الاناشيد وهتاف الناس في الابعاد الشاسعة باسم هراقليوس ! ولعل اشد ما يؤلم نفسها ان يكتظ الأفق في هذه الساعة التي تعرفت فيها الى الذكر الماضية باسم لا تحب صاحبه ولا تأنس اليه ، ثم مالبثت تلك الاناشيد التي اصغت اليها ان اضمحلت في المسافات البعيدة فاستفاض على جبينها نور جديد وانثنت صائحة !

— انهم يحيونه بتحية الوداع ! أسمعت يا ابي ماذا يقول الناس عن هراقليوس لقد رجوا له ان ينعم بحياة طويلة ليحبس ما تبقى من عمره المديد على الانتصار !

قال : سمعت ما ترددينه ، فما اضل هؤلاء .. قلت لي يا بنية ان منزل ذلك الفتى الذي تسمينه كريستيا غير بعيد من هنا ؟

قالت نعم فاذا قدر لك ان تجتاز هذه الغابة ، عرض لك منزل منفرد على ذروة عالية تلتف بها بواسق الصفصاف والحور ! .. في هذه الرحبة الرخية الظل يعيش

كريستيا بين تصاويره وتماثيله واشعاره عن كثب من اخته الصغيرة سافو ! ..

قال : ألا تريدين ان امضي بك اليه ؛

فاسترخت بنيامينا وغامت عيناها وقالت له :

— كلا ، كلا يا ابي اني لا احب ان احمل الى هذا الرجل كره قيصر وبغضه ، فلقد يعلم عمال قيصر بالتجائي اليه ، فيلحق به من الاذى ما لا استسيغه له ...

لم ينبس نفتالي بلفظ ولكن هذا الرجل الذي ادى واجبه كوالد والذي كان لزاما عليه ان يفعل المستحيل لينجو بابنته من موت حقيق وفظيع ، عاد يفكر بعد ان اطمأن الى حاضر فتاته في غدها المظلم فلقد كان منفياً وكان مقسوراً على ان لا يهجر منفاه فعصى قيصر وترك ذلك المنفى الشاحب وانقاب الى ارض ابائه ليسترق الاحاديث عن امرأته وابنته ، فقيل له ان زوجه لحقت بربها وان فتاته تعيش عيشة يأباها ، فحام حيال بيتها يريد ان يطل دمها فلما عرض له جمالها الخالب اجفل وترعدد وتنكب فعلته واقسم ليرجعن الى منفاه ، وانه ليمضي في طريقه الى ذلك المنتأى الراعب ، اذا تلك الفتاة الغالية التي خلفها على الشاطىء المورق وهي تضحك للحياة ترزح تحت وقر ألم شديد فما تردد في انقاذها من سيل الحريق الطامي ، ثم مشى بها الى نور دافق والى حيــاة جديدة ، ولكنه ما كان يستطيع ان يخلع عليها حمايته الواجبة ، فقد كان فقيراً مكدوداً ، وهو الى ذلك طريد شريد لا وطن له فيدعيه ولا منزل يتطامن اليه فينزل في نواحيه ، وكان اشد مايؤلمه انه مقسور على رجعة قريبة الى المنفى ، فماذا يستطيع ان يفعل ؟ واين يلقى بهذه الزهرة التي لقيت منبتها الذاكي في احلامه وهواجسه ، لقد كان يعلم من امر كريستيا شيئاً كثيراً ، وكان قد تسمع الى احاديث الناس عنه وعن ولعه بابنته ، وكان هو نفسه قد شهد بعينه قصة هذا الحب الشديد العنيف ، وانصت الى اغاني الشــاعر كما انصت الى اغاني بنيامينا . ثم رأى اي شحوب يغطي جبين هذا الفتى ، كما رأى مثل هــذا الشحوب على جبين الفتاة ، فكان طبيعياً وقد بلغ المدى في قضاء الواجب ان يفكر

في البيت الذي ينبغي لبنيامينا ان تأوى اليه . وكان طبيعياً ان يتخير لها بيت كريستيا ولكن ابنته قد صارحته بالحقيقة التي روعته واخافته ، وحسرت له عن نفورها من الاحتماء بكريستيا وحجتها في رفض هذه الحماية مقتبسة من شعورها بالخوف على حياته وهو الرجل الذي اشتدت عـــداوة اصدقائه له منذ ذلك اليوم الذي اشتد فيه حبه لها !

اذن فقد كان لزاماً على نفتالي ألا يفكر كرة اخرى في اللياذ بمنزل كريستيا ، وكان ينبغي له ان يتولى بنفسه هذه الحماية وماذا يمنع نفتالي ان يخلع رعايته على ابنته وهو قادر على هذه الرعاية ؛ وفي وسعه ان يمضي بها الى حيث يشاء . وما دام العالم منبسط النواحي فسيح الرحاب . وما دامت طرق هذا العالم الكثيرة غير مجهولة منه . فانه لقادر ان يأوي بها الى ناحية نائية من نواحي هذا العالم ! وفي وسعه ان يحمل اليها حياة صافية هادئة تنسيها آلامها واوجاعها وتنسيه آلامه واوجاعه

نعم لقد وقر في ذهنه ان يذهب بها الى الاماكن البعيدة حيث الحياة الضاحكة الوادعة وحيث تستطيع بنيامينا ان تفتح صدرها لاضواء جديدة !

وكانت هذه الخواطر تمر بنفسه فتشجيه وتسكره ويخالها حقيقة لاشك في صفائها ولماذا هو يشك في صفائها ؟ أليس نفتالي ذلك الرجل الذي وهبت له الطبيعة المحسنة ماوهبت لجميع الناس من شباب ورجاء وصحة وغناء عن الاستجداء !

ألم يقدر له في ايامه المواضي ان ينتشر في الآفاق ، ويجوس خلال العالم طائفاً بسواحله وشطآنه على سفنه الماخرة ثم ينقلب من سياحته وطوافه مغمور النفس بانوار السعادة والثروة مثلوج الحشاشة بحظوظه واقداره ؟ لقد اثار كبر نفســـه خيال هذه الشهرة التي بلغ اليها في غابره الذاهب فرفع يده الى الفضاء لينظر الى ذلك الساعد القوي الذي كان في ماضيات ايامه يدفع بالمجذاف الى قلب اللجة الثائرة تحت سماء بطيئة الكواكب في ليلة ثلجية المطار ولكنه لم يكد يرفع ذلك الســاعد حتى استحيا من فعلته ، وادرك انه واهم في ظنونه وذلك لأن القروح التي صوحت

شبابه واكلت وجهه قد ترامت له على ذلك الساعد ندبة خضلة ، ثم نظر الى جسده فهاله ان تبين عليه صورة راعبة للتشويه والتمزيق وراع نفتالي ان ينظر الى ساعده وجبينه وجسده بعينين فارغتين الا من قبس ضئيـــل ابقته الايام ليضيء سدفة قلبه ويكشف عن احزان صدره ، وادرك التعس وهو يستعرض هذه المقـاذر انه كان يخادع نفسه ، وانه لا يستطيع ان ينتشر في الناس بوجهه المسيخ ، وصورته القبيحة وجراحاته المفتوحة : …

وهب نفتالي كانت له الجرأة على الظهور في الناس في الخلقة التي استعار شحوبها من شحوب البحر الميت فماذا يقول الناس متى شهدوه ! واي رجل على شدته وبأسه لا يفرق من شبح يطوف على الناس بما تفرق له قلوبهم ونفوسهم ! اذن فقد كان لزاماً على نفتالي المشوه ان يتوارى بطلعته عن العالم ، وكان لزاماً عليه ان يفيء الى ذلك المنفى الشاحب الذي استعار الوان حياته منه ! واذن كان لزاماً على نفتالي ان يجنب فتاته الاصغاء الى لعنة الناس جميعاً !

لقد كانت هذه الذكرى تمر بنفس نفتالي فتلفت الى بنيامينا ليقول لها لقد فعلت بعض واجبي ولكني عجزت عن اتمامه كله. فاولى لك ثم اولى ان تعيشي معي في منفاي بين الجبال الكدراء والصحراء الغلفاء. فرآها قد اغمضت عينيها وهي لا تزال نائمة على العشب فجعل يتأمل في صورتها فروعه شحوب يخطف على هذه الصورة وخيل اليه ان هذه الفتاة التي تألمت كثيراً وتعذبت كثيراً قد وضعت لشجونها نهاية ، وانها اطبقت عينيها لتحلم في غير هذا العالم

نعم لقد خيل الى نفتالي ان ابنته ماتت فصاح صيحة مادت لها جوانب الغـابة الفيحاء بنيامينا ! بنيامينا !

فجاوبه صوت من بعيد :

— بنيامينا ، بنيامينا

وخيل اليه ان ابنته صاحبة هذا الصوت ولكن بنيامينـا كانت في عالم آخر ،

فرعش من فرط الجزع وغمرته ذهلة عنيفة فجعل يصيح :

— بنيامينا ، بنيامينا !

فجاوبه صوت من بعيد :

— بنيامينا . بنيامينا ! فاستأنف صيحته :

أمن الممكن يا الهي ان يكون هذا الصوت الهادر ترجيع الصدى البعيد في هذا الفضاء الفارغ البعيد النواحي ...

ثم انثنى هاتفاً : بنيامينا . بنيامينا

ولكن ذلك الصوت الذي تردد من بعيد لم يلبث ان اقترب . فاسلف نفتالي اذنيه . فاذا هو يسمع !

— بنيامينا ابن انت ؟

وما كان نفتالي يحلم في الرؤى اللذيذة الهائمة ! بل كان في يقظة وكان يرى الى الاشياء والى الصور وينظر الى المياه السائلة على البطحاء . والى الاشجار الواشجة ، والى ضياء الشمس الفاتن ثم كان ينظر الى ابنه النـــائمة . فمن ابن توافى الى سمعه ذلك الجرس الفاتن !

لقد طوف عينيه بالغابة الفيحاء لعله يتعرف الى مصدر الصوت وشد ما كانت ذهلته حينما عرض له مشهد رجل لايعرفه ، فجعل ينظر اليه خائفاً وجلا ، واخذ الرجل ينظر الى وجه نفتالي القبيح والى جراحات جسده المائلة من خلال ثوبه البالي

وكان الرجل في موعة العمر ، فما ان صافحت عيناه قروح ذلك المنفي الطريد حتى صاح به :

— اي رجل انت ؟

فلم يجب . فاستأنف صيحته :

— من أنت ؟ ومن ابن انت قادم ؟ ومن الذي هتف باسم بنيامينا ! ...

فلم يجب . فتهافت رجل الغابة عليه . وقبض على يده وشدها شدة مؤلمة وقال له:

— من انت ؟

لقد كان الرجل الذي رمت به الغابة كمياً مسلحاً لخشي نفتالي ان يقتله هذا الرجل المسلح ان هو حرص على الصمت ، فازمع ان يتكلم . ولما اوشك ان يفتح فمه اخذته ذكر الماضي فوجم واحتبس منطقه وانقلب سابحاً في ظلمات من هواجس لقيت مأتاها في نفسه الكابية ، بل لقد راح نفتالي هذا الرجل الذي كان منذ هنيهة مزهواً بشهرته ومكانته والذي كان يفكر في اختراق البحار وعبور الامصار يواري طلعته بيديه المضرجتين بالدم خشية ان يرى هذا الرجل الشديد العنيـــد صورة القروح الندية الخضلة فيعرف اي رجل هو نفتالي ويذكر اي نفس في صدر هذا الشيطان الذي جفاه الناس وازوروا عنه لأنه ازرى بتصاوير الاولياء وعبث بكرامة الاتقياء !

ولم تفت هذه الحيرة التي اخذته هذا الرجل الذي حسر الغـاب عنه فاشتدت شكوكه فيه وجعل يحدق الى صورته ، وخشي نفتالي ان يرى الرجل بنيامينا فيزدريها ويقول لها أهذا هو ابوك ؟ ثم لا يلبث ان يصيح في الناس : تعالوا وانظروا اي رجل والد بنيامينا

لقد تصاغر نفتالي وامحى في وجهه ذلك العزاء اللطيف الذي احسه ساعة رف النور على جبينه المصوح بعد افلاته من سدفة الديماس ، ورأى رجل الغاب اغبرار عينيه واكفهرار جبينه ، فاقترب منه وهز يده صائحاً :

— من أنت ؟ وفيم أخذتك رعدة الخوف ؟ أفحسبتني لصاً فاشفقت ان يخترق صدرك خنجر اللص ؟

وكان نفتالي قد ادار ظهره لبنيامينا كأنما هو يريد ان يواري صورتهـا ففطن الرجل الى امره وقال له :

— تعال ، اقترب مني ، وحدثني عن امرك ، وقل لي لماذا لا تريد عزوفا عن مكان انت فيه ؟

ولم يكن في ميسور نفتالي ان يدافع ؛ فتولى عن مكانه ووقف الى ناحية ، فبدت

جثة بنيامينا ، ورآها ذلك الرجل فصاح لاول وهلة : ماذا ؟ اقاتل انت ؟ ثم نظر الى يدي نفتالي فاذا هما نضاحتان بالدم فاستأنف صيحته :

— ياللرجل القاتل!

ثم قذف بنفسه على نفتالي ، فتقهقر التعس وهو يصيح :

— ما انا بقاتل ، ولكنني رجل سيء البخت ، مهيض الجناح ...

وكان الغريب قد اكب على جثة بنيامينا واخذ يتفحص عينها وجبينها ، ثم ما لبث ان صاح :

— بنيامينا ، بنيامينا ، لقد قتلها ياشقي

وحاول نفتالي ان يفتح فمه ليقول له كلا انني لم اقتل هذه الفتاة التي هي ابنتي ولكن فمه ظل مغلقاً فاستعاض عن الكلام بالايماء واخذت يداه الهزيلتان الداميتان تقولان مالم يستطع فمه ان يقوله ، ودل ايماؤه على انه ليس بالرجل القاتل ! ثم وضع يده على قلبه كأنما هو يريد ان يقول للرجل هلم واستمع الى وجيب هذا القلب فانه ليدلك على انني بعيد عن الأثم ثم لم تعد يداه قادرتين على الايماء فتولت دموعه شرح هذا الالم الذي لم يستطع ان يقول بلسانه كلمة عنه

وكان الغريب قد تهافت على بنيامينا ووضع اذنيه على صدرها فاذا هذا الصدر عامر بالخفوق فظهرت على وجهه فرحة شديدة واخذ يهمس :

— انها لم تمت ! نعم لم تمتبنيامينا ياكريستياالغالي . ولم تمتد اليها يد اركاديوس لبتك هنا ، اذن لكان في ميسورك ان تبتهج وان تضحك . ولأستمعت برفيقي ان تسمع هذه الغابة ارق اشعارك واعذب اغانيك !

لقد هز اسم كريستيا شواعر نفتالي فما عاد ذلك الاخرس الذي يكلم الناس بالايماء ، ففتح فمه وحرك شفتيه وصاح :

— أتقول كريستيا ؟ اتعرفه انت ؟

فلم يجب ، واكب على بنيامينا النائمة وجعل يصيح في اذنيها !

— بنيامينا ، بنيامينا ! ... افتحي عينيك ولا توجسي شراً فاني انا مارسيليوس صاحب كريستيا . فصاح نفتالي :

— أأنت صاحب كريستيا ؟

فلم يجب ، ولكنه ظل يتحدث عن كريستيا الى بنيامينا النائمة . واخذت يده تدغدغ شعرها المرسل ، فتحركت قليلا . فعاف مكانه وجاء الى الينبوع فاغترف من مائه البارد ، وراح يريق الماء على جبين النائمة الحالمة . فنعشتها برودة الماء ، ففتحت عينيها فاذاهما ضحوكان كأن بنيامينا كانت تستعرض في الرؤى حلماً عذبا لذيذاً ثم تكلمت هامسة :

— كريستيا ! كريستيا . كانت هذه الانشودة التي انشدتها ارق اشعارك ثم راحت عيناها تغمران الغابة والاشجار والمياه والاشياء ثم تجهم وجهها قليلا وادركت انها كانت تحلم وذكرت اباها فمضت نظراتها تبحث عنه ، ولكنها لم تر خيال نفتالي بل رأت خيال مارسيليوس فلم تعرفه . بل لقد خيل اليها وقد رأت شبحه مطلا على جسدها انها ترى خيال اركاديوس فصاحت صيحة اليمة رددتها جوانب الحرجة :

— اركاديوس ! اركاديوس !

وجفت مضجعها على الارض ووقفت على قدميها تنظر الى مارسيليوس نظرة ذاهلة خائفة ولكنها لم تجرؤ على الكلام فقال لها مارسيليوس :

— حدقي الى وجهي وقولي لي ماذا ترين على هذا الوجه الذي ضحكت له في الماضي ! ... تذكري اي رجل هذا الذي يتحدث اليك

واخذت تقترب منه وعيناها في عينيه فكان يقول لها :

— انا مارسيليوس : أنسيت ذلك الصديق المواسي ؟ أغربت عنك صورة الرجل الذي احب كريستيا واحبك من اجل كريستيا ؟ وعرضت لها صورة هذا الحاضر الذي تعيش فيه وذكرت اباها التعس ولم تنس مضيه في الدفاع عنها في كثير

من الرأفة والحب والشفقة فصاحت :

ــ اين هو ابي ؟ بل اين هو نفتالي ، ذلك الرجل التعس ، لقد كان هنـــا منذ لحظات ، فهل قتلته ايها الرجل ...

وكان صوتها رقيقاً عذبا فهزت نبراته قلب مارسيليوس فقال لها :

ــ لقد روعتني ، فهل كان ابوك معك يابنيامينا ؟.. قالت :

ــ نعم كان ابي هنا وقد لقي في سبيلي من العنت والالم فوق ما لقيه في منفاه الشاحب

وفي تلك الاثناء كان نفتالي الذي لم تفته كلمة من كلمات بنيامينا ينشج من فرط الألم فانتبه مارسيليوس الى نشيجه ، وتلفت اليه وجعل ينظر الى ملامحه وقدر له في لحات قصيرة ان يقرأ على قروح وجهه تاريخ حياة ذلك الوالد المنفي فتقدم منه وقال له:

ــ أأنت نفتالي الشريد الطريد ؟ ...

فصاح نفتالي :

ــ نعم انا هو ابوها ايها السيد ! ارأيت انني لم اكن قاتلا ... وانني ما طويت ليالي الا لأتسرق همساً لذيذاً عنها ...

فصاح مارسيليوس :

لقد اسأت اليك فاصفح عني ثم التفت الى بنيامينا وقال لها :

هذا هو ابوك فقبليه ...

الفصل الرابع والعشرون

نذر بنيامينـــا

القت بنيامينا نفسها بين ذراعين تسيلان دماً وشمت التعسة وهي على صدر ذلك الوالد الشريد الطريد رائحة جراحاته ، ولمست تشيج صدره ، ولم يفتها دمع ثرته عينان فارغتان الا من ضياء ضعيف ، واشرق خفيف وكانت قبل ساعات لا تشعر بقليل من العزاء . فلما القت ، رأسها على صدر نفتالي المخضلة جنباته بالقروح انساها شجن ابيها وحوادث الشهور والاعوام شجنا علق بنفسهـــا منذ ايام فتضاحكت قليلا لعل تضاحكها يلطف من حزن ابيها الذي اخذ في تلك الفينة ينظر الى جمالها الخالب في كثير من الموادعة والحب والحنو

وبعد قليل خطرت لها قصة مارسيليوس وذكرت لهجته الصافية وحديثه الصريح وانتبهت الى وقوفه غير بعيد عنها فنادته قائلة :

— مارسيليوس ، مارسيليوس ، اين هو كريستيا ؟

فاقترب صديق الشاعر من الخليلة العانية وقال لها :

تركته في منزله في الليلة الفارطة وخرجت ابحث عنك لادفع عن مثواك غزوة اللص اركاديوس وقد كان حظي جديباً ماحلا وذلك لانني سلكت طريقاً طويلة للوصول الى منزلك وسلك اركاديوس اقصر الطرق ثم جاء حصادي وحصـــاد اركاديوس مختلفين متفاوتين فبلغ الطاغية صبابته من احراق وتدمير وتقتيل ومـا بلغت صبابتي من انقاذك ولما طفت باطلال منزلك بعد ان توارى شبح اركاديوس ولم اظفر بخيال منك رحت الى بيت كريستيا وخفقت بابه وسألت عن الشـاعر النابه فقالت لي سافو العانية الباكية ان مشهد الحريق قد فجر دمعه والهب احساسه فخرج من منزله مقسما ألا يعود قبل ان يعثر على جثة الفتاة الغالية التي وهب لهـا ذكاءه والمعيته ؛ وكانت سافو تتكلم وعيناها تنظران الى عمل النار الحـاصدة في

القصر المنيف المنبسط على شاطىء البحيرة آملة ان يطالعها خيال كريستيا فرق قلبي لهذه الانسانة الضعيفة التي ارادها الشاعر على العزلة في يوم اظلت افقه سحب من الدم ورحت افتش عن كريستيا رجاة ان ارده الى معتكفه وكانت طريقي التي تخيرتها للحـــاق به تدفع الى هذه الاجمة وهي اقصر الطرق الموصلة الى بحيرة طبريا .
ثم كان من امري انني سمعت صوتا ينادي بنيامينا فاجتذبني الصوت الى هذه الناحية فتدلفت اليها فاذا انا حيالك وحيال ابيك . فصاحت بنيامينا :

— انني خائفة يامارسيليوس

— ممن تخافين ؟ قالت :

— اني اخاف ان يخترق خنجر اللص اركاديوس صدر كريستيا الشريف

— لاتخافي ، فليس لرجل مثل اركاديوس ان يجرؤ على قتل كريستيا الشاعر النابه الذي احبه الشعب الروماني !

— ولكن كريستيا لم يرجع الى منزله ، فاين هو الآن ؟

قال : سأنطلق للبحث عنه في هذه الحرجة ، وهي كما تعلمين طريقه الى معتكفه قالت

— ناشدتك الله ان ترده الى بيته فان من الخير لنفسه ان تهدأ وتطمئن وتنسى حباً لم تحصد منه غير الضنى والالم وغير خمول الذكر ، ان آفاق الحياة واسعة امام كريستيا فاي غنم له من عيشة يمضيها في افق ضيق لا يطل على عالم آخر ، قل له ان بنيامينا تريده على ان يصطنع مواهبه في سبيل المجد ، بل قل لذلك الشريف الذي عرفت اشياء كثيرة عن مطامحه واهوائه العالية ان بنيامينا قد نذرت ان ترافق اباها الى شواطىء البحر الميت لتعزيه وتواسيه وتغسل جراحه ، قل له يا مارسيليوس انني ماضية في نذري ، وانني لم اهب ما تبقى من عمري لابي التعس الا لهب كريستيا شبابه للمجد ، نعم ان الحب بريق على المعبة الشاعر قبسا ساميا يحسر عن كل ماهو نبيل وشريف في هذه الحياة ، ولكن الحب غير المجد يامارسيليوس ، الحب يخصب الحياة ويرققها ويخلع عليها شيئاً كثيراً من الفتون ، ولكن المجد يهذب النفس ويصقل المطامح والاهواء ، ويرتفع بصاحبه الى افق لا اعرفه انا ولا تعرفه انت ، فمن الخير لكريستيا ياصديقي ان يفيء الى دنيا تمور بضجيج الشهرة واصوات طبول الحرب

واناشيد المساعير الكماة . الى دنيا ينهض على حمايتها ورعايتها عنفوان بزنطية . وتضيء اسدافها شموس قصر الشالسيه وقصر دافنه عن كثب من بيعة اياصوفيا على الشاطيء الهادر في بحر مرمرا الازرق ...

قل لي متى تنطلق الى كريستيا ؟

قال : في هذه الساعة اذا شئت . قالت :

— اذهب وليغمرك الله بضوئه فاني مارأيت في الناس من يضاهيك في رقة شمائلك وطيب منبتك

وجعلت بنيامينا تتكلم في حماسة وكبر عن سلائفه وصفاته ، حتى اثر حديثها في نفسه فشكر لها ايغالها في اطرائه ، ثم راح يعدو في الحرجة الفيحاء وقد استفاض صوته في الأفق وجعل ينادي كريستيا ووقفت بنيامينا تنظر اليه عن بعد فلما وارت طيفه بواسق اللوز والجوز ارتدت الى ابيها التدميع وقالت له :

— الى البحر الميت يا ابي ! الى تلك الشطآن التي احرقتها شمس الصحراء

فصاح نفتالي صيحة الليث :

— لا لا ، انك لن ترافقي اباك في اسفاره الجاهدة ، فلعل من الخير لنفسك ان تعيشي في دنيا لاتشبه دنياي ...

— ابي !

— ابنتي !

وكان الالم قد برح به ، كما برح بها ، فراح ينظر الى شحوب يخطف على جبينها وراحت تنظر الى شحوب يخطف على جبينه ، ولم يفته عجزها عن ارتياد المسافات والمفازات وكذلك لم يفتها عجزه عن الايغال في الصحارى والبوادي ، فقال لها ابقي هنا على مقربة من مغنى كريستيا ، وقالت له انك لن تذهب الى ابعد من هذا الحرج الافيح ، ثم راح مطوقها بذراعيه المشبوبتين ، فلم يشعر لفرط ذهوله بانســلال ذراعيها اليه ثم استفاض من صدره لهام بليغ ، كما استفاض من صدرها لهام بليغ واختلط دمعه بدمعها اختلاط همسه بهمسها وكان يقول لها وفمه على جبينها ، الآن تذوقت جنى السعادة ، فكانت تقول له وفمها على جبينه ، الآن عرفت ابي ! ...

الفصل الخامس والعشرون

في الطريق الى اورشليم

'وغل مارسيليوس في تلك الجنة الفيحاء وهو يصيح :

— اين انت يا كريستيا ؟ اين انت يا اخا شبابي !

وكانت صيحته شديدة ، فرددتها تلك الارجاء الواسعة ، وحمل النسيم الرقيق صداها الى شواطيء الاردن ولكن كريستيا لم يرتفع له صوت في تلك الاماكن ، فتمادى مارسيليوس في الصياح رجاة ان تهز نبراته قلب كريستيا فيهرع اليه ويسأله عن بنيامينا فيقص مارسيليوس عليه حديثها وحديث ابيها ، ومع ان صوته قد ملأ الغابة وجاز فضاء الاردن ، فان شيئاً مما أمله لم يتحقق ، فارتد الى الغابة وجعل يبحث بين اشجارها الواشجة واغصانها الملتفة عن صديقه فما عثر على خياله ثم غشيته سحابة من يأس وخيل اليه ان ذلك الصديق الذي يبحث عنه ضل سبيله او اخذته سيوف اركاديوس وكان تفكيره في مصرع الرجل الذي احبه كافيا لحمله على الصدوف عن قصده فهم بالرجوع الى بنيامينا ليقول لها ان كريستيا الذي احبت لقي حتفه وان سيوف اركاديوس اخذته بينما هو يلتقط اخبارها من عابري السبل ، ورواد الآفاق ؛ ولكن جرجرة الماء في الاردن لم تلبث ان خرقت سمعه ومنعته ان يرجع الى بنيامينا ، فخطر له ان يقتحم النهر ويجوز شاطئه ، فلعل خيال كريستيا يطالعه ويتراءى له على الشاطيء وكان يعلم ولع كريستيا بالضفاف الرخية الظل ، وايثاره الطواف حولها في خروجه من منزله عند الصباح وفي رجعته اليه عند المساء ، فازمع ان يمضي في البحث عنه فذلك خير له من ان يرجع الى حبيبة الشاعر رجعة الخائب ، وفي اقل من القليل عاف مارسيليوس ذلك الغاب الافيح ونهد الى شاطيء النهر . فاذا الزهر يكسو حفافيه ونواحيه فما هزته الوان الخزامى

ولا اماله اعرافها ، وذلك لأنه كان يفكر في كريستيا ، وكان يعلم ان لكريستيـــا وحده ان يستمتع بهذه الاوراد المتضوعة ففتح فمه وجعل ينادي الشاعر النابه :

— اين انت يا كريستيا ؟ هلم وانظر اي زهر تفتح على الشـــاطيء ، ومرت بخاطره صورة بنيامينا فادرك روعة تلك الانشودة التي سيغنيها خليله حينما يتراءى له خيال الحبيبة الغالية فاوغل في صياحه ؟ اي كريستيـا ! هلم وانظر اي حلم بهي ينتظرك في الحرجة الغناء وانه لكذلك اذ عرض له على الشاطيء المقـــابل شبح رجل كان قد ولى ظهره ناحية الشاطيء الذي لاح مارسيليوس عليه وقد اخذت يداه تجمعان الزهر من ابيض واصفر واحمر ، فخطر لمارسيليوس ان يسأله عن كريستيا ؛ فقد يكون هذا الشبح ممن يعرفون الشاعر النابه والمثال العبقري ولـكنه لم يفعل ، فقد حدث ان ادار الرجل وجهه الى ناحية الشـــاطيء الآخر فعرفه مارسيليوس ورأى على وجهه صورة كريستيا الجاهمة الكابية فصاح :

— كريستيا ! كريستيا !

وكان صوته عنيفاً شديداً وكان على عنفه وشدته شجياً مؤثراً فانتبه كريستيا اليه وحرك جرسه الشجي شواعره الراكدة فوقف على قدميه ويداه تغصان بالازاهر وراحت عيناه تنظران من الشاطيء المقابل الى مارسيليوس الراكض على الشاطيء الآخر ثم تلاقت النظرات نظرات الشاعر النابه ونظرات الخليل الواله ثم صدرت صيحتان اثنتان واحدة من صدر كريستيا واخرى من صدر مارسيليوس فقـــال خليل بنيامينا :

— مارسيليوس ! وقال صديق كريستيا :

— كريستيا !

ولما سكت الشاعر لم يسكت صاحبه بل قال له :

— لقد شممت اريج الزهر منذ هنيهة ، وكنت واثقاً ان هـــذا الاريج الفواح لا يصدر عن غير كريستيا ! فصحت هلم الي يا شاعري ، فان حلماً لذيذاً قد انبثق

من اورادك وراح يملأ هذه الاماكن بالصفو والدعة والاماني العذاب ! …

وكان كريستيا يستمع الى حديث ذلك الصديق الغـــالي ، ولـكنه لم يجرؤ على الكلام فقد ظلت يداه قابضتين على الازاهر وظلت هذه الازاهر نائمة على صدره وقد اشرق وجهه وزها . كما اشرق الزهر وزها ، وراحت الطيور السابحة في سماء الاردن تحلق فوق رأسه ثرثارة هدارة ، ونفس كريستيـا ثرثارة هدارة ؛ واشعة الشمس تغسل الشاطئين ، وتلثم الماء في جريه ودفقه

ليس في الشعراء شاعر يبرع في وصف هذا المشهد غير كريستيـا ، وليس في العالم على رحبه وامتداده من يفهم هذه الروائع غير كريستيا ! ولـكن الشـــاعر العبقري الذي جمع بين كبرياء الماضي وجلال الحاضر لم يفطن الى هذه الروائع ليخلع عليها جمال عبقريته وسحر ذكائه ، وكان صدره على الرغم من هذه الازاهر النائمة عليه يجيش بشواعر معتمة لا تساعده على فهم هذا المشهد الساحر الخالب

وظل مارسيليوس يناديه ويناشده ان يستفيق من ذهلته ، حتى رجع الى نفسه ففطن الى حاضره ، كما فطن الى ازاهره النائمة وجعل يحدق الى المـــاء والى الشجر والى مارسيليوس الرابض على الشاطىء الآخر ثم لم يلبث وقد رد اليه حجاه الذاهب ان صـاح :

ـــ مارسيليوس ! اين كنت ؟

فكاد مارسيليوس يجن من الفرح فقد رأى الحياة تمس صدر كريستيا ، ورأى الى الازاهر وهي تتحرك على ذلك الصدر ، ولم يفته بصيص خاطف في عيني صديقه رأى هذا كله فقال :

ـــ كنت ابحث عنك يا كريستيا ! فاي عالم حجبك عن اصدقائك ؟ ولمن هذه الازاهر التي جمعتها على صدرك ؟ فقال ،

أتدري ياصديقي ان بنيامينا ماتت ؟ وانني جمعت هذه الازاهر لانثرهـــا على رمس لم اتعرف الى مكانه بعد ! قال :

— انك لواهم فان درتك الغالية لم ينتزعهـا ذلك اللص اركاديوس ! وستظل قبساً يضيء حياتك الى خاتمة مطافك في هذه الدنيا

فلمعت عينا الشاعر بوميض خاطف وانثنى قائلا :

— مارسيليوس ! أتعرف خبراً عن بنيامينا ؛ قال :

— انها هنا عن كثب من منزلك في الحرجة الفيحاء فصاح كريستيا :

— حذار ان تكذب في قولك فاني لا استسيغ الكذب ؛ قال :

— ما اردت نفسي على تسليتك بالكذب ، فبنيامينا التي تحب لم تأ كلها نار اركاديوس ولم تمتد الى صدرها الناعم خناجر لصوصه ، وذلك لان الله الذي نؤمن به يا كريستيا قد اعانها على اركاديوس بان بعث اليها رجلا يذب عن حياضهـــا ويمنعها الاسواء ! ...

— لعلك انت ذلك الرجل ؟

— كلا !

— اذن من عسى ان يكون هذا الرجل الذي احسن الي بان ردها علي ؟ قال :

هو رجل يتحاماه الناس كما يتحاماه كريستيا ! رجل لا يستطيع محب ان ينافسه في حبه لبنيامينا وولعه بها !

قال : انك لتوقظ غيرتي ؛ فهل عرفت في حياتك رجلا ينازعني في هيـــامي وولعي . قال :

نعم اني اعرف رجلا واحداً لا تجاريه في اخلاصه وحبـــه . رجلا لو جاء المحبون في العالم بقصص الحب ؛ وجاء هو بقصة حبه . لرجح وفاؤه لحبيبته على وفاء المحبين لعشيقاتهم ...

— انك لتحفزني الى غيرة لاذعة ، فاي رجل هذا الذي طغا حبه على حبي؛ قال:

— هو ابوها ... فصاح كريستيا :

— نفتالي ! نفتالي ؟

— نعم نفتالي : نفتالي ، ارأيت كيف ان حب الفتى العشيق لا يساوي حب الوالد الشفيق ؟ قال :

لقد كانت بنيامينا لا تجرؤ على ان تفكر فيه . وكانت اذا لذت ذكراه انتبذت في قصرها مكانا قصياً لتهمس باسمه والآن قل لي ايها الفتى الشريف مارسيليوس ابن هي بنيامينا ،

لقد اخضلت عينا كريستيا بدمع وزخرت نفسه الوادعة بشعور جديد شعور ما احسه الشاعر النابه حيال نفتالي من قبل ان ينصت الى احاديث مارسيليوس الوفي ، ثم استفاض هذا الشعور الجديد على سائره فما عاد يستطيع له دفعاً ، فاجهش الى نفتالي حاسراً عن ذراعيه كأنما هو يريد ان يضم الى هاتين الذراعين الممدودتين احزان الرجل الذي امعن الالم والنفي في ترويع ايامه واعوامه

ولم يفت نفتالي شجن كريستيا وارتماضه فزرف اليه حاسراً عن ذراعيه المشوهتين وقال له :

لقد غسلت دموعك ايها السيد جراحات في جسدي وجراحات في نفسي فعدت جديداً في الناس كأنما امي التي احب قد ولدتني هذه الساعة . اما برك بابنتي التعسة فليس بالشيء الذي ينساه اب انفق ايامه واعوامه وهو لا يجرؤ على ان يهب لابنته مثل هذا الحب الذي وهبته لبنيامينا !

وجعل نفتالي ينشج من فرط الالم فقد مرت به ذكر ماضيه في مثل خفة الوميض وقدر وفاء الشاعر لابنته وادرك ان هذا الحب الذي يجيش به صدر كريستيا كان لا معدى لبنيامينا عن الشعور بمثله لتنسى ارثها من ابيها . وهو ارث يعلم نفتالي ألا سبيل لبنيامينا ان تسكن اليه لولا هذا الهوى الذي وثق بينها وبين الشاعر النابه

ولما استراحت نفسه . وتداعت وساوسه . واطمأن الى مصير فتاته قال لكريستيا وهو يومض بيدها المشوهة الى مارسيليوس !

كان هذا الفتى في رجولته وعنفوانه وحماسته وحبه ، وفي انتصاره للمرأة العاثرة صورة لك ايها الفتى كريستيا . وما عشت لن انسى حميته ونجدته ساعة ازجى نفسه الى مواطن اللهب ، ولا غرض له من المغامرة بشبـابه غير ان يفيء اليك بالفتاة التي احببت !

لقد ردها الى قبل ان يحصدها بغض اركاديوس ، فنظرت اليها فاذا وجهها الذي اذبله الالم ، وصوحه اليأس ، لا يزال يضيء بقبس من عرفان الجميل ! هـات يدك يامارسيليوس ، فوالله ما كان نفتالي المسيخ المشوه بالرجل الذي ينكر اشرف السلائق هات يدك لاضعها على شفتي ، فلقد تورق الابتسامة على هاتين الشفتين اليابستين اللتين ما عرفتا الضحك منذ هاض جناحاي على ساحل البحر الميت في وطن السادوميين والعموريين

وراح نفتالي الى ناحية مارسيليوس ، فاخذ يده ، ومارسيليوس الرجل النبيل يدفعه عنها في رفق وتؤدة وحب ، ولما لثمت شفتاه الذابلتان يد مارسيليوس شعر عزاء لطيف يغسل نفسه وبرقت عيناه بوميض لم يحس نفتالي مثله قبل هذا اليوم ثم اجتذب بنيامينا الى صدره وقال لكريستيا :

انها ابنتي ياسيدي وقد ردت الي بعد فرقة وشتات . فهل تأذن لي في المضي بها الى المنفى فلا تفارقني حتى يواريني ليل الابدية الجاهم !

وكانت بنيامينا في تلك الفينة تنصت الى هذه الاحاديث ، وتنظر الى كريستيا لترى الى اثرها في روحه ونفسه . فلما حسر ابوها عن ارادته في المضي بها الى منفاه لم يفت المرأة العامدة شجن بليغ اخذ يطفو على جبين الشـاعر فاحبت ان تعزيه وتواسيه فقالت له :

الآن وقد ردني الله الى ابي . ورد ابي الي : فقد صار في ميسوري ان اعيش عن كثب منه في تلك القفرة العارية التي ارادها قيصر وطناً لنا جميعاً ! ..

فصاح كريستيا :

ــ اتذهبين الى البحر الميت ؟ فابتسمت وقالت :

ــ نعم ساذهب الى البحر الميت لا لطف من احزان ابي وارقق حياته فلا يشعر بالم النفي ...

ــ امثلك يعيش بين الاصلاد الشاحبة تحت ذلك الافق الذي ينضح النار والقار

ــ كريستيا ! ان حياتي ليست هنا في قصور الشاطيء . ولا عند حدور مجدلة وكفر ناحوم ، حيث يعيش البغض والثأر والحسد والرياء وانما هي على جدة البحر الميت حيث ينزع ابي الى خلق عالم جديد من الحب والموادعة ، وحيث يجد ابي عناصر هذا العالم الذي ينزع الى خلقه في ضحكي وحبي !

ــ ولكن حبي لك كفيل بحمايتك من مخابث البغض والرياء والحسد بل ان حبي لك كفيل أن يخلق ذلك العالم الوادع الساكن الذي تشتاقه نفس ابيك ! ... لماذا لا تحب البقاء في طبريا ايها السيد نفتالي ! أفتشك في صداقتي وقد سمعتك قبل لحظات تمجد هذه الصداقة ؟ فقال نفتالي :

ما شككت في صداقتك ولكني احب ان تظل حياتك في جبال الجليل صافية هادئة فلا ترنقها كدورة لبست حياتي ...

مثلي في هذه الدنيا مثل طائر افلت من عشة ليروض نفسه على الحياة في عش لم يألف صورته في طفولته فلما حلق في الآفاق اقرسه البرد ، وتحيفه المرض ، فود لو انه يستطيع رجوعا الى عشه الاول لعل ذلك الدفء الذي نضر شبابه وامانيه في عمره الباكر يذهب بذلك البرد الشديد العنيف !

ستدرك من حزني البليغ يا كريستيا ، ومن تهيي الراعب ومن انبثاق جراحاتي ومن سبحي في الرؤى الراعشة الراجفة ان حياتي تحت آفاق طبريا ليست مما يروق وستفتح عينيك ايها الشاعر في صباح الغد على الكروم والمخاضر فيهزك ضحك البلبل على الشجر الوارف ، ويشجيك غناؤه ، وقد يخطر لك ان تسأل عن طائر اسمه نفتالي فيقول لك الصحب والرفاق ما سمعنا بخبر عن طائر يحمل هذا الاسم

الكريه المقيت . فاذهب وفتش عنه بين كواسر الطير ، بل سيقول لك صحبك هذا القول ، لأنهم يعرفون اي رجل هذا الذي اورث بنيامينا عاره والمه

لن ارفض صداقتك ياسيدي ولكنني ساطير من الصباح الى وكري الاول ، وسأغني على اصلاد مواب وفي جبال اليهودية ، وعند جدة البحر فيوطن السادوميين اغاني في الجنون والنسيان والالم فلا تسمعهـــا شواهق جبل تابور ، ولا سفوح الناصرة ، ولا خمائل الاردن وذلك لاني لا احب ان يطفو شبحي الراعب على هذه الاماكن التي ترقرق عليها خيال الناصري الرحيم الشفيق ! ...

وستصحبني بنيامينا الى ارض سادوم ، وتحتوينا معاً تلك القفرة العارية النابية عن زخرف العالم ، وستسمعني هذه الابنة التي لم استمتع بجرسها الناعم وهي طفلة تحبو على ارض الخيلة في منزلي عند حدود بيت صيدا لحون قلبها فيرقق جرسها شعوري ، وينضر حياتي ، ويخلع النغم الفاتن على جبال المنفى جمالا كثيراً مابحثت عنه فينأى عني ! ...

انها ابنتي ياكريستيا ؟ فاي رجل في هذه الدنيا يجرؤ على ان يسلبني ابنتي ! ...

سكت نفتالي لأن آلامه منعته ان يستفيض في حديثه ، ولأن ذكريات ماضيه عادت الى مغالبته ، ولأن حبه للشاعر كان يمنعه ألا يحمل الى نفس الشاعر الما جديدا ولكن كريستيا الذي هاجته كلمات نفتالي لم يشأ السكوت ، ولم يقنط من استمالة بنيامينا اليه ، فطفق يتحدث اليها عن حياة تنتظره وتنتظرها في بلاد الجليل ، فما امالتها احاديثه ولا رققت نفسها عبراته . وقد قالت ساعة اراد ان يحتويها بين ذراعيه ان الحياة الماجدة التي تنتظره ليست في بلاد الجليل بين ذراعي الخليعة العامدة ولا هي في عزلته بين تصاويره وتماثيله في منزله الساكن عند ضفاف الاردن وانما هي في قصور الشالسيه في بزنطية حيث تجتمع صور القياصرة الذين اخضعوا العـــالم الى جانب صور البطاريك ! ...

وحينما اذكرته احاديثه الماضية عن نزوعه الى الشهرة في القسطنطينية او في رافين

شعر بخجل شديد من حياته الحاضرة . واستحيا ان توقظ احساسه وتلهب شعوره فتاة لا يجري في عروقها مثل هذا الدم النبيل الذي يجري في عروقه ، ثم جعل يقارن بين عيشته الخاملة المتواضعة عند ضفاف الاردن ، وعلى حدود طبريا وبين العيشة الماجدة التي تنتظره في قصور الشاليسيه عند شواطي البوسفور . فاخجلته المقارنة وروعه ان تفتش سلائقه عن قبس يهيجها ويحمسها على صدور الوصائف والحظيات بينما هذا القبس الذي يضرم سلائقه ويحمسها يحترق تحت قباب من الزمرد والياقوت والذهب في صروح مازالت تحمل اسم ابيه ! وكانت هذه التصورات الذي ازدحمت في صدره شديدة عنيفة فما استطاع لها حملا فبدا لمارسيليوس ولنفتالي ثم لبنيامينا على صورة الشيوخ واوشك ان يتداعى لولا ان بنيامينا ارادته على الصمود وللمرة الاولى شعر كريستيا وهو على صدر بنيامينا بوقر ذلك الارث الذي تسلل اليه من ابيه ومن ماض بهي اراق ابوه على جنباته بهاء الفتوح والغزوات في البلاد الاجنبية وكانت عينا بنيامينا تنظران الى عينيه فلما احست دموعه رقت له رقة الثية وفكرت في البقاء عن كثب منه لتعزيه وتواسيه ولكن نظرة قاسية من نفتالي ثنتها عن تفكيرها

وفي تلك الفينة صاح نفتالي :

— تعالي يا ابنتي ...

فادركت الساحرة ان اباها يريدها على اختصار هذه المأســـاة فتركت ذراعي كريستيا وانحت ناحية ابيها وهي تصيح :

ان ابي يدعوني اليه يا كريستيا فوداعا وداعا !

ورأى كريستيا اي حماسة طغت على بنيامينا وهي تذكر اسم ابيها فاستحيا للمرة الثانية من استخذائه لحبه ومن جنونه ومرت بنفسه صورة سافو الصغيرة كما مرت به صورة ذلك القبر المنعزل الذي استراحت اليه امه الرحيمة البارة في خمائل بيت صيدا ، ثم عرضت له مأساة ابيه فرأى اشباح الماضي ، رأى موكب ابيه في طريقه الى كنيسة اياصوفيا وهو بلباس القياصرة . ورأى الشعب يهتف لابيه امام قصر

مجلس الشيوخ في ميدان اوغستون ، ورأى كذلك صورة تمثل اباه وهو على فرسه الى جانب صورة السيد المسيح في قصر دافنه . ثم رأى صورة تلك الثورة اللاهبة التي هاجتها سيول الدهماء في ليلة من ليالي الشتاء الصاردة ، ورأى اللصوص يتسورون الحياط والجدر في قصر الشالسية يبحثون عن امه وابيه واخوته ، رأى هذا كله فلمس كارثة حياته وفطن الى ما ينبغي له ان يفعل بعد ان مزقت خناجر الرعاع صدر ابيه وبعد ان اطل هؤلاء دماء اخوته الخمسة . نعم لقد فطن كريستيا الى ما ينبغي له ان يفعل وهو آخر الفتيان من اسرته فصاح :

— وداعا وداعا يابنيامينا . فاني سمعت نداء ابي في هذه الفينة فلبيته كما سمعت انت نداء ابيك فلبيته !

وكان الوداع مؤثراً شجياً فقد تلاقت نظرات الحبيبين ، كما تلاقت دموعهما في هذه البطحاء الريا بذكريات الحب والشعر والعطر

وقد ابت بنيامينا قبل ان تبرح هذه الاماكن الزهراء الا ان يسمعها الشاعر النابه ارق اشعاره في الحب الذي قدر له ان يطفىء شعلته على اصلاد الجبال الغافاء ، وكانت تعلم ان كريستيا لا يقول الشعر الا على صدرها الراعش فوضعت رأسه على صدرها وقالت له خذني بين ذراعيك ودع انفاسك تطفو على انفاسي ، فان القدر قد ارادني فريسة من فرائسك ، وغنيمة من غنائمك . وجعل اسمك العذب منبع ذلك النور الذي يملأ حياتي ويضيء طريقي

كريستيا ! سيبتسم لك القدر الذي عبس في وجهي ، وستمشي في حاشية من النور الى المجد الذي تحبه ، وتسكن اليه ، ثم تلتفت الى حياتك الجديدة فيستهويك بريق الذهب على البرفير والارجوان ويهزك هتاف الجماهير في الميادين الفيحاء تحت قباب القصور الشوامخ ! وستنسى ايها الرفيق الذي صحب بؤسي ، ورافق شرودي ، وانصت لنشيجي ليالي الفواتن ، وتنزع من شفتيك آثار تلك القبل التي ضرجتها ليالي بحمرة الشهوة ، وذلك لأن المجد الذي تراءى لك في طفولتك شديد الغيرة يا كريستيا

فهو حيوان عاقل لا يستمرئ جنون الحب ، ولا يلذ طيش الهوى ولا يأنس الى منافس رقيق ضعيف ، ولكن خيالي الهائم السادر على الاصلاد الكابية في جبال مواب سيفلت من رمسه في ذات عشية ، وسيطير بجناحيه الى القسطنطينية ثم يتسرب الى حجرتك في قصر الشالسيه كما يتسرب الهواء اللطيف الخفيف الى الخيلة فيرى اليك وانت نائم في سريرك الملكي فيستجديك القبلة الواحدة وانت تحلم بالمجد وتنظر في الرؤى الساكنة الوادعة الى مواكب النصر التي حشدها ذكاؤك ونبوغك

قبلني يا كريستيا في فمي فان هذه القبلة التي ساحمل عطرها الى منفاي الشاحب في جبال مواب ستترقق الاديم القاسي ، فلا يلبث ان يعود حالياً بالخصب ، فتزهر الجبال وتجيش بالينابيع ؛ ويسري في الافق اللاهب نسيم اقبس منه نفحات الحياة الرخية الظلال ! ...

قبلني في فمي ! قبلني في فمي ! ...

انحنى كريستيا في كثير من الورع على بنيامينا وجعل يقبل شفتيها ولكنه لم يقل ذلك الشعر الذي اماته الخلية العامدة وذلك لأن هذا المشهد الحافز قد هاج احزان نفتالي فنادى ابنته ودعاها الى الذهاب معه الى المنفى فتركت الشاعر النابه وصاحت:

— ان ابي يدعوني اليه يا كريستيا فوداعا وداعا !

ولما حاول الشاعر ان يجتذبها الى صدره نزلة اخرى صرخ نفتالي :

— بنيامينا ، اني اخاف عليك الغسق ...

ثم اخذ يدها وزرف الى كريستيا صائحاً :

— وداعا وداعا ايها السيد ! ...

وكان الحزن البليغ قد هد قواه هداً فاغمض عينيه مخافة ان يرى الى دموع كريستيا ، ثم انطلق يعدو في الطرق المؤدية الى المنفى ويده في يد بنيامينا وفي تلك الفينة تلفت مارسيليوس الى الشاعر وقد جحظ الى الراية التي يقوم عليها منزل كريستيا وقال له في كثير من الكبر :

— ان سافو تنتظر رجعاك يارفيقي لتذهب بها في الصباح الباكر الى امير ايلة فروة بن عمرو

وذكر كريستيا وهو ينظر الى اشجار التفاح والرمان التي تظلل بيته تلك البقعة الصغيرة من الارض حيث تستريح امه في احضان الموت وحيث صليب من الخشب يدل المسافرين على قبر المرأة التي وضعت على جبينها تاج تيودورا تحب قباب قصر الشاليسه في القسطنطينية فاشجاه الذكر فرق واستدمع ثم اخذ بيد صديقه مارسيليوس وقال له :

لقد آليت امام رمس امي لاثأرن بابي من قاتله وسافعل ! ...

فرمى مارسيليوس صديقه بنظرة متفحصة فاذا هو يرعش فروعه مشهده فقال له:

— الا تدلني على القاتل ! فصاح كريستيا :

— انه هراقليوس! فتخافت مارسيليوس بصوته وقال :

ويلك ! اتدري اي اسم هذا الذي بعثته شفتاك !

قال نعم ادري ! قال :

فاي الرجال قتيلك ! فصاح كريستيا :

موريس قيصر الرومان ! قال :

او تكون ابنه ؟ اني لا اكاد اصدق مازعمت ! فمن يدلني على اصلك

فصاح متحمساً : شيمي !

فقال مارسيليوس ، ما نكرت شيمك فقد كنت دائماً ارجع الى نفسي فاسألها من يكون هذا الفتى الذي طغت عبقرية الامير في نفسه على عبقرية المصور ، فكانت تقول لي « انطلق الى كريستيا واسأله عن مأتاه ومصدره فيدلك على ماتحب » !

وتهافت مارسيليوس على يدي كريستيا فشدها شدة مؤلمة وقال له :

ثق ايها الحبيب بصداقتي ! فقال كريستيا وعيناه تنظران الى منزله الصغير !

ستظل صداقتك الثمينة يامارسيليوس حافزتي الى ثاراتي ...

الفصل السادس والعشرون

العائد الى الوطن

رانت الليلة على القوافل العائدة من بصرى الى بلاد العرب . فنصبت خيامها في وادي العربة ، على سفوح تضاحك الزهر في اطرافها الفيح ، وتحير الماء على صخورها الهاوية يشق طريقه في دعة وخفض الى الاودية المجاورة . واغفى رجالها من فرط التعب وجهد السياحة فما يشعر اعرابي بقرس الليلة الصاردة ، ولا يفطن الى قسطلة الماء ، ولا الى ثغاء الماشية ، او الى صرير الريح . وفي الصباح الباكر اطفلت الشمس فضوأت رياع الجبال وتسربت اشعتها الى الخيام فاستفاق رجالها ونهدوا الى ابلهم فسرحوها في الارض العارشة ، عن كثب من المـــاء النمير ، ثم ارتدوا الى حقائبهم فجمعوها وقد ازمعوا مضيا في السياحة حتى يبلغوا جزيرة العرب

وقد كانت الريح تعصف من ناحية الجنوب ، فترمي الوجوه برمل الصحارى والافق يمور بالوان رمادية كابية . ثم اظلمت الشمس فاظلت اسدافها تلك المفازات العظيمة بغيم شديد التعبيس ! فلما نصف النهار هدأت العاصفة وسكنت ثورة الرمال ولألأ الافق ولكن الحر ظل على عنفه وشدته

في تلك الاثناء خرج عربي متزمل من خيمته الى الفضاء الحر الطليق . يلتمس الرطوبة ويبحث عن الظل ، فما ان ردد نظراته في تلك الحوالي حتى اخذته من ناحية الشرق ذرى جبل هارون وهي اصلاد متشابكة ترخر برواء شديد الفتون ولكنها سمراء كابية لا يعلق بهاطرف لتطاولها الى السموات الفيح ، فلم يلبث الرجل ان جنب عينيه النظر اليها ، واستأنف سيره حتى جاور الوادي فاخذته وعورته ، ونظر اليه فاذا سطحه قد تقطع الى فراغ غائرة هاوية متطاولة . تحدق بها كثبان رملية يخيل للناظر اليها انها كانت في العصر المواضي مغيض ماء لم يلبث رحيقه ان

جف ونضب . وقد كان عسيراً على الرجل المترمل الذي حسرت عنه خيمته في هذا النهار القائظ ، ان يجد مكانا قريباً يفيء اليه ، ويستريح عنده على الرغم من ان هذه الحوالي التي اعتادت القوافل ان تسكن اليها في غدوها ورواحهــا بين ايلة وبلاد النبط كانت ريا بالاجمات المتشابكة . والمغاور الكثيفة الظلال ، ومع ان الرجل قد شعر بعجزه عن التوغل في هذا التيه السرمدي فقد ظل منبسط الاسارير ؛ وظلت عيناه الضحوكان الصافيتان تنظران من بعيد الى الروائع الفواتن في هذه الاجمات المتطامنة الى ضوء الشمس ، والروائع الفواتن عالم من الظبي يعيش عيشة مطمئنة وادعة ، فلا يمسه احد من رجال هذه القوافل التي كانت تمر بوادي العربة عند كل عشية وفي كل صباح

وقد لاحت ظبي الوادي للرجل السادر الحائر تحت ريع السراب وبرقه خفيفات رشيقات ثم ابصرها تطفو على اليفوع والحدور فسكن الى مشهدها وتضاحك لهــا قليلا وود لو انه يستطيع ان يشاركها في انسها ومراحها وهو الرجل الذي لم يعرف المرح منذ تلك الليلة العامدة التي خرج فيها من بصرى مع القوافل العـــائدة الى جزيرة العرب وطنه الاول

ومع هذا كله لم يقطع الرجل تأملاته في الوادي ، فقلب نظراته في نواحيه ؛ واستعرض جباله ومنحدراته ، رباعه وشعافه ، مساربه وطرقه ، فما فاته لمع السراب وخطفه لا في الربا العالية ولا على الحدور الهاوية ، ولا في الاجمات الرخية . كأنما هو يريد من ادمانه النظر الى هذه الاماكن ان يقارن بين صورتها وصورة الوطن الذي نشأ فيه ، وترعرع في نواحيه . فاذا المشاهد هنــا في هذا الجزء من الوطن ، صورة بارعة لمشاهد الوطن كله واذا الاحساس الذي رعش في نفسه وهو ينظر الى الظبي الطافرة السارحة ، لا يفترق في كثير او يسير عن ذلك الاحساس الذي احسه وهو في مكة عند ابواب الكعبة . او في وادي القرى بجوار بني عذره ، بل ان احساسه في هذه الارض التي نزل بها بعد خروجه من بصرى فرارا من رجال

قيصر ما كان غريباً عن ذلك الاحساس القديم الذي شعر به وهو في بصرى وفي دمشق ، وذلك لأن وطن ابائه الذي احب لم يبتدىء في مكة على الاصلاد العارية لينتهي في وادي القرى على الحدور الزاهية ، وانما هذا الوطن الذي اولع به واحبه كان عظيما جليلا وكانت دمشق والحيرة وتدمر وصنعاء ومكة من مدنه وحواضره فهو يبتديء من صنعاء ليجتمع الى اجزائه في غوطة دمشق او في قصور الحيرة

ولقد فاضت نفس الرجل المتزمل ، واسمه البسيط المتواضع عمر بن الخطاب بهذا الاحساس في وادي العربة بعد خروجه من بصرى مع القوافل ، ولكن هذا الاحساس الغامر الذي تفتح في صدر القرشي النبيل لم ينته عند هذا المدى ، فجاز وادي العربة ممعنا في طيرانه في آفاق قصية وابعاد مترامية

يفصل سهل العربة الافيح نهر الاردن والبحر الميت عن خليج ايلة ، فاذا بلغ المسافر سرة الوادي استفاضت امامه روائعه واخذته الوانه وبروقه ، واذا قدر له ان يصعد روابيه ابصره ينحدر جنوبا الى خليج ايلة ، وشمالا الى شواطىء البحر الميت ، ثم يتمادى السهل في انحداره الى الشمال حتى يبلغ ضفاف ذلك البحر المخوف الراعب . في هذا السهل العظيم وقف عمر بن الخطاب يتمثل ارض الوطن ويستعرض صروفه ومآسيه ، فلا تفوته وهو ينظر الى الوطن مجتمعا في تصورته افاعيل الاحباش في اليمن ولا مآسي الفرس في العراق ولا مناكر الرومان في دمشق وكانت نفسه ترق رقة عجيبة كلما مرت بخاطره ذكرى ذلك العمل الخالب الذي نهد اليه يتيم من قريش وحاربه من اجله جيل شب على الوثنية وشاب في محارسهـا ومعاقلها ، وقد قام هذا العمل الخالب على الدعوة الى تخليص الوطن ساحله وداخله من الرومان والفرس . ثم على ديانة سامية لم تعلق بها هذه السحب الجاهمة التي اظلت ديانات العالم القديم وقد كان عمر بن الخطاب اول الذين احمسهم هذا العمل الخالب واول الذين آمنوا بصفائه وهو في مكة غير بعيد من البيت، العتيق الذي حجه ابراهيم واسماعيل ثم نذر ليمضين في الدعوة اليه حتى ينضج وحتى يحين حصاده وقطافه!

خرج عمر قبل شهور من وطنه الى الشام في تجارة له ، وجاس خلال البادية ثم انحدر الى بصرى ودمشق وخالط الناس في المدن الوارفة الظل فلم تعجبه حياة قومه وهي مزيج من العبودية والعار . ولم يرقه ان يخضع ملوك من العرب في الشام والعراق لقياصرة الرومان واكاسرة الفرس ثم جعل يقارن بين الحياة الجديدة التي يحسها قومه في جزيرة العرب وبين الحياة القديمة التي يحسها قومه في الشام والعراق فما اطمأن الى هذه المقارنة ، لأن الناس في جزيرة العرب بعد ان استساغوا رسالة اليتيم القرشي كانوا يتبارون في الامتداد بوطنهم الى آفاق جديدة . بينما الناس في الشام والعراق لم ينتبهوا الى تضاؤل الارض تحت اقدامهم

وقد كان اشد ما يرمض عمر بن الخطاب ويثير شجوه ان تبتلع الهوة الراعبة التي انحدر اليها سلائل الرومان او الاغريق جيلا كاملا من قومه وان يغرق الغساسنة والمناذرة وهم ملوك العرب وعبيد الرومان والفرس في امد واحد انفسهم في دجنات هذه الهوة الراعبة بعد ان اخذتهم الشكوك وقرضتهم المخاوف وهامت افكارهم وخواطرهم بين وثنية بائدة ونصرانية كامدة ، وثنية كانت في الزمن القصي البعيد ملتقى شهواتهم واهوائهم . ونصرانية قبست شحوبهـــا من شحوب هذه الاصلاد التي تواري مدينة الناصرة . ولقد ظل الناس في الشام والعراق فرائس الشكوك والريب ، حتى استيقظت في نفوسهم اصداء الماضي فاستمعوا لها ، وفتحوا عيونهم على الآلهة المصنوعة من البرفير والرخام وعافت افهامهم وعقولهم هذه المفاتن التي اراقتهـــا النصرانية على جدر الكنائس والصوامع في ايلياء والناصرة وبصرى ودمشق وامتلأت نفوسهم بعطف شديد على الوثنية الجاهلة ، وقد كانوا يصانعون الرومان في ثورتهم على النصرانية ، وفي نزوعهم الى الجاهلية ، فان عصر هراقليوس وهو عصر محمد كان العصر الذي انتبهت فيه سلائق الرومان القدمـاء في نفوس اخلافهم ، فزهد هؤلاء في محارم السيد المسيح وهياكله ، واستمرءوا تلك الهياكل الرفيعة الانيقة التي رفعتها الاجيال البـــائدة زلفى للآلهة الهالكة .

وتقربا من تماثيل منحوتة وانصاب منقوشة ٠ وصور ملونة لاتمت بنسب الى السماء وانما هي تمت بنسب الى الفن الذي يحيا حياة خالدة . ثم تعاورهم جزع بليغ لأن حماستهم الماضية لدين جديد ما عرفوه لابائهم واجدادهم قد اذبلت ازهار وثنيتهم فما عادت تورق وانقطع عطرها في الناس فلا ينشر جديداً

وسرعان ما اقتتل النـاس على الوثنية والنصرانية في شوارع القسطنطينية وفي انطاكية ٠ ثم اظلت غيوم البغض دمشق وايليـــاء فما ينجو منها عربي متنصر او عربي جاهلي ، نعم ان النصرانية كانت تجد ما يحميها ويعصمها في بزنطية حيث يعيش قيصر الرومان في قصور الشالسيه المنيفة الى جانب البطريرك الذي يعيش في كنيسة الرسل ولكن انطاكية وهي حاضرة الشام ظلت رومانية اغريقية وظلت اشبـاح جوبيتير وطيوف مترفا ودافنه تغطي حياة الناس جميعـا فلم يتذوق كبير او صغير جنى الناصري الرحيم . وقد كان جميع هؤلآء الذين فتنتهم عبادة الاسلاف يرون في آلهة الماضي وفي هياكلها المتداعية المنهارة ظلالا رقيقة حلوة تسكن في سماء الشعر فتحمسوا لها وجعلوهـــا حبيبة الى كل نفس ٠ ومع ان النصرانية كانت لاترى في التماثيل والدمى غير ديانة فارغة واغلاط لا جدى منها فان الذين احتوتهم انطاكية ظلوا يرون فيها حياة حقيقية ، وبينما كان المتحمسون للنصرانية في بزنطية يتهافتون على عبادة الرسل ويرفضون الانحناء امام شيطان الوثنية جوبيتير وربيبته ديانا اخذ الناس في انطاكية يتبارون في تمجيد الوثنية وتكريم رموزها

وهكذا قامت فكرتان متناقضتان . تزحم الواحدة الاخرى في صعيد واحد ، وانقسم الناس الى شيعتين ، شيعة متحمسة للديانة التي تلألأ نورهـــا في جبال الجليل لأنها تكفل السعادة في السماء لبني حواء ، وتطرد مفارح الارض ، وشيعة متحمسة للوثنية لأن هذه الوثنية التي ولدت في بطـاح الاولمب ما انفكت تقدس الجمال وتدعو الى عبادة هذه المفاتن التي تظلل الارض . ومن هنا نشأ التزاحم في القرن السابع بين حاضر النصرانية التي لقيت خصبها وامراعها على ذرى تابور في

الناصرة وفي سفوح الاردن وبين الوثنية التي لقيت جمالها وزهوها في جبال الاولمب المعطرة

وثمة فرق عظيم بين الفكرتين ، فقد كانت النصرانية التي انبثقت من تأملات الناصري تستند الى رسل بسطاء في نفوسهم ، بسطاء في تفكيرهم . وكان هؤلاء الرسل البسطاء يرفعون اصواتهم في بلاد الجليل فيهتز لها العالم مبسوطه وحالقه ، وكانت الوثنية تستند الى شعراء وفلاسفة سامين في افكارهم عالين في تأملاتهم وكان هؤلاء يخلعون على جمال هذه الافكار وتلك التأملات على المواسم والاعياد ثم يطلعون على الناس والغار على رؤوسهم والارجوان والبرفير لباسهم ثم يتحدثون الى الناس بلغة تعاف السذاجة ولا تألف البساطة ، ولكنها لغة الحياة الضاحكة العابثة

نعم ان مفارح الوثنية قد تعاورها اغماء شديد عنيف ولكن في اطلال هذه الوثنية الغاشية بقية من عطر لم يلذه اولئك الذين اخذتهم ديانة الناصري ، وقد كان لزاماً أن تميد هذه النصرانية البسيطة المتواضعة ، ثم كان لزاما ان تعصف بها الزاكي ريح تعريه من ازهاره ورياحينه . فقامت في روما دعوة جديدة ، تتباين مع الدعوة التي قامت في القسطنطينية ، ومن هنا نشب نزاع ابدي بين رجلين اثنين يزعمان خلافة المسيح ، رجل روما ولقبه البابا . ورجل القسطنطينية ولقبه البطريرك ثم طغا على هذه النصرانية البسيطة المتواضعة سيل من البدع اجراه في بطحائها الربا اخلاف آريوس وانصار نسطوريوس واصدقاء ايتوشيوس . ثم تلفت الناس فاذا هم يتنازعون في الشوارع على المسيح نفسه . فما يدري احدهم أكانت للسيد الجليل طبيعة واحدة ؟ ام كانت له طبيعتان !

وهكذا اصبحت النصرانية فكرة حائرة . وكانت في شبابها الاول ديانة زاهرة ثم اصبحت هذه الفضيلة التي طهرتها مياه الاردن فضيحة غامرة لا تستريح نفس اليها (١)

(١) كتاب سورية القديمة والحديثة للاستاذ جول آ دافيد

كانت انطاكية مهد هذه البدع التي نشرت ليلها الغاسق على بلاد الشام في سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وكان ابطالها عصائب من رومان وبزنطيين ويهود لم تجمع بينهم لغة واحدة وحضارة واحدة ، وانما جمعت هؤلاء رذائل واهواء ولدتها سلائق متشابهة ، وكان غرض الجميع ايثار العاطفة الجامحة على الديانة الراجحة . فلم يلبث الناس بعد ان استفاضت عبادة اللذة في سهول الشام وجبالها وشطآنه ان استعاضوا عن عيشة الاجداد الذين ماتوا في سبيل الناصري الرحيم ، وفي سبيل قيصر ، وفي سبيل الوطن ، بعيشة رخية رضية عناصرها الترف والفرح والحب والشهوة ، وكان طبيعياً وقد بدل الناس سلائقهم الماجدة ان تخمد في صدر ذلك الروماني الذي اخذ في ماضيه يفتش عن المجد ليخلده في اشعاره واغانيه جذوة الحرية فاغرق نفسه في النعيم وفي اللذة ولم ينتبه الى سقوط ذلك البناء المشمخر الذي وثقه بدمه الطليل !

وقد كان حصاد العرب من هذا القلق الذي عصف بروح النصرانية ، لا يفترق في يسير او كثير عن حصاد الرومان والاغريق ، فلقد تفرق اولئك في جزيرتهم الى شيعتين اثنتين . شيعة متحمسة للنصرانية ، ومن رجالها الغلاة امية بن ابي الصلت وقس بن ساعده وورقة بن نوفل ، وشيعة متحمسة للجاهلية ومن رجالها الغلاة ابو سفيان بن حرب وابو جهل عمرو بن هشام وشيبة بن ربيعـــة ، ومنشأ ذلك كله ان النصرانية ظلت اغريقية رومانية فلم يخرج من العرب رجل يفسر اغراضها ومقاصدها ، في حين ان الجاهلية لقيت صبابتها في احلام كبار الشعراء من طراز امريء القيس والاعشى والنابغة . وقد كان الافق الذي عاشت فيه جاهلية العرب لا يعدو الكعبة وهذه الاطلال التي خلفها عرب النبط في بادية الشام وفي وادي القرى . وكما جرت النصرانية والوثنية الرومان والاغريق الى حروب ومنـازعات في الشوارع والطرقات . فكذلك جرت النصرانية والجاهلية العرب في الجزيرة والشام والعراق الى حروب ومنازعات في الشوارع والطرقات . فلم يقدر لعربي ان يفهم روح السيد المسيح ولكنه فهم امرأ القيس والنابغة والاعشى ، وقد كانت

الوثنيتان الرومانية والعربية تتشابهان في السلائق والصفات ، وكانتـــا الى ذلك تتلاقيان في الاغراض والاهواء ؛ استساغ الرومان في وثنيتهم عبادة الجمال ولذوا تحاسين الحياة ، فاستساغ العرب في جاهليتهم عبادة الجمال ولذوا تحاسين الحيـاة ثم عبد الرومان والاغريق جوبيتير ، فجاراهم العرب في عبـــادة اللات ، وانشأ الرومان الهياكل المرمرية زلفى لآلهة الجمال ديانا ، فساوقهم العرب في الانشاء واقاموا معبداً من حجارة الوطن للعزى ، وأولع شعراء الوثنية الرومانية الاغريقية ببطاح الاولمب فاولع شعراء الجاهلية العربية ببطاح مكة ووادي القرى واطلال النبط

لقد فكر عمر بن الخطاب في هذا كله وهو ينظر الى مســـارب وادي العربة وطرقاته فاشجى نفسه ان يعيش العرب في منابت احلامهم هذه العيشة المضنية التي تمنعهم من خلق الوطن الواحد ، والامة الواحدة ، بل لقد احزن عمر بن الخطاب الا يزخر وادي العربة وهو طريق العرب الى العالم الوارف الظل باناشيد الحرية التي رددها النبطيون يوم نذروا لوطنهم الصغير ان يطردوا الرومـان من دمشق فاوفوا بنذرهم وقضوا لبانة الوطن في توسيع حدوده واطرافه !

بلى لقد اثارت حزنه هذه الطرق العظيمة التي وقف يستعرضها وهو عند سرة الوادي فلما حدق الى ناحية الشرق تراءت له جبـــال سلع وهي غارقة في الغيوم ، ثم تطاغت هواجسه وذكرياته حينما لاحت له ذرى جبل هارون ، ذلك الجبل الذي تطاول الى السموات الفيح ، كأنما الطبيعة التي ارادته عاليا وشامخا قد ارادته على حراسة مدينة سلع النـــائمة على سفوحه وحدوره ، ومع ان الحر كان شديداً وعنيفا في الوادي ، فقد شعر عمر بن الخطاب الذي افلت من حرس قيصر ان في ميسوره ان يتعرف الى الحرية في منبتها الذاكي وان يشم عبقها السحور ، وكانت مسارب الجبال النبطية تتراءى له في كل ناحية فخيل اليه ان الوادي عاد يزخر باناشيد المساعير الكماة ، وتمثل هؤلاء وهم يزحفون الى دمشق بشيبهم وشبابهم ليجعلوا من المدينة الخالدة التي روعها الرومان ، واذلها الفرس جنة عدن للشعب العربي المنكمش

في الصحراء الغلفاء . وحينما ردد نظراته في جنوب الوادي ، ابصر الارض تزلق الى خليج ايلة . ولاحت له تلك الطريق التي اجتازها قومه لعبور سينـــاء في ذلك العصر القصي البعيد الذي خرج فيه ملوك من النبط لقتال الفراعنه على ابواب مصر ثم لم يلبث ان اشاح بنظراته الى ناحيـــة الشمال فاذا الوادي ينحدر الى شواطيء البحر الميت والى ضفاف الاردن ، ثم بانت له الطرق التي اخترقها الحارث النبطي يوم فكر في طرد الرومان من بيت القدس ! ثم لم يلبث ان صرخ صرخة عظيمة وهو يستعرض الوطن العربي كله ، بواديه وحواضره !

لارجعن اليك ايتها الارض المقدسة التي مس ترابها جبيني والتي اصغت الى صوتي الاول يوم وضعتني امي في المهد ! وسارتاح الى ذلك الوارف من تعب شديد عنيف ، ولكن لن ابثك حزن الرجل المهيض الجناح ، ولن اسمعك بكاء المكدود الذي امضى الحياة في البحث عن الوطن فلم يجده في ناحية من نواحي العالم ، وانما ساسمعك ايتها الارض قصة العبودية في الشام والعراق فتثور حماستك وتنتبه سلائفك ويخرج من جبالك القصية البعيدة جيل من الناس الى دمشق والحيرة ليردد عند الضفاف الكاسية العاشبة اناشيد الحرية ! ... وستجتمع ايتها الارض المقدسة في وادي العربة لنكتب قصة الحرية العربية من جديد

وللمرة الاولى بعد منقلبه من بصرى ترقرق على جبينه الوضيء خيال ذلك النبي الذي هاجر من مكة الى مدينة يثرب فراراً من اذى قريش فرق لهذا الخيال الفاتن واقسم ليموتن او يعطي النبي ارث كسرى وقيصر !

وكان يعلم ان كسرى وقيصر لايدريان شيئـــاً من امر هذا الوطن الذي ولد جديداً في بطاح مكة فازمع ان يسمع ذينك العظيمين اللذين استعبدا العالم شيئاً كثيراً من امره وكان يعلم الى جانب ذلك كله ان كثيراً من ارض وطنه لا يزال في معزل عن رسالة يتيم قريش في خيبر وفدك وتيماء جيل من اليهود لا يستسيغ هذا النشيد الحماسي الذي تعلمه العرب في مكة ، وفي وادي القرى جيل من المتنصرة على رأسه

بنو عذره وجذام وبهراء وبنو كلب وجهينة ومزينة وسليم وبلي . وهؤلاء جميعاً لا يستبدلون قيصر الرومان بقيصر من العرب لأنهم رجال حربه واحراس دينه ، وفي فلسطين والاردن وحوران ودمشق بنو كلب وجذام وغسان وقد صدف هؤلاء عن سلائق الجزيرة العربية وانساهم ترف الرومـان في دمشق وبصرى بؤس الارض القديمة التي احتضنت اباءهم الاول ، فكيف يستطيع هذا الوطن الذي نشأ جديداً في الحجاز ان يمتد الى دمشق وهو اذا فعل كان لا معدى له عن الاصطدام بحضارة اجنبية عند ابواب وادي القرى !

وفوق هذا كله كان للرومان محارس في وادي القرى ومسالح صغيرة يقوم على امرها اناس من قضاعة وقد الحق الرومان هذه الاراضي بفلسطين الثـالثة وهم يريدون من هذا الالحاق الا يفوتهم هذا الذي يحدث في الحجاز

وثمة امر آخر جعل يرمض هذه النفس العالية التي تجيش في صدر عمر ، وذلك ان الناس كان لا معدى لهم اذا خرجوا من وادي القرى الى الشمال من التوغل في اراضي قيصر ، وقد كانت هذه الاراضي تتفيأ ظل ملوك النبط فلما بسط قيصر ظله عليها لم يمنع قبائل الشام والعراق من ارتيادها ، فكانت سوق هذه القبائل في مواسم التجارة . في هذه الاطراف العظيمة الواسعة التي تتلاقى عندها قبائل الشام والعراق نشر الغساسنة سلطانهم باسم قيصر وطفق هؤلاء الذين ساوقوا الرومان في البذخ والترف يحاورون النبط في الصنيع السياسي حتى ليستساغ القول ان سياسة الغساسنة في الاطراف المحاذية للحجاز كانت مقتبسة من سياسة النبط وقد ارادت بزنطية من خلق هذه الامارات ان تمهد للتوغل السلمي في جزيرة العرب . وفي جنوب خليج ايلة واحة غنية خصبة اسمها عينا ا احاطها الرومان بمسلحة غسانية ، وفي ايلة عند شاطيء البحر يرابط جيش من الرومان والمتنصرة ؛ والى ابعد من هذا في ناحية الجنوب ما وراء مسالح الرومان في عينا ا وتبوك تنهض محارس غسانية قوية ارادها قيصر على التبشير بالثقافة البيزنطية الاغريقية

وكان الرومان يوجسون خيفة من ملوك العراق . ولهؤلاء الملوك اطماع واطماح في واحتي تيماء ودومة الجندل وقد حدث في عصور مختلفة ان توغل ملوك العراق في هذه الاطراف رجاة ان يتسربوا الى دمشق ويجمعوا بين امرها وامر العراق . فلم يفت بأسهم الرومان واحلافهم من متنصرة غسان وقضـــاعة وجذام فنشروا معسكراتهم في هذه الاطراف وهم ينزعون في ذلك الى ادراك غايتين اثنتين . دفع المناذرة ملوك العراق عن الشام واستمالة امراء نجد وتهامة ومنع الشآميين والعراقيين من الاجتماع في سوق عكاظ . ولم يتردد القياصرة بعد ذلك في انماء سلطان الغساسنة ملوك الشام ليخافهم ملوك العراق . فبعثوا بطائفة من بناة قصورهم ومهرة مثاليهم ونحاتيهم الى دمشق ، فانشأ هؤلاء قصوراً جميلة في جلق والجابية وافاضوا على هذه القصور روائع الفن البيزنطي فلم تلبث هذه التحـــاسين ان بعثت شعراء العرب وفيهم الاعشى والنابغة وحسان بن ثابت على استساغة الحياة الغسانية المترفة فصدفوا عن قصور الحيرة وزهدوا في ولاء ملوك العراق وصارت السنتهم تفيض بذكر الملوك من آل جفنه وكانت تفيض من قبل بذكر المنذر بن ماء السماء واخلافه

ولما استوثق الرومان من انتصار لغتهم في بادية الشام نزعوا الى اذكاء رقابة شديدة على تجارة الحجاز ومنعوا العرب من ارتياد دمشق الا في مواسم معينة فلم تجد قوافل القرشيين في رجعتها الى بلادها من غزة وبصرى معدى عن اللحاق بمدينة ايلة وهي الخط الحربي الذي اقامه الامبراطور تراجان واضطر اصحاب هذه القوافل وفيهم صناديد قريش كعبد الله بن جدعان وابي سفيان بن حرب الى النزول بهذه الفرصة من فلسطين ليستبدلوا تجارتهم بدنانير عليها صورة قيصر الرومان

وقر في ذهن عمر بن الخطاب وهو يستعرض هذه الصور الجاهمة في خواطره وينظر الى سهل العربة والى جبالة ان طائر الحرية العربية الذي انبثق جناحاه على اصلاد مكة سيظل حبيساً في وكره فما يحـــاول التحليق في افق آخر حتى يتحسر ريشه ويهيض به جناحاه ويتداعى على الارض فلا يسمع غناءه اولئك الذين يعيشون

على الضفاف الرخية الظل في الشام والعراق وقد يموت هذا الطائر ولا يفطن الناس الى مأساة حياته ! واذا ذكر الناس هذه المأساة ، فانما يذكرون شيئاً يسيراً عنها ، ولا يعدو هذا الشيء اليسير ، قصة طائر صغير غرد اغرودته الساذجة على روائس الاودية ثم طواه ليل الموت من قبل ان يبصر صباح الحياة

وكان لزاماً على جزيرة العرب ليغني هذا الطائر الصغير في كل افق ، ان تطهر آفاقها من نسور اليهودية وصقور الرومان وكان لزاماً على هذا الشعب الذي هزته اناشيد الحرية من شواطيء اليمن الى ابواب وادي القرى ان يطفر من بواديه ليردد اناشيده الرائعة في الاودية الجائشة بالينابيع !

وقد كان عمر بن الخطاب يثق بقدرة الوطن العربي على الانتصار فتمثله ذائداً ومناخاً في يوم بدر ، فابتسم لعنفوانه وشممه ، وهزته حمية هذا الوطن الصغير وهو يدفع عن محارسه ومحارمه جبابرة قريش وجبابرة اليهودية حتى ادرك غايته في النصر وآب من المعركة في غير كبر ورجعت قريش واليهودية معاً وحصادهما من الهزيمة البغض والحسد والعار ! ثم تمثل هذا الوطن الصغير يتفيأ الرايات الممزقة في أحد ومن حوله بنوه القتلى ودماؤه تسيل من جراحاته فخدق الى خياله فاذا هو لا يزال رائعـــاً وجميلا ، واذا هو يضحك لهؤلاء الذين خالطت وجوههم غشية الموت من بنيه الكرماء ! ثم امتدت تصوراته وهواجسه الى مـاضي هذه الديانة الغضة التي ولدت في غار حراء فاذا هو قريب من ذلك اليوم الذي خرج فيه محمد يتيم قريش في السنة الرابعة من الهجرة الى قتال بني النضير اصحاب اليهودية وحماتها فصفق لوطنه الذي طرد اليهود من يثرب ولم تفته انتصارات الوطن في يوم الخندق . وقد كان يوماً جليلا كبر فيه الوطن الطفل وكبرت غاياته ونمت مطامحه ، على الرغم من ذلك التحالف الذي وثق بين اغراض اليهودية واغراض الوثنية في جزيرة العرب

في صباح ذلك اليوم الذي تصرم من عام الهجرة الخامس آلى محمد بن عبد الله سيد قريش ليرجعن الى انصاره القلائل وهو منتصر ، وفي المساء آب اليتيم الى مثواه

وفي يديه المقدستين اسلاب اليهودية التي حالفت قريشاً عليه ، وقد كانت هذه المأساة التي نزلت ببني قريظة مثاراً لسلائق محمد اليتيم وكانت مصدر اريحيته وكرمه فعفا عن قريش وغفر زلاتها ، ثم تمادى في الصفح فلم يجنبه اولئك الذين صمدوا لقتاله من اليهود ! واقسم ليرجعن الى مكة رجعة الظافر ليصلي صلاته المتواضعة في الكعبة ويسمع صوته آلهة قريش واصنامها ، وفي السنة السادسة من الهجرة وقع صلح الحديبية وحقن الرسول دماء قومه وساواهم على هدنة طويلة الامد ، ولا تزال هذه الهدنة الى هذا اليوم . الذي اظلت فيه روابي وادي العربة عمر بن الخطاب !

وما دام الوطن الصغير الذي ولد في صخرة الغـــار قد جاز بعض الطريق الى بعض حريته فليس يعوقه في الغد ان يستأنف زحفه الى حصون اليهودية في خيبر وفي وادي القرى ثم هو يدأب في زحفه الى الارض التي روعها الرومان ليسمعها غناء ذلك الطائر الذي برع في حومانه وطيرانه في ميادين بدر وأحد وفي ارض بني قريظة وفي مكة وسيرجع عمر بن الخطاب الى الحجـــاز ليشترك في افراح الحرية العربية ويمزج غناءه بغناء اولئك الفتيان الذين اثاروا حماسة الوطن والهبوا حميته حتى اطرح ماضيه الشاحب ليستضيء بنور حاضره الخالب !

وفي تلك الاثناء بينما عمر بن الخطاب يستعرض تاريخ الوطن الصغير في عمره اليسير . اذا سهل العربة يفتح ابوابه ومساربه . فيطل منهـــا بعض الرائحين والغادين بين ايلة وجبال النبط ، وفيهم اناس من يثرب ووادي القرى فبرح مكانه في الوادي وتدفق اليهم حتى خالطهم وطفق يسألهم عن جزيرة العرب وعن قريش ثم عن ذلك النبي اليتيم فحدثه فريق عن السفراء الذين اوفدهم النبي الى ملوك فارس والرومان والعراق والشام ومصر والحبشة وحدثه فريق عن رجعة الذين هاجروا الى الحبشة من رجال محمد وفيهم جعفر بن ابي طالب ، فهش عمر لهذه العودة ثم تحدثوا اليه عن ازماع الرسول اليتيم الزحف الى خيبر والى وادي القرى

وكان رجال القوافل الذين احتفل بهم الوادي يسوقون احاديثهم في غير موارية

ولا رياء وقد فاتهم امر هذا الرجل الذي اخذ يسألهم الشيء الكثير عن الوطن فلم يسألوه عن مصدره ومورده ، ثم نصبوا خيامهم بجوار حائر قريب وطفقوا يغنون تلك الاغاني التي علمهم اياها بعض الفتيان الذين انتصروا في ميادين بني النضير وبني قريظة . فلذ اصواتهم الصافية الناعمة ، ونزع الى مساوقتهم في الغنـــاء ، ولكنه امتنع لأن النشيد الذي استفاض على الافواه من صدور تزخر بالحماسة وامتد الى حواشي الافق في سهل العربة العظيم ظل عاريا من بهاء هذه الجنان الضاحكة في الشام والعراق ، ثم احس وهو ينظر الى وجوه هؤلاء الوادعـين المرحين ان في صدره الهادر نشيداً جديداً لو سمعته البلاد النائمة مـــا وراء هذه الاطراف للذت ترديده وترجيعه !

لقد ولد هذا النشيد في نفسه عند سفوح العربة عن كثب من المسـارب التي تحسر عن الطرق المؤدية الى دمشق وايلياء والعراق ومصر فاترعه بكل ما يجيش به صدره من حب لهذا الوطن الذي ولد على الاصلاد الكابية ثم اراق عليه زهوه وعنفوانه وحماسته وحرص على اخفائه في جوارحه فلا يحسر عنه الا في ذلك اليوم الذي يخرج فيه بقومه الى العراق او الى ايلياء ودمشق او الى مصر ليبني بجوار المعابد التي اقامها الرومان والفرس والفراعنة معبداً لقومه يذكرون تحت قبابه اسم يتيم قريش !

ولما اغشى الليل ونشر ذوائبه الفاحمة في ذلك السهل الافيح المملوء بذكر الماضي لحق عمر بن الخطاب بالقوافل التي عادت به من بصرى وصدره لا يزال يزخر بذلك النشيد الذي وضع معانيه ولم يسمع لحونه ثم طحا القمر على روائس الاودية وتريق نوره على الجبال الشم والحدور الهاوية وانشد العائدون الى وطنهم بطريق خليج ايلة اغاني بني عذره في الحب والمرح ولكن عمر بن الخطـــاب لم يشترك في هذه الاغاني ، لأنه جعل يفكر وهو على ناقته في طرد كسرى وقيصر من الشام والعراق . ؟

تم الجزء الاول

فهرس الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٣	سنة ست عشرة وستمائة	سنة ثمان وعشرين وستمائة
١٣	٣	فلم يفت كاسيوس	فلم يفت مارسيليوس
١٧	١٠	نسي كاسيوس وكلماته	نسي مارسيليوس وكلماته
٧٦	٩	في القرن السادس	في القرن السابع
١٠٤	١١	تنكب طريقه الى منزله الى ضفة النهر	تنكب طريقه الى منزله على ضفة النهر
١٠٧	٤	وذلك كان اسم امه	وذلك كان اسم امه في حداثتها
١١٦	١٢	ايار سنة ست عشرة وستمائة	ايار سنة ثمان وعشرين وستمائة
١٢٧	١١	كان وكذلك بارا	وكذلك كان باراً
١٣٧	١٦	لجئته بطام	لجئته بطعام
١٤٢	١٦	سنة اثنتين وعشرين وستمائة	سنة ثمان وعشرين وستمائة
٢٠٣	٨	قد اذن رجاله	قد اذن لرجاله
٢٤٢	١٥	مجتمعاً في تصورته	مجتمعا في تصوراته

مصادر الجزء الاول من الرواية

« الكتب العربية »

الاغاني . الطبري . تاريخ ابن عساكر . ابن الاثير .

(الكتب الاجنبية)

تاريخ فتح العرب لمصر	للمستشرق الانكليزي جورج الفريد بتلر
تاريخ فتح العرب للشام	للمستشرق دي غوج
كتاب دولة الانباط والبتراء	للأستاذ كامرر
كتاب سورية القديمة والحديثة	للأستاذ جول آ. دافيد
العرب في سورية قبل الاسلام	للمستشرق الافرنسي رينه ديسو
جزر الامراء	للأستاذ غوستاف سيشلمبرجر
الامبراطورية البيزنطية في الشرق	للأستاذ شارل ديل



رواية تاريخية اجتماعية

تأليف الاستاذ معروف الارناؤوط

عضو المجمع العلمي العربي

وهي في ثلاثة اجزاء :

الاول : سطيح ، الثاني : امرؤ القيس بن حجر ، الثالث : رايات ذي قار

وعدد صفحات هذه الاجزاء الثلاثة الف صفحة مزينة بصور تاريخية بديعة ، وقد طبعت في خلال سنة واحدة مرتين اثنتين واربى عدد النسخ التي وزعت في العالم العربي على خمسة آلاف نسخة ولا تزال هذه الرواية الخالدة مفخرة من مفاخر الادب العربي القومي الحديث وهي الآن موضع اهتمام الاندية الادبية في الشام والعراق والحجاز ومصر ، وقد طلب بعض كبار المستشرقين الاوربيين من مؤلفها السماح لهم بنقلها الى لغات الامم التي ينتسبون اليها . وسيد قريش تكاد تكون مقدمة لحوادث الرواية الثانية **عمر بن الخطاب** فليس يستغني عربي عنها لأنها تدله على تاريخ مفصل لجهاد العرب في سبيل الحرية ضد الرومان والفرس في السنوات التي سبقت البعثة النبوية الى اليوم الذي خرج فيه محمد سيد قريش وسيد الدنيا من غار حراء برسالته الى العالم

وفي الرواية وصف جميل لحياة العرب الاجتماعية والسياسية وفيها كذلك وصف بارع لصلاتهم التجارية والاقتصادية والسياسية بالرومان والفرس !

وقد كتبت الرواية بلغة سامية كانت العامل الاكبر على خلودها وطبعت المرة الثانية على ورق جميل وثمنها اربعون فرنكا وهي تطلب من مؤلفها في دمشق ؟